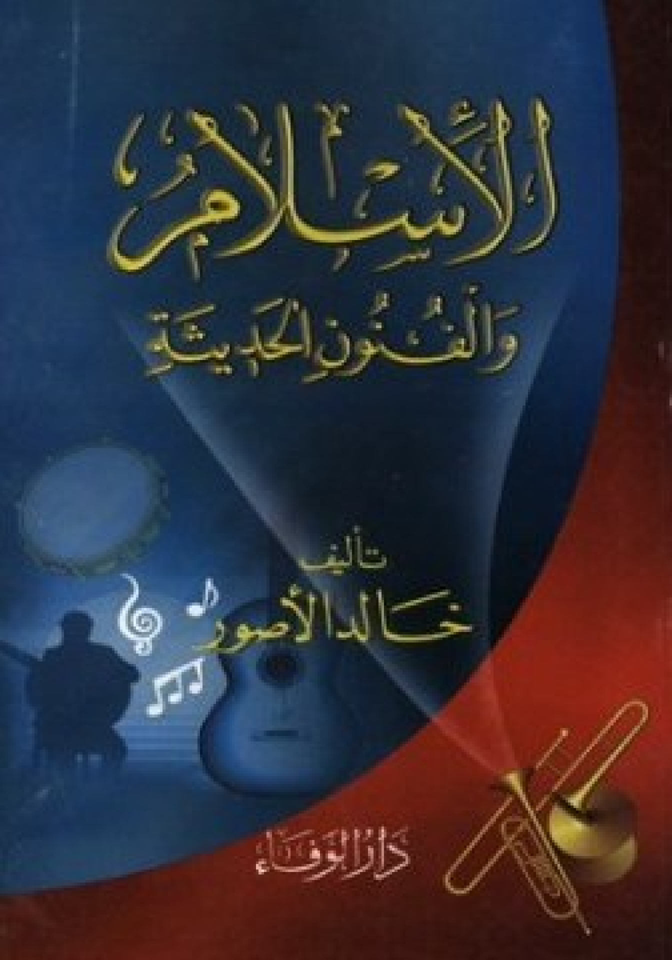

الإسلام
والفنون الحديثة
تأليف
خالد الأصور
دار الوفاء

الإسلام
والفنون الحديثة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ج.م.ع ـ المنصورة
الإدارة :ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٣٠/ ٢٢٥٦٢٢٠ ـ فاكس :٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM



تأليف

خالد الأصور

دار الوفاء



هذا الكتاب فائز بالجائزة الأصلية الأولى

لمسابقة

« الدعوة والفقه الإسلامى »

وقف المستشار الدكتور

محمد شوقى الفنجرى

مقدمة

الفنون ينطبق عليها أنها « تعبير عن تجربة شعورية فى صورة موحية ، فغايتها الأولى هى التصوير والتأثير : تصوير المشاعر والأحاسيس والوجدانات التى تخالج نفس الفنان ، والتأثير فيمن يطالعون عمله الفنى ليشاركوه أحاسيسه ، وتعيد نفوسهم تمثيل التجربة الشعورية التى عاناها ، إلا أن أداة التعبير الفنية فى كل فن عنها فى الآخر تختلف ، فهى فى الموسيقى أصوات ومسافات ، وفى التصوير ألوان وخطوط ، وفى النحت أحجام وأوضاع ، وفى الأدب ألفاظ وعبارات » [1] .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك فى مجال التعريف الاصطلاحى للفن بأنه : ضرب من ضروب الإحساس بالجمال وصناعته واكتشافه ، وطريقة متميزة فى التعبير عن قيم أو أفكار أو أوضاع معينة بنوع من الرمز والإيحاء والإشارة وتكثيف الدلالات ، والفن هو التطبيق العملى للنظرات العلمية بالوسائل التى تحققها ، وجملة الوسائل يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف كالتصوير والموسيقى والغناء والشعر .

وغاية الفن الإسلامى أن يتخلق الإنسان المسلم بالأخلاق التى شرعها الله ، ثم يحقق خلافته على هذه الأرض بالتأثير فى الحياة بعد تصويرها .

الفن والدين عبر التاريخ :

لا شك أن قضية الفن من القضايا التى شغلت الخلق على مساحة الأرض وعبر التاريخ مروراً بكل الحضارات القديمة والحديثة ، ولاشك أيضاً أن هناك علاقة وثيقة بين الفنون والأديان على اختلافها ، وقد عرف بعض الفلاسفة الفن بأنه هو التعبير المادى لفكرة دينية فى الإنسان أو بواسطة الإنسان ، ثم انتقل نشاط كافة الفنون إلى أغراض حضارية متنوعة تخدم فى كافة مناحى الحياة .

هذا، وكانت هناك بصمات تختلف من حضارة إلى أخرى عبر التاريخ، بحيث يمكن تمييز هذه البصمات من شعب إلى شعب،ومن دين إلى دين،ومن عصر إلى عصر، فهناك عصور ما قبل التاريخ ثم ما تلاها ، وخلالها كان الفن فى خدمة باقى ديانات

(١) سيد قطب : النقد الأدبى أصوله ومناهجه ـ دار الشروق ـ ص ١٠٣ .

الشرق القديم فى بابل وآشور وغيرهما .

ثم جاء الدين اليهودى فعمل على الحيلولة بين الإنسان والفن حتى يبعده عن عبادة الأوثان ، حيث ورد فى التوراة (فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج) ما نصه : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما » .

ثم تلاه الدين المسيحى وانتشر بين بنى إسرائيل والدولة الرومانية ، وكما فعل الدين اليهودى فعل الدين المسيحى ولكن بشىء من المرونة وبأقل حدة ، فورد فى إنجيل متى فى الإصحاح السادس: « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين » ،وذلك فى إشارة إلى تحريم التصوير والنحت والتماثيل .

أما الدين الإسلامى فقد حرص على إبعاد المسلمين عن الوثنية وعبادة الأصنام ، وبذلك نهى الإسلام عن نحت الأصنام والتماثيل، إلا أنه اتجه إلى إتقان عدد من الفنون التى أصبح من المتعارف وصفها بالإسلامية نظراً لأن إبداعها كان فى ظل الإسلام ، مثل فن العمارة الإسلامية التى تتميز عن غيرها ، وكذلك فن الزخرفة الذى وصل إلى مستوى رفيع ، واعتمدت هذه الزخارف على العناصر الهندسية الدقيقة والنباتية أيضاً ، حتى برع الفنان المسلم فى هذا الفن الجديد الذى سمى بـ « أرابيسك » أى: الزخرفة العربية .

حب الجمال من الفطرة :

لقد خلق الله النفس البشرية عادة تعشق الجمال الحسى الذى يصل إلى الإدراك من الحواس وتكره القبيح ، فهى تحب المناظر الجميلة فى الطبيعة الساحرة من خلق الله تبارك وتعالى فى بديع صنعه ، فى جمال الألوان للأزهار والثمار والأطيار والفراش وغيرها ،كما تحب الأصوات الجميلة والنغمات الهادئة وتنفر من الأصوات المنكرة والقبيحة ، فزقزقة العصافير وخرير الماء قد يطرب النفس ويريحها ، كذلك الروائح الطيبة تحبها النفس ، وتكره الروائح الخبيثة ،وكذا لذة الطعام والتذوق وسائر الحواس ، ولما خلق الله الدنيا على الاختلاف ـ وهى من أجل حكمته ـ كان اختلاف أمزجة الناس وميولهم تبعاً لإرادة الله فى خلقه ، ولولا اختلاف الأمزجة لبارت البضائع ،والأصل فى الأشياء الإباحة ـ وفقاً للقاعدة الفقهية المعروفة ـ مالم يرد نص بالتحريم ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي**

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ومعروف أن التمتع بملذات الدنيا شرط لمعرفة ملذات الجنة بالقياس والمقارنة وإلا ماعرفنا للجنة فضلاً !!

أهمية الفن والجمال (١) :

من الصعب أن ننكر أهمية الفن والجمال ، لأننا لو حاولنا دراسة الحياة من جانبها الفردى أو الاجتماعى ، من وجهها المتمدين أو البدائى ، الحديث أو القديم لما استطعنا أن نتجاهل مظهرها الجمالى ، وكلما عدنا أدراجنا إلى أبعد ما توصلنا إليه التقاليد الإنسانية وجدنا الإنسان يطرب ويغنى ، وينحت فى الصخر ، ويرسم فى الكهوف ، ويزخرف درعه الحربى أو عدته ، كما أنه سرد القصص للمتعة والسرور ، وعموماً لا توجد أمة أو حقبة من التاريخ تجاهلت الفنون .

إن الفن متغلغل فى السياسة والدين ، فى الحب والحرب ،إنه يمس أخص خصائص الحياة اليومية كالملبس والمسكن والأثاث ،ولا يوجد نشاط إنسانى أو مؤسسة من مؤسساته يمكن أن تدعى أنها تقدم خدمات للجمهور فى إنتاجها ،دون أن تراعى بعض التذوق الفنى فى إنتاجها الذى يهدف إلى إرضاء العين .

إن الحياة بغير جمال مملة مقفرة ، فلو تصورنا أن الأرض لا تنبت عشباً أخضر أو شجراً ، وأن السماء كانت دائمة رمادية اللون ، وأن كل الوجوه الإنسانية صورة مكررة بدون تغير ، وأن كل المبانى لونها كلون الطين بلا تناسق ، وأن الموسيقى انعدمت ، وكل الأصوات لم يعد فيها رقة ، أى لو تحطمت كل مباهج هذه الحياة فلا معنى لها ، وعلى ذلك فلا مغالاة فى قولنا : إن الجمال فى طبيعة الإنسان يرضى أم لم يرضى، فالطفل فى مهده لاينام إلا إذا سمع صوت أمه وهى ترنم له ، فالغناء يريح أعصابه ويجعله يسترسل مع إيقاعه فيطرب وينام ، والطفل فى حالات نشوته يناغى ، والمناغاة تعبير تلقائى جميل ينظم به الطفل مكنونات نفسه ، والبائع يتفنن فى تنسيق بضاعته ويغنى معلناً عنها .

إننا إذا حللنا الدافع للتجميل نجده هو الواقع فى سلوك كل شخص متمدين : يرسل ملابسه إلى المكوجى ، ويفصل ملابسه ويراعى فيها الأناقة والتناسق كلما أمكنه ذلك .

---

(١) د . محمود البسيونى :الفن والتربية ،دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٨٤م ، ص ١٣ ـ ١٦ .

إننا نفكر فى الجمال حينما نقرر لون جدران المسكن وتناسبه مع الأثاث الذى سنضعه فيه ، كما نعيه عند رسم تخطيطات المدن وتنظيم الشوارع وتنسيق الحدائق وغرس الأشجار ، نراه عندما ننظم الكتابة فى صفحة بيضاء ، أو عند تنظيم الأفكار وتسلسلها فى مقال ، فالجمال ظاهرة أصيلة وراء كل الأشياء فى الطبيعة وفيما ينتجه الإنسان ، والجمال عندما ينتظم فى أى إنتاج ويصبح هذا الإنتاج مستوفياً شروطه يكون فناً ، وعلى ذلك فالقطعة الفنية هى التى تحقق أسس الجمال بوفرة ، وهى مستهجنة إذا انعدمت فيها هذه الأسس أو كادت .

الفن والتربية :

وتهدف التربية الفنية الإسلامية المراد غرسها فى الإنسان إلى تنمية مجموعة من الصفات والعادات والمهارات التى لها قيمتها فى بناء الشخصية وتكاملها ، والإسلام فى مواقع كثيرة أكد على هذه الخصائص ، وفى مواقع متعددة من القرآن الكريم نشاهد بجلاء أهداف التربية الفنية التى تهدف إلى تنمية التذوق الجمالى وإدراكه ، سواء فى الطبيعة أو فيما ابتدعته يد الإنسان الفنان فأثرى الحياة فى شتى مرافقها ، والإسلام واضح فى اهتمامه بالجمال والتزين ، فهو يوجه المسلمين إلى أن يتزينوا حين يذهبون إلى المساجد حتى يبدو مظهرهم جميلاً : ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١] ، كما يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا** ﴾ [الكهف : ٧] ، ويقول عزوجل : ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ [الملك : ٥] ، ويقول : ﴿**وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا** ﴾ [فصلت : ١٢] ، ويقول : ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)**﴾ [الحجر] ، ويقول : ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا**﴾ [ق : ٦] ، ويقول: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف : ٤٦] ، ثم يقول تعالى مستنكراً : ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ ثم يقول مقرراً بالنسبة لهذه الزينة والطيبات: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف : ٣٢]، ويوجه الخالق تبارك وتعالى الإنسان ليرى البيئة التى خلقها بقدرته ويتذوقها : ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)**﴾ [الغاشية] .

ويسخر القرآن من الذين ينظرون ولا تتعمق نظرتهم إلى بصيرة : ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ**

إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾ [الأعراف] ، ثم يقول عز وجل : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف] فهو ينكل هنا بالذين لا يستخدمون حواسهم ، ويصفهم بالحيوانات التى تحركها غرائزها ، بل هم أقل منها ، حيث إن بعض الحيوانات بتقربها للإنسان تعكس عليه حناناً ، وحباً ووفاءً قد يفوق ما يعكسه الإنسان على الإنسان .

وقد ذكر الجمال فى آيات متعددة من القرآن الكريم وفى مواقف مختلفة ، حتى أنه تجاوز الجمال من ناحية الشكل إلى الغوص فيه كأساس سلوكى ، فالصفح جميل ، والصبر جميل ، و الهجر وإن لم يكن جميلاً ولكن يمكن أن يؤدى بجمال ، ولنتأمل قول الله تعالى فى وصف الأنعام : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل] ، وفى الصفح : ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر] ، وفى التسريح : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩)﴾ [الأحزاب] ، وفى الصبر : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥)﴾ [المعارج] ، وفى الهجر : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً(١٠)﴾ [المزمل] ، فها هو ذا الجمال قد وسع فى آيات الله وعمم ليكون أسلوباً للسلوك الخير ، وهو فى الواقع أمل تهدف إليه التربية الفنية بمفهومها الإسلامى ، بحيث ينتقل الجمال إلى عادات حية مؤثرة فى المسالك الاجتماعية التى يقوم بها الفرد ، وحينئذ يمكن القول : إن سلوكه أصبح يتسم بالجمال .

مقاييس الجمال (١) :

إن طبيعة الإنسان تنجذب لكل ما هو جميل وقد ورد عن رسولنا ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » ، وقد شاءت إرادة الخالق المبدع أن يجعل الجمال فى شتى صوره مناط سعادة الإنسان ، واستساغة الجمال حق مشاع ، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن للجمال مقاييسه الحسية وحدها ، تلك التى تقع عليها العين أو تسمعها الأذن ، أو يشمها الأنف ، أو يتذوقها اللسان ، أو تتحرك لها لمسات الأطراف العصبية ، فالجمال : مادة وروح ، إحساس وشعور ، عقل ووجدان ، ولحكمة يقول الله فى كتابه العزيز : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] .

(١) د . نجيب الكيلانى : مدخل إلى الأدب الإسلامى ، كتاب الأمة ١٤ ، ١٩٨٧م ، ص ٨٨ ـ ٩٣ بتصرف .

إن القرآن يوجه الحس البشرى للجمال فى كل شىء ، ويسعى لتحريك الحواس المتبلدة لتنفعل بالحياة فى أعماقها ، وتتجاوب تجاوباً حياً مع الأشياء والأحياء ، وهنا يلتقى الفن بالدين ، « والفن الصحيح هو الذى يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق ، فالجمال حقيقة فى هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود » .

والجمال بداهة لا يرتبط بالمظاهر الحسية وحدها ، فالمرأة الجميلة لا يصح أن تكون مجرد أداة لإثارة الشهوة البهيمية ، وجمال الطبيعة وما فيها من ورود وزهور وأنهار وجبال وطيور ، ليس مجرد جمال سطحى ، لكنه ينبع من قوة مبدعة قادرة ، خلقت فأحسنت ، وصنعت فخلبت الألباب والأبصار،وأثارت الفكر والتأمل ، وإذا كان الاستمتاع بالجمال مباحاً فى الأصول الإسلامية، فإنه مدخل إلى ارتقاء الروح والذوق ، وهو سبب من أسباب الإيمان ، والقيم الجمالية الفنية تحمل على جناحيها ما يعمق هذا الإيمان ويجعله وسيلة للسعادة والخير فى هذه الحياة .

إن اقتصار الفن على دور البحث عن الجمال وحده تعطيل لوظيفة حيوية ، وهو الذى يمكن أن ينقل الفنون والآداب إلى متاهات العبثية والانفلات ، ومهما كان الجمال مطلوباً لذاته ، فإن فاعليته تكون أجدى إذا ما ارتبطت أسبابه بتجلى الحقائق .

الفكر الإسلامى وثقافة الجمال :

نخلص من كل ما سبق إلى أن اهتمام المسلمين بالجماليات لم يكن أمراً طارئاً أو تأثراً بثقافات أخرى ، ولكنه كان أمراً عميقاً فى الثقافة والحياة الإسلامية ، وأى متتبع للفكر الإسلامى يجد مسألة الجمال والإحساس به وتذوقه والاهتمام بفنونه، هو أحد الأبعاد الأساسية فى هذا الفكر الذى ينبع أساساً من المصدر الأول له وهو القرآن الكريم؛ الذى ينطق باللفظ الجميل ويصور المعانى الجميلة .

قد عبر الرسول ﷺ فى حياته وسلوكه عن عمق القيم الجمالية ، فدعا لتغيير بعض الأسماء المنكرة بأسماء جميلة ، فغيَّر اسم امرأة من عاصية إلى جميلة ، و غير اسم رجل من حزن إلى سهل ، ويعقب الإمام ابن القيم على ذلك بقوله :« ولما كانت الأسماء قوالب المعانى ودالة عليها ،اقتضت الحكمة أن يكون بينها ارتباط وتناسب ، بل للأسماء تأثير فى المسميات ،وللمسميات تأثر عن أسمائها فى الحسن والقبح والخفة

والثقل ، واللطافة والكثافة » .

إن ثقافة الجمال والاعتناء بها فكراً وتنظيراً وتطبيقاً ليست من ضروب الترف كما قد يظن أو يعتقد بعض الناس ، وليست من الأمور الكمالية فى أى مرحلة من مراحل حياة الإنسان ، بل إنها من صميم عملية التربية الصالحة السوية ، ومن التكاليف الإسلامية ، حتى أن الإمام الشاطبى فى كتابه « الموافقات » جعلها من مقاصد الشريعة الإسلامية ، ووضع لها عنواناً لطيفاً هو « التحسينات » ،وهى عنده تعنى الأخذ بما يليق من محاسن العادات ، وتجنب الأحوال المدنسات ، التى تأنفها العقول الراجحة ، ومن حسن العادات النظافة وأخذ الزينة وأشياء أخر تجرى مجرى التحسين والتزين ، وهى كذلك جزء من القدرة التنظمية ، حيث إن النظام حالة جمالية ؛ ولذلك تجد أكثر الناس خرقاً للنظام العام أقلهم اهتماماً بمعانى الجمال والذوق العام .

وهكذا فإن توسيع دائرة الاهتمام بالبعد الجمالى فى الحياة العامة ، تجعلها أكثر قرباً من النموذج الإسلامى ، فالحدائق الجميلة والشوارع النظيفة والعادات الصحية علامة من علامات عمق الحس الجمالى فى المجتمع ، وأى مجتمع لايتمتع بذلك المستوى من التقدير لجمال ونظافة شوارعه وحدائقه ومؤسساته الخدمية العامة، لن يستطيع أن يبنى له أية قيمة وانسجاماً مع ذلك ، فكلما ضعف فهم الإسلام عند الناس ، انحسر وقل الحس الجمالى والتذوق الفنى فى حياتهم .

لا فن بلا جمال :

لا تصور للجمال بلا فن،ولا تصور للفن بلا جمال،فالفن قبل أن يترجم كان فكرة فيها تمازج وتمايز أحدث جمالاً ،والدار قبل أن تترجم كانت حقائق فيها تمازج وتمايز ، ثم قام الفنان المهندس بعكس ذلك على الواقع الملموس باللبنات ، وقام الأديب بعكسه بالكلمات ، ولا فارق بين الاثنين إلا أن المهندس أخرج الفكرة واقعاً متحققاً فى الخارج بمواد البناء ، وأن الأديب أخرج القصة واقعاً متحققاً فى الخيال والتصور بالكلمات ، لأن اللغة رمز للواقع وليست هى الواقع كاللبنات وغيرها ، وأن المهندس ترجم الحقائق من أشكال ومقاييس ومواد ، وأن الأديب ترجم الحقائق والوجدان معاً ، وأن الأول ترجم العقل ، وأن الآخر ترجم النفس ، والنفس تساوى الوجدان والعقل معاً ، وعلى هذا فالجمال هو الفن قبل الترجمة ،أو هو الفن بالقوة ، والفن هو الجمال بعد أن

ترجم أو هو الجمال بالفعل كما يقول المناطقة عن السكين : قاطعة بالقوة ، وقاطعة بالفعل بعد أن قطعت ، والفنان هو الوسيط الموهوب بين الاثنين (الفن والجمال) ، أو هو همزة الوصل بعبارة أخرى ، وهذا التلازم بين كلمة فن وكلمة جمال هو الذى يجعل كلمة « فن » تتداخل فى الاستخدام مع كلمة « جمال » كثيراً ، عن طريق المجاز حيناً ،وعن طريق التجاوز عن الدقة حيناً آخر (١) .

إن الجمال فى الفن « الإسلامى » مدخل إلى الارتقاء بالروح والذوق ، والسمو بالنفس ، وملهب للعاطفة ، ومنشط للوجدان ، ومحرك للفكر كى يجول فيما هو أبعد من المظاهر الحسية ، كما أنه قد يكون سبباً من أسباب الإيمان ، فالقيم الجمالية تعمق هذا الإيمان .

والفن الإسلامى موكل بالجمال ، فليس مجانباً للقيم الفنية الجمالية ، يحرص عليها أشد الحرص ، بل ينميها ويضيف إبداعاته إليها ، والتراث الجمالى العالمى ملكية شائعة كالدين والفلسفة والعلوم لا يحتكرها شعب دون آخر ، كما أن كلمات الصدق والشجاعة والورع والإيمان إذا جاءت عارية من الإشراقات الروحية الجمالية التى يشعها البناء الفنى ، أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحى بشىء ، إذن فالأدب أو « الفن » الإسلامى ليس قواعد جامدة ، أو صنيعًا معزولاً عن الحياة والواقع ، أو خطباً وعظية تنقلها النصوص والأحكام ، ولكنه صور جميلة نامية متطورة تتزين بما يزيدها جمالاً وجلالاً (٢) .

فالأدب و« الفن » الإسلامى موكل بالجمال يتبعه فى كل شىء ، الجمال بمعناه الواسع الذى لا يقف عند حدود الحس،ولا ينحصر فى قالب محدود، جمال الكون ، وشموسه ، وأقماره ، وما بينهما من تجاذب وارتباط ، وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار ، وجوامد وأحياء ، وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير وطلاقة وارتفاع ، وجمال القيم والأوضاع ، والنظم والأفكار والمبادئ ، كل ذلك ألوان من الجمال يحتفى بها الفن الإسلامى ويجعلها مادة أصيلة للتعبير ، بل هو يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية سواء السلب أو الإيجاب ، فهو حين يعرض الاختلالات فى أى مجال ، يعرضها على أنها قبح ينافى حقيقة الجمال (٣) .

(١) د . عبد الله عووضة :ماهية الفن والجمال ، هيئة الكتاب ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) د . عماد الدين خليل : مجلة الحرس الوطنى ، العدد ٩٤ .
(٣) د . نجيب الكيلانى: مرجع سابق ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

الدافع إلى البحث :

لعل من أهم الدوافع التى حفزتنى على وضع هذا الكتاب هى ندرة الكتابات الشاملة فى موقف الإسلام من الفنون الحديثة ، وإنما هى ـ غالباً ـ فصل فى هذا الكتاب، وفصل فى ذاك ، حول نوع أو نوعين من تلك الفنون ، حتى الكتب المستقلة التى صدرت عن الفنون لم تتناولها بصورة شاملة ،وإنما ركزت على بعضها دون الآخر، خاصة فى ظل الجدل الدائر حول موقف الإسلام من الفنون الحديثة ، والذى انحصر بين فريقين : فريق يحرم مطلقاً ، وفريق يبيح ، وإلى جانب هذا الفريق نقف، ولكن مع ضبط هذه الإباحة بالعديد من القيود والضوابط .

وما ذهبنا إليه من آراء واجتهادات فى هذا الكتاب ، لا نزعم احتكارها لوجه الحقيقة ، ولكننا نتمثل قول السلف الصالح : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب .

والله تعالى من وراء القصد .

خالد محمد الأصور

الفصل الأول

الإسلام والفن والجمال

- إدخال السرور على المسلم .
- المفهوم الإسلامى للفن .
- الفن والأخلاق .
- الفنون الحديثة والإبداع التربوى .

إدخال السرور على المسلم

الإسلام دين الشمول ، يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، ويضع مصلحة الإنسان فى المكانة التى تليق به وبخلافته ، وهو يرعى شؤون البشر بشكل عام والمجتمع المسلم بشكل خاص ، بما يتلاءم مع الدور الذى ارتضاه تعالى لهم ، والتكاليف الشرعية التى افترضها عليهم .

ولقد حرص الإسلام على تصحيح مفهوم ونظرة الناس إلى الخالق والكون والحياة، ذلك أن مفهوم التدين فى فترات الانحراف البشرى،والابتعاد عن المصادر الصحيحة للوحى انحرف عن حقيقته وبات محصوراً فى زوايا المعابد والصوامع، وبات أكثر الناس يتصورون الدين حرماناً من الحياة ومباهجها،حتى ابتدع البعض التبتل والرهبانية والانقطاع عن شهوة الجسد،ونظروا إلى العلاقات الجنسية نفسها نظرة تحريم قاسية ولوكانت ضمن إطار الزواج الشرعى،ومنهم من اعتنق فلسفة تعذيب الجسد طريقاً إلى الخلاص،واعتبر الحرمان هو أبو الإخلاص للخالق بزعمهم؛ فنظروا شذراً إلى كل متنعم ،و إلى كل مستمتع، بغض النظر عن مشروعية تنعمه وأبواب الحلال التى يسعى إليها .

وفى عصور التراجع الحضارى وظلام الجهل فى فترات متقطعة ألقت بظلالها الثقيلة على عالمنا الإسلامى، اتجه بعض المسلمين اتجاه الزهد فى الدنيا ، لا بمعنى الترفع عن دناياها واجتناب شهواتها القاتلة واستدراجاتها ذات المنزلق الخطير ، وإنما بمعنى التخلى عن صناعة الحياة والمساهمة فى بنائها ،والانخراط فى مختلف ميادينها .

وفى حمأة ذلك كله يغيب عن الذاكرة دعوة النبى ﷺ وتوجيهه الكريم للمسلمين إلى عمارة الأرض، والقيام بدور الاستخلاف وشكر الله تعالى بطاعته والتمتع بما خلق كما أمر . وهو القائل :« إن أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم » .

وما أحوج المكتبة الإسلامية فى زماننا هذا إلى كتابات تبين لنا حدود المباح، وحدود المحرم فى مسألة الفنون،وتوضح لنا كيف كان النبى ﷺ والصحابة والتابعون يعيشون

حياتهم اليومية فى هذا الجانب؛ من الحاجة الإنسانية للترويح والاستراحة من متاعب العمل اليومى وضغطه ، لا سيما ووسائل الترفيه وأسبابه وإغراءاته باتت صناعة رائجة، لها عالمها الخاص وإمكاناتها التى تتبارى فيها الشركات والمؤسسات ، ولسنا نبالغ فى القول: إن الدول اليوم باتت مطالبة بتقديم خدمات الترفيه، وتوفير فرص الابتعاد عن ضغط الحياة اليومى ؛للحفاظ على التوازن النفسى لدى الفرد والجماعة .

والدعوة إلى ذلك لا تنطلق من باب الدعوة إلى التفلت وترك الأولى أو إهمال العزائم ومقومات الورع ، وإنما تنطلق من باب شكر الله تعالى على نعمائه ، وتعبده بحلاله ، وينسب للإمام الشوكانى قوله :« إن التنزه عن الحلال ليس من الورع » ، ويقال :إن أحدهم امتنع عن شرب العسل أمام الإمام الثورى ، فسأله الأخير : لم أمسكت عن شرب العسل ؟ فقال : أخشى ألا أؤدى شكره ! فقال له الإمام: وهل تؤدى شكر الماء البارد ؟!

إننا نحتاج فى عصرنا الحاضر أن نعيد النظر فى بعض المسلَّمات التى يغلب على ظننا أنها من الدين، وأن مخالفتها مخالفة شرعية تستوجب غضب الله تعالى، ولا ننكر ضرورة توفير الجو السليم والوقوف فى وجه موجات الإفساد،ذلك أن أبواب الحلال تحتاج إلى إقفال أبواب الحرام ، كما أن إطالة لائحة المحرمات دون توفير البديل الحلال ليس من الإسلام فى شيء، والأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما نص الشرع على تحريمه.

ساعة وساعة (1) :

إن الإسلام دين واقعى لا يحلق فى أجواء الخيال والمثالية الواهمة ، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع ، ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ،ولكنه يعاملهم بشراً يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ لذلك لم يفترض فيهم ولم يفرض عليهم أن يكون كل كلامهم ذكراً ، وكل صمتهم فكراً ، وكل سماعهم قرآناً ، وكل فراغهم فى المسجد ، وإنما اعترف بهم وبفطرهم وغرائزهم التى خلقهم الله عليها ، وقد خلقهم سبحانه يفرحون و يمرحون ، ويضحكون ويلعبون ، كما خلقهم يأكلون ويشربون .

ولقد بلغ السمو الروحى ببعض أصحاب النبى ﷺ مبلغاً ظنوا معه أن الجد

(1) د . يوسف القرضاوى:الحلال والحرام فى الإسلام ،المكتب الإسلامى ،ص ٢٨١ ـ ٢٨٣ بتصرف .

الصارم، والتعبد الدائم لابد أن يكون ديدنهم ، وأن عليهم أن يديروا ظهورهم لكل متع الحياة وطيبات الدنيا ، فلا يلهون ولا يلعبون ، بل تظل كل أفكارهم وأبصارهم متجهة إلى الآخرة ومعانيها ، بعيدة عن الحياة ولهوها .

ولنتأمل حديث هذا الصحابى الجليل حنظلة الأسيدى، وكان من كتاب رسول الله ﷺ ، قال يحدثنا عن نفسه :

لقينى أبو بكر ، وقال : كيف أنت يا حنظلة ؟

قلت : نافق حنظلة !!

قال : سبحان الله ، ما تقول ؟!

قلت : نكون عند رسول الله ﷺ ، يذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافسنا (لاعبنا) الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً !!

قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا !!

قال حنظلة :فانطلقت مع أبى بكر حتى دخلنا على الرسول ﷺ .

قلت : نافق حنظلة يا رسول الله !

فقال رسول الله ﷺ : «وماذاك »؟!

قلت : يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، ونسينا كثيراً !

قال الرسول ﷺ :« والذى نفسى بيده ، إنكم لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ،ساعة وساعة » ، وكرر هذه الكلمة ـ ساعة وساعة ـ ثلاث مرات ، رواه مسلم .

فنرى من هذا مدى الدعوة إلى تحقيق الانسجام بين المادة والروح داخل الإنسان ، وكانت حياته ﷺ مثالاً رائعاً للحياة الإنسانية الكاملة ؛ فهو فى خلوته يصلى ويطيل الخشوع والبكاء والقيام حتى تتورم قدماه ، وهو فى الحق لا يبالى بأحد فى جنب الله ، ولكنه مع الحياة والناس بشر سوىٌ يحب الطيبات ، ويبش ويبتسم ، ويداعب ويمزح ، ولا يقول إلا حقاً .

كان ﷺ يحب السرور وما يجلبه، ويكره الحزن وما يدفع إليه من ديون ومتاعب ،

ويستعيذ بالله من شره ، ويقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » أبو داود .

وكذلك كان أصحابه الطيبون الطاهرون، يمزحون ويضحكون ، ويلعبون ويتندرون ، معرفة منهم بحظ النفس، وتلبية لنداء الفطرة ، وتمكيناً للقلوب من حقها فى الراحة واللهو البرىء لتكون أقدر على مواصلة السير فى طريق الجد الطويل .

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .

وقال: روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلب إذ أكره عمى .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنى لأستجم نفسى بالشىء من الباطل ، ليكون أعون لها على الحق .

الوسطية والاعتدال :

يبدو أن هناك خلطاً عند بعض الناس بين الحزم والجدية وضبط الغرائز والشهوات، وبين المرح والضحك والسرور والتمتع بمباهج الحياة حتى فى حدود المباح ، هذا الخلط يأتى نتيجة لعوامل متعددة جميعها لها صلة بالتربية والتكوين ، ونوع الثقافة السائدة فى وقت ومكان ظاهرة الخلط تلك ، من هنا تأتى أهمية وقيمة الوسطية والاعتدال فى التوجه العام للفكر الإسلامى والأخلاق الإسلامية .

والإمام أبو حامد الغزالى يتحدث عن الاعتدال فى كبح جماح النفس وضبط شهواتها ، فيقول: « ليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط ، وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال ، فدل على أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك لا شك فيها ، والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خلق محمود شرعاً وهو وسط بين التبذير والتقتير » .

وتأكيداً لذلك نلاحظ فى الحياة اليومية أن أكثر الناس توفيقاً ونجاحاً، وأكثرهم قبولاً لدى الآخرين من كان فى خلقه وتصرفاته يتصف بالاعتدال والتوازن، وقد أشاد الله تعالى بأهمية الوسط والتوسط فى كل الأمور فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] ، والاعتدال مطلوب فى كثير من أمور الحياة والعلاقات العامة ، والمجتمع الذى تقوم ثقافته على أنماط متداخلة من النشاطات والسلوك المعتدل لا يمكن أن تغيب فيه أبعاد البهجة والمسرة

والطرب فى حدود العفاف والطهر واحترام الحقوق العامة للمجتمع الإسلامى .

وقد كان المجتمع الإسلامى الأول يعكس ذلك الاعتدال ، وكان كبار الصحابة فيه يفعلون ما يشيع أجواء البهجة والسرور ، فلا بأس على المسلم أن يتفكه ويمزح بما يشرح صدره ، ولا حرج عليه أن يروح عن نفسه ونفوس رفقائه بلهو مباح .

إن عالم اليوم وثقافته تطرح الكثير من الأزمات والمشكلات ، ومن أخطرها الأمراض النفسية والعصبية ، وقد جاءت هذه الأمراض لتعكس حالات من الكآبة والبؤس على أعداد كبيرة من البشر ، تلاحظهم فى الشوارع ووسائل المواصلات ودواوين الحكومة ، والبلدان الإسلامية تحوى صوراً متعددة من الكآبة والحزن والتجهم والعبوس ، وعلاج هذه الأزمات يصعب أن يجرى ويتم فى العيادات النفسية فحسب ، لكن العلاج الفعلى هو الذى يأتى من المجتمع ومن ثقافة المجتمع ؛ ثقافة الحنان والمودة والرحمة ، ثقافة البهجة التى تصدر من القلوب صادقة جميلة ، ذلك هو الدور الذى نريده لثقافتنا الإسلامية ، وذلك ما نريده لدور ورسالة هذه الثقافة إذا استطاعت أن تتخلص من عناصرها السلبية ، ومن التشوهات التى أصابتها فى عصور انحطاط المسلمين ، ولا تزال آثار ذلك الانحطاط تلقى بظلالها على مسرح حياتنا الاجتماعية ، ولا تزال تطارد مظاهر البهجة فى كثير من عاداتنا وسلوكنا ، وتحرم ـ حتى الأطفال ـ من البهجة البريئة ، إن ثقافتنا الإسلامية فى منابعها ثقافة متوازنة ، مؤسسة على الحب والتعاون والتضامن فى السراء والضراء ، وهى ثقافة بهجة وسرور ، وثقافة تيسير وتبشير وجمال (١) .

---

(١) محمود محمد الناكوع : مجلة الوعى الإسلامى ، عدد ٣٤٦ ، ص ٥٨ .

المفهوم الإسلامى للفن

يقوم المفهوم الإسلامى للفن على استحالة التناقض مع الفطرة ، فإذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة - دين الإسلام - فى شىء ، فإذا خالفت الفنون الدين ، ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة مما جاء الدين لمحاربتها، وعاقت الإنسان عن العمل بالفضائل التى التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان؛ حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى الروح والنفس ، وإذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا ، أو فى شىء غير هذا ، فهى فنون باطلة جانبت الحق وأخطأت الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

ومفهوم الفن فى الإسلام يقوم على أساس أنه عنصر من عناصر الفكر ، يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة ، وهو فى الإسلام له طابعه الأصيل الواضح المباين لمفهوم الفن فى الثقافات والحضارات الأخرى ، وقوامه الأخلاق وطابعه التوحيد ، يتسامى بالغرائز ويرقى النفس دون البعد عن الواقع .

والفن فى نظر الإسلام أداة تجميل الحياة ، ووسيلة الإسعاد الروحى والنفسى ؛ بتحرير الإنسان من عالم الأهواء والغرائز وإطلاقه فى نظرة حرة إلى الكون والوجود يعرف فيها قدرة الله وعظمته ويزداد بها إيماناً .

وقد كان الفن اليونانى بطابعه المادى والوثنى يجعل الأولوية للتماثيل المجسمة؛ إعجاباً بالأجساد وعبادة لصور الجمال ومظاهر القوة ، ولكن الفن الإسلامى يجعل البيان والشعر والأدب فى مقدمة قائمة الفنون ، فهو يستمد مقوماته الأساسية من الكلمة البليغة والفكرة الموحية وذلك انتقالاً من عالم المادة إلى عالم الفكر ، فالتأمل أوسع العوالم ، والتفكر فى خلق الله أعظم معطيات العقل والروح : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم] ، وبذلك أصبح رائد الفن : البيان الذى يتمثل فى أسمى صوره بالقرآن الكريم ، وبذلك دفع الإسلام الفن البشرى للأمام انتقالاً من مفهوم الماديات فى الفن إلى مفهوم المعنويات ، وبذلك فقد حرر البشرية من مفهوم المادية الخالصة ،التى تقدس الجسد والشهوات والغرائز والوثنيات وتقيم لها المهرجانات والطقوس ، ودفع

البشرية إلى الانتقال من تجسيد البطولة فى صورة مادية إلى تكريم عمل الإنسان نفسه(1).

الدين والفنون النظيفة :

من عظمة الإسلام أن فيه من عناصر السعة والمرونة طاقات لا حدود لها تتناول جوانب الحياة كلها ، فطبيعة الإسلام الشمول والتوازن والواقعية ، والحياة البشرية يجب أن تسير على هذه الخطوط ، ولا يتحقق هذا إلا بالتزام منهج الله الذى يوازن بين المادة والروح ، بين العمل والعبادة ؛ بين الجد واللهو المباح .

وقد استقر فى أذهان البعض أن ثمة تنافرا وخصامًا بين الفنون والإسلام ، فهم يرون أن الأخلاق هى قوام الإسلام ، بينما الفن ـ الذى يرونه ـ قد تحرر من كل قيد أخلاقى ، وهذا الذى استقر فى أذهانهم ـ مع تأكيدنا على خطئه ـ قد ساعد فى ترسيخه واقع الفن الهابط ـ غالباً ـ الذى يخوض فى جلّ أعماله فى تجسيد الصورة العارية، والنظرة العارية ، والفكرة العارية !!

إن إيجاد فنون نظيفة جزء من المفهوم الإسلامى للفن ؛ بشرط أن تقوم على قاعدة تصوير أو تجسيد الجمال فى الكون والحياة والإنسان وتعبر عنه فى عمل نظيف ، وأداء نظيف ، فنون لا تزين الفاحشة ؛ لأنها ليست جمالاً ، لكنها انحدار وهبوط وقبح ، ولا تزين لحظة الضعف البشرى، لأنها لحظة غفلة وضياع وتقصير ، ولا تزين الانحراف والشذوذ ، ولا تزين عبادة الشيطان والهوى و الشهوات واللذاة ؛ لأنها فترات انحطاط وضياع وسحق للإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق ، لقد أراد الإسلام للمسلم أن يتحرر من كل القيود والأثقال الزائفة التى تزرى به وتحط من قدره ، يقول تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)** ﴾ [التين] .

لقد أصبح للفن والحضارة الحديثة دور خطير فى الدعوة إلى المذاهب المادية، هذا الدور صار يصارع الدعوة المباشرة عن طريق الخطابة أو الكتابة ويزيد عليها ، فالقصة والمسرحية قد يؤثر إيحاؤها فى وجدان الإنسان وينشرح لها صدره ، ولقد استطاعت الوسائل الحديثة من مرئيات ومسموعات؛ بما لها من إبداع فنى أن توجه قطاعات واسعة

---

(1) أنور الجندى : الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى ، دار الاعتصام ، ص ٣٨، ٣٩ .

من الجماهير فى شتى بقاع الأرض ، وتقودها حيث تريد ، وأصبح هذا الجمهور يتلقى ثقافته ومفاهيمه من هذه الأجهزة التى استولت عليه ، وفى فترات الجد و الجهاد يمكن لهذه الأجهزة أن تجسد القيم الإيمانية ، ويؤدى الفنانون الملتزمون والشعراء دوراً إيجابياً فى تعبئة الأمة ودفعها للأمام بما يقدمونه من نماذج إيمانية مجاهدة .

إننا فى أشد الحاجة إلى فن إسلامى نظيف صادق ملتزم بمفاهيم الإسلام الصحيحة؛ لأن دور الفن الإسلامى خطير وعظيم وخاصة حين يتصدى لدواعى الفتنة والتخبط الذى يحيط الأمة ؛ فدور الفن أن يقدم نموذجاً صالحاً للحياة والإنسان ، نموذجاً يقرب الإنسان من ربه ، ويصله بالقيم العليا ، حتى تتجاوب الأمة مع هذا التوجه الذى يحضها على فعل الخير وصنع الجميل ، وينهاها عن فعل الشر و إتيان القبيح والخبيث ، والحياة الإسلامية تشكل وحدة متكاملة ، إذا قوى عنصر فيها قويت جميع العناصر وتماسكت ، وإذا ضعفت حلقة منها تساقطت باقى الحلقات ، والفنان المسلم الملتزم بالإسلام فى حياته الخاصة وسيرته العامة ، هو الذى يستطيع بالوسائل المتاحة أن يقود نهضة ، وهو العملة الصعبة والنادرة اليوم ، فلا بد من أن يكون الكاتب والفنان والمخرج من المؤمنين بالإسلام ، ومن أصحاب القدوة فى زمن قلّ فيه الناصح الأمين ، والدليل الهادى ، والحادى والمعين ،والمناخ الصالح،وحين يوجد هذا النوع فى واقع الحياة ؛ عندها تتحسن صورتهم فى المجتمع ، ويتحسن تصور الناس للفن [1] .

ماهية الفن الإسلامى :

يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه « منهج الفن الإسلامى »: الفن عموماً فى أشكاله المختلفة، هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذى يتلقونه فى حسهم من حقائق الوجود فى صورة جميلة موحية مؤثرة .

والدين يلتقى فى حقيقة النفس بالفن ، فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال ، وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

والفن الإسلامى ليس بالضرورة هو الفن الذى يتحدث عن الإسلام ، وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر والحث على اتباع الفضائل ، وليس هو كذلك حقائق

---

(١) محمد عبد الله الخطيب :الدين والفن ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ص ٩ ـ ١١ بتصرف .

العقيدة المجردة مبلورة فى صورة فلسفية ، إنما هو الفن الذى يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود ، هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان .

وهو الفن الذى يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق ، فالجمال حقيقة فى هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ؛ ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود .

إن الأسس التى انطلق منها الفن الإسلامى لم تكن أسساً استهلاكية ، بل لا يمكن أن ينظر إلى الفن الإسلامى على أساس أنه فن استهلاكى أو تزيينى ، فهو أولاً فن وجد لحاجة الناس إليه ، ومن ثم لمعرفتهم،أو لمواكبة حالة الوعى لديهم وتعميقها وتأصيلها ، وقد يكون مثل هذا الأمر واضحاً أكثر حينما نحلل أسس فن العمارة الإسلامية الذى بجمع ما بين فائدة الناس من جهة ، وإمتاعهم من جهة أخرى بالجماليات التى يوفرها لهم ، عبر مختلف فروع هذا الفن ، والفنون الأخرى » .

ومن المهم أن نقرر هنا أن الفن الإسلامى فن موجه ؛ موجَّه بطبيعة التصور الإسلامى للحياة وارتباطات الكائن البشرى فيها ، وموجه بطبيعة الفكرة الإسلامية ذاتها، وهى طبيعة حركية دافعة للإنشاء والإبداع ، والترقى والارتفاع ، ولا يعنى هذا التوجيه الإجبارى على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادى ، وإنما يعنى تكيف النفس البشرية بالتصور الإسلامى للحياة ، هو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التى يلهمها إياها التصور المادى ، أو أى تصور آخر ؛ لأن التعبير الفنى لا يخرج عن كونه تعبيراً عن النفس ، كتعبيرها بالصلاة أو السلوك فى واقع الحياة ، والإسلام عموماً لا يحارب الفنون ذاتها ،ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون ، ويقيم مكانها ـ فى عالم النفس ـ تصورات وقيمًا أخرى قادرة على الإيحاء بتصورات جمالية إبداعية ، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالاً وطلاقة ، تنبثق انبثاقاً ذاتياً من طبيعة التصور الإسلامى ، وتتكيف بخصائصه المميزة [1] .

توازن الفن الإسلامى:

وفى تحديد أكثر لملامح وتوجهات الفن الإسلامى، يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه « منهج الفن الإسلامى » : إنه الفن الذى يعنى عناية خاصة بحقيقة الشمول

(١) سيد قطب : مرجع سابق ، ص ١٠١، ١٠٢ .

والتكامل فى النفس البشرية ، فلا يجب مثلاً أن يعرض الجانب المادى من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحى ، ولا يجب أن تعرض الصراعات الاقتصادية والطبقية كأنها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية ، وتغفل بجانبها القيم المعنوية والروحية والأشواق الإنسانية العليا ؛ لأن ذلك بتر للحقيقة البشرية وتشويه لصورتها ، إنه يجب ـ وخاصة فى الفنون التى تعرض بطبيعتها رقعة واسعة من الحياة كالقصة والمسرحية ـ أن تعرض الصورة كاملة، بمادياتها ومعنوياتها، وقيمها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، مترابطة متداخلة ممتزجة كما هى فى حقيقة الواقع ، مؤثرة كلها بعضها فى بعض ، ومتأثرة كلها بعضها ببعض، مع إبراز القيم الروحية والمعنوية ؛ لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بصميم فطرة الإنسان ، الذى لم يصبح « إنساناً » مكرماً إلا بنفخة الروح العلوية فى قبضة الطين .

أما الفنون التى تعرض بطبيعتها لمحة من الحياة البشرية فى لحظة معينة كاللوحة والقصيدة ، فالإسلام يرحب بها ، باللمحة الروحية والأشواق العليا أكثر مما يرحب بالحقيقة المادية وأشواق الجسد الغليظة ،تمشياً مع نظرته العامة التى ترى الروح أبرز فى كيان الوجود وأحق بالإشادة والتسجيل ، وليس معنى ذلك أن الحديث عن الصراع الطبقى فى قصيدة أو لوحة أمر غير مباح ، كلا ! ولكن معناه أن يعرض الموضوع من خلال عذابات الروح .

أما حين تعبر القصيدة أو اللوحة أو اللحن الموسيقى عن أشواق الروح العليا ورفرفاتها الطائرة وسبحاتها الطليقة ، فذلك فى نظر الإسلام فن صادق أصيل ؛ لأن هذه هى اللمحة المناسبة للتسجيل ، اللمحة التى تحقق للإنسان كيانه الأعلى وتكمل له وجوده الأرضى المحدود .

وليس معنى ذلك أن تقتصر هذه الفنون على الرفرفات والسبحات ، وإلا فأين يذهب الألم والمواجع والأحزان ؟

إنما نريد فقط أن نرد لهذه الرفرفات والسبحات قيمتها الفنية، وقيمتها الإنسانية فى وسط الصراع الطبقى والتفسير المادى للفنون ، ويرسم الإسلام صورة الحياة البشرية من خلال « الواقع » ، كما يرسمها من خلال التكامل والشمول .

وكذلك قصة « الضعف البشرى » ، فهو سمة من سمات الكائن الإنسانى ،

ولكنها ليست كل سماته ، فإلى جانب لحظات الضعف البشرى توجد جوانب القوى ، وحياة البشرية ليست كلها « لحظة ضعف » ،بل ليست كذلك حياة أى حيوان راق أو طير ، فإذا جعلنا لحظة الضعف تشغل مساحة « العمل الفنى » كله وتحجب بقية اللحظات ، فذلك مجافاة للواقع ، وإفساد للتناسق الذى ينبغى أن يحكم الفنون .

والإسلام « يعطف » على لحظة الضعف البشرى ، ولكنه لا يجعل منها « بطولة » تستحق الإشادة والإعجاب ، والفن الإسلامى يلم بلحظات الضعف ، ولكنه لا يملأ بها العمل الفنى ، ولا يقف يمجد للإنسان ضعفه،ويمثله له أمراً « واجب » الحدوث ، أو أمنية المتمنى ، ذلك أن التصور الإسلامى يقوم ابتداءً على أساس تكريم الإنسان، ومن ثم فهو لا يمجد الضعف البشرى ، وإن كان لا يحتقر الإنسان من أجله ، ثم يهتف له دائماً لينهض من الكبوة، وتستقر قدماه على الأرض الصلبة ، ويمضى صعداً إلى الأفق السامق الوضىء .

والفن الإسلامى أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود ، لا بالوعظ المباشر ، ولكن بالإيحاء بما فى طاقة الإنسان من مكنونات ، وما فى الكون من موافقات لاستعداداته وطاقاته، وبذلك لا ينحصر الإنسان فى لحظة الضعف ولحظة الهبوط ، ولا يقف عندها يتطلع إليها فيسترسل فيها ولا يفيق .

والفن الإسلامى يوسع رقعة الحياة بوصل ما بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، وما بين الإنسان والكائنات الأخرى ، وما بين الإنسان الفرد والجماعة والإنسانية التى تعمر هذا الكوكب منذ حقب موغلة فى التاريخ ، وما تزال تتطلع إلى مستقبل بعيد .

وبهذا الشمول والتعدد والامتداد يصبح العمل الفنى أجمل وأكمل وأمتع ، ويصبح أزخر بالحياة والحركة من كل عمل فنى يعرض جانباً واحداً من الجوانب، ويهمل بقية عناصر الحياة .

والفنون التى تصر على أن تكون رقعتها فى الأرض وحدها بمعزل عن السماء؛ لأنها تستنكف أن يكون للقوى « الغيبية » دخل فى حياة الناس ،هى فنون حمقى تعمل على تضييق رقعتها وحرمان نفسها من فرص عديدة لابراز ألوان الجمال الفنى، كانت حَرية أن تهتدى إليها وتبرزها لولا هذا الإصرار الأحمق على فصل ما بين السماء والأرض من

صلات .

فهى أولاً : تعرض « الإنسان » فى صورة مشوهة مبتورة ، إذ تعرضه فى جانبه الأرضى وحده ؛ جانب الضرورات القاهرة ، والواقع المادى القريب المحسوس، ولا تعرضه ـ إلى جانب ذلك ـ فى جانبه الروحى العلوى ، وبذلك تقص من جناحيه المرفرفين، وتتركه جثة جاثمة على الأرض لا تقدر على التحليق .

وهى ثانياً :تخلى الصورة من جمال الحركة الخفية التى تدير الأحداث والأشياء والأشخاص وترتب لها موافقاتها ومفاجآتها ،حين تجعل «الأقدار» المسيطرة على هذه الأحداث والأشياء والأشخاص هى الأقدار المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة من صراع طبقى أو مشاعر جسدية ،أو قيم اجتماعية و اقتصادية تعطى لها قوة الحتمية والإجبار ، وذلك بدعوى الواقعية ، فى حين يصرخ الواقع الحقيقى الذى تدركة الفطرة الحقة فى وجه تلك الواقعية الزائفة :إن قوى الأرض كلها لا تملك أن تلد إنساناً بعينه فى بيئة أو ظروف معينة ، أو تضمن ألا يقع له كذا وكذا من الأحداث ، ومن ثم لا تغنى الأقدار المكشوفة عن قدر الله الملفع بالغيب ، المحجوب عن الأنظار ، والفن الإسلامى حريص على إبراز حقيقة أن قدر الله من وراء الأحداث ؛ وذلك لجملة أسباب :

الأول : أن هذه حقيقة واقعة ،لا تتم « واقعية الفن » دون إبرازها فى اللوحة الفنية .

الثانى : أن تتبع هذه الحقيقة وآثارها فى الحياة التى تعرضها الفنون المختلفة عملية ممتعة فى ذاتها ؛لأنها تستجيب لحقيقة فطرية داخل النفس؛هى حقيقة التطلع الدائم إلى قدر الله المجهول،والفن ـ ومن مهمته الإمتاع ـ قمين بأن يستجيب لهذه النزعة النظرية .

الثالث : أن رسم هذه الحركة الخفية التى تحرك الأحداث دون أن تظهر للعيان يعطى للوحة جمالاً أخاذاً لاستجابته لنزعة فطرية أخرى فى بنية النفس ، هى نزعة الإيمان بما لا تدركة الحواس ، وهى نزعة عميقة لا تقل أصالة وعمقاً عن نزعة الإيمان بما تدركه الحواس ، كلاهما خطَّان متقابلان فى النفس البشرية ، يعملان معاً ، كلٌ فى اتجاه ، وهذه النزعة تبرز القوى الخفية التى تملك السلطان ولا تبين !

السبب الأخير: أن هذا يمنح اللوحة سعة هائلة ،حين يجعل وراء الأقدار الظاهرة ، قدرًا خفيًا هو الذى يحركها ، وبذلك لا ينتهى « المنظر » عند هذه « المقاطع » الملموسة، وإنما يأخذ امتداداً لا نهائيًا لاتصاله بالقوة الأبدية التى لا بدء لها ولا انتهاء » .

الفن والأخلاق

يرتبط الفن والأخلاق بعلاقات متشابكة ، حتى ليصعب أحياناً أن نفصل بين حدود الفن وحدود الأخلاق ، وقد ظهرت آثار هذا الارتباط والتشابك فى تجاربنا اليومية ، وفى أحاديث العامة والأمثلة الشعبية ،وإن نظرة إلى الألفاظ التى ننطق بها فى كل مناسبة ، وإلى العبارات التى نعبر بها عن أحاسيسنا ، لتكفى للتدليل على ما يحدث فى أذهاننا من مزج بين معانى الفن ومعانى الأخلاق ، فقد كان اليونان فى العصر الإغريقى يجمعون فى كلمة واحدة مركبة صفتين ترمزان إلى « الجمال والخير » ، ونحن اليوم قد نصف قصيدة بأنها « لعينة »،وقد نصف لوحة زيتية بأنها « مرذولة »،وقد نصف صوتاً بأنه « حنون » ،وذلك دون أن نشعر بأننا نضفى على معانى الفن صفات الجمال .

وعلى الضد من ذلك قد نصف الحياة بأنها جميلة ، والعمل الطيب بأنه « رائع » ، والعمل الخبيث بأنه « قبيح » ، وذلك دون أن نشعر بأننا نضفى على المعانى الخلقية صفات جمالية .

وفى الأساطير والقصص الشعبية وأشكال الفن المسرحية،اعتدنا أن نصور الخونة والسفاحين بوجوه دميمة مخيفة ، كما لو كنا نريد أن نثبت أن النفوس الخبيثة لابد أن تسكن أجسام قبيحة،واعتدنا أن نصور أبطال القصص الذين يمثلون الشهامة فى شكل جميل،كما لو كنا نريد أن نؤكد أن النفوس الطيبة لا تحويها إلا أجسام رشيقة متناسقة[1].

رسالة الفن الأخلاقية :

إن رسالة الفن يجب أن تكون أخلاقية تهدف إلى إصلاح الإنسان والمجتمع ، بحيث يجب أن يتخذ الفن وسيلة لتربية الجمهور ، فإننا إذا عرضنا عليه صفات البطولة والفضائل الدينية ـ بطريق مباشر أو غير مباشر ـ عن طريق الفن؛فإن ذلك يشحذ همته، ويولد فى نفسه الانفعالات القوية التى تدفعه لطلب المجد بأن تستهدف تصرفاته تحقيق رضوان الله .

وقد ذكر أفلاطون أن الفن لكى يكون أخلاقياً يجب أن يقتصر على تصوير المعانى

(١) د . السيد محمد بدوى ـ مجلة الدوحة ـ عدد ٩٨ ـ ص ٢٧ .

الخيرة ، وألا يضع أمام أعيننا إلا الأمثلة الطيبة ،ولكن أنصاره من المحدثين يضيفون إلى ذلك قولهم : إن الخير الذى يؤثر فى النفوس يجب أن يكون نشيطاً معبراً عن أفعال قوية، وهذا النشاط يستوجب نوعاً من الكفاح،كما أن الكفاح يستوجب وجود خصم ، والخصم هو « الشر »، الذى قد يكمن فى نفوسنا ، وقد يكون خارجها ، وعلى ذلك يجب لإبراز فكرة الخير أن يهتم الفن بتصوير الشر ،ويجب أن يعود الشر إلى مكانتة فى التصوير الفنى أو الأدبى ، بحيث يجب فى نهاية الأمر أن ينتصر الخير فى ضمير المتفرج أو القارئ بما يحفظ القيمة الأخلاقية للعمل الفنى .

إن الهدف الذى يجب أن يسعى إليه كل فنان هو إصلاح الأخلاق فى العصر الذى يعيش فيه ، واذا تخلى الفنان عن هذا الهدف ، فإنه لا يصبح أكثر من « أداة لتسلية الشعب » .

إن الفنان يمكن أن يبين موطن الداء ، وأن يشير إلى الجرح الذى يجب أن يلتئم ، وكثير من الشخصيات الشريرة التى يتم تصويرها فى الكتاب ، ثم تشخيصها فى المسرح أو السينما هى ذلك الجرح ، وإن الأعمال الفنية العظيمة لا يكتب لها الخلود إلا بما تثيره من الانفعالات الجامحة التى قد تكون أحياناً ميلاً نحو الشر .

والفنان الذى يؤدى رسالته يجب أن يكون ضميره مطمئناً إلى سمو الهدف من وراء إبراز عناصر الشر و الرذيلة ، على أن يستخلص منها فى النهاية درساً أخلاقياً بليغاً ، ومن غير المفهوم أن يكون العمل الفنى ضد الأخلاق إلا إذا هاجم قواعد المجتمع وثوابته الأخلاقية المستمدة من دينه وعقيدته ، أو حاول أن يبرز مميزات الرذيلة !!

ولكننا إذا افترضنا أن «عبقرياً » استطاع أن يحاول المستحيل ، ويخرج لنا مسرحية كل أشخاصها من « الفضلاء » فإنها لن تصمد لأكثر من ليلتين على المسرح .

وعلى ذلك فإن المبدأ الذى يجب أن يلتزم به الفنان ليحقق للأخلاق هيبتها عن طريق الفن فى حالة تصوير وتشخيص عناصر الشر ولحظات الضعف ، هذا المبدأ يمكن تلخيصه فى عبارة واحدة ، هى : « ضع أصبعك على الجرح ، ولكن لتعالجة ».

إن غاية الفن يجب أن تنزع إلى الخير ، وإلى تهذيب الإنسان وربطه بمكارم الأخلاق ، وبالقيم والمبادئ السامية ، وبالمعانى الجمالية الراقية ، والصلة وثيقة بين الجمال والأخلاق ، فالجمال خير ، والقبح شر . . وهكذا فبغرس أسس الجمال أداء

وتذوقاً ، ينمو الإنسان الذى يعشق الخير ويؤديه لجماله ولذاته ، ويلفظ الشر ، وينفر منه ويتجنبه ، لأنه قبيح يفسد عليه حياته ،وبكل مقومات القيم التى ورثها الإنسان فى تراثه الإسلامى دلائل لا تنضب لمحاولة الفنان المسلم عبر العصور أن يعكس إيمانه وفلسفته وهداية القرآن له ، فمن هذا النبع الفياض يأخذ الفن الإسلامى ويعطى ليبنى إنساناً يتسم سلوكه بالأخلاقيات الحميدة .

إن غاية الفن أن يتخلق الإنسان بالأخلاق التى شرعها الله ثم يحقق خلافة الله على الأرض ، فالفن مقصوده الأساسى تقوية النفس ، والفن يعبر عن نفس قوية لا تحاكى الطبيعة ، ولا تقلد غيرها ، ولكنها تصوغ الفن من دمها ونبضها وتؤثر به فى الحياة .

مذهب الفن للفن :

هناك مذهب شهير فى الفن يطلق عليه أصحابه مذهب « الفن للفن » ، ويعنون بذلك أن قيمة الفن تكمن فى ممارستنا المباشرة له ، وليس فيما يقال عن تأثيره الإيجابى فى السلوك ، لذلك فالفن ـ من وجهة نظرهم ـ لا يحمل مضمونات أخلاقية .

ويزعمون أن المعايير الأخلاقية والدينية والفلسفية غير ذات مغزى تجاه قيمة العمل الفنى ، فالفن لايهدف ـ أساساً ـ إلى إعلاء قيم الفضيلة والحق والخير .

ومن ذلك نتبين خطورة مذهب « الفن للفن » على سلوك الفرد والمجتمع ؛ لأن الفن حينما ينشأ بعيداً عن الدين ، فإن معنى ذلك أن يكون الفن غاية فى نفسه ، بحيث ينشأ نشأة فنية بحتة منقطعة الصلة بالقيم والمبادئ والأخلاق .

ولذلك فنحن ـ إنطلاقاً من عقيدتنا ـ نرفضه ، بل ونحارب هذا المذهب ، ولسنا بذلك نحارب الفن ذاته ، ولكننا نحارب مبدأ سائداً فى الفن .

والفن الذى ندعو إليه ، ويدعو إليه كل من كانت الأخلاق وجهته ، هو « الفن للفضيلة » و « الفن للأخلاق » و « الفن للدين » أو « الفن الموجه » ، وهذا يتعارض ويتناقض تماما مع « الفن المطلق » و « الفن المتحرر » و « الفن المكشوف » و « الفن الإباحى » أو « الفن اللادينى » .

إن هذا اللون من السلوك ، وهذا التصور للحياة ، وهذا الطابع للأخلاق هو الذى نحاربه فى الفن ، وفى الأدب ، وفى السينما ، وفى المسرح ، وفى التصوير ، وفى

النحت ، وفى الغناء ، وفى الموسيقى ، فلابد من توجيه لهذه الفنون نحو الحق والخير والجمال ، لأن « الفن قيد » و « الحرية قيد » و هذا هو الذى يقود الفنان الإنسان إلى معنى « الجمال الحق » .

وقد سأل طالب أستاذه قائلاً : لماذا يجب أن نكون « أخلاقيين » فى الفن ؟!

فأجابه الأستاذ قائلاً : « لأن ذلك غاية الجمال » .

إن مظاهر الفن عند كل شعب مقياس لأخلاقه ، فيجب على أرباب الفن والأدب أن يستلهموا أفكارهم وأعمالهم الأدبية والفنية من قواعد الدين والأخلاق ، لأن كل فن وكل أدب لا يهدف إلى إعلاء القيم وإلى التعبير عن المثل العليا ، يمكن اعتباره أدباً أو فنا هزيلاً شاحباً ؛ لأنه ـ فن أو أدب ـ « ولد ميتا » .

إن هذا الاضطراب الذى ساد مفهوم « الفن » راجع إلى اختلاف المنطلق العقدى الذى يبدأ منه المفكرون ، وإن تزعزع القيم الدينية فى الغرب ، والموقف الذى وقفه المفكرون والأدباء والفنانون عامة من التصورات الكنسية وتاريخها قد ساعد على محاولة إقصائها عن الحياة والفكر والفن بصفة عامة ، وهى ظاهرة الخصام بين الكنيسة والفن ، كما حدث بينها وبين السياسة والعلم ، وقد ساهم هذا الموقف فى انحرافات خطيرة للفلسفات والآداب الأوربية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انتقلت عدواه إلى بلدان العالم الإسلامى والشرق بصفة عامة ، على الرغم من عدم وجود مبررات حقيقية لهذا الخصام فى إطار المفهوم الإسلامى ، ومهمتنا أن نقضى على ظاهرة الخصام المفتعلة التى يحاول الضالون والمخدوعون الترويج لها فى مجتمعنا الإسلامى ، لأن الإسلام يعلى القيم الجمالية ، ويحيطها بسياج من العفة والنقاء والطهر ، ويفتح الباب واسعاً أمام الإبداعات الفنية والأدبية .

إن الفنان الحق هو الذى يسمو بنفسه فيرفض مذهب « الفن للفن » الذى يجعل من الفن غاية فى ذاته ؛ لأن الفن الحق مقصوده التأثير فى الحياة ، التأثير القوى الحسن، الذى يقوى الحياة الضعيفة ، ويزيد الحياة القوية قوة على قوة . . . وفى هذا يقول شاعر الإسلام محمد إقبال :

أنت تحت الشمس تمضى كشرار ... لست تدرى ما مقامات الوجود

ليس فى فنك للذات بناء ... ويح تصوير وشعر ونشيد

فلابد للفن أن يترك أثره على الحياة ، وما قميته إن لم يفعل ؟! إنه لن يكون

جديراً أن يكون فنا !!

أخلاقية الفن والمتعة والتسلية :

« إن الفن الصادق أخلاقى بطبيعته يختبر القيم ويوقظ المشاعر الصادقة ، ويستحثها لكى تميز بين الجيد والردىء فى سلوك الإنسان ، ولا يعنى ذلك أن يكون الفن متخماً بالمواعظ الدينية أو الأخلاقية من أوامر ونواه ، أو بعبارة أخرى أن يكون الفن تعليمياً ، فالتعليمية والفن الأخلاقى الرفيع يتنافران ولا يتمازجان، وعلى أية حال ، فالفن الإسلامى فن مفتوح ، واسع الآفاق.

والفن الإسلامى تتحد فيه جماليات الشكل مع جماليات المضمون ، فالشكل والمضمون يتبادلان التأثير فيصبح العمل الفنى أكثر جمالاً ، يثير فينا المتعة المرجوة من الأثر الفنى ، هذا إلى جانب المنفعة ،فالجمالية تضفى قيمة على الشكل والمضمون معاً، وليس على الشكل فقط كما يظن بعض دعاة « الفن للفن » حيث إنه لا يمكن فصل الشكل من المادة (المضمون) فى تجربتنا المباشرة مع العمل الفنى بصورة واضحة »(١).

فعندما أستمتع بقراءة قصيدة لا أستطيع القول: إننى مدين فى هذا الجزء من تجربتى إلى الفكرة ، وفى ذاك الجزء إلى اللغة ، أو الصور الشعرية، أو الإيقاع الذى ينقل التجربة، مجمل تجربتنا مع القصيدة (العمل الفنى) لا يقبل التجزئة، رغم أن بعض العناصر قد تقع فى منطقة الضوء، والأخرى فى الظل، فهى ما تزال تؤثر فينا مجتمعة (٢) .

ومن بين ما يتهم به الأدب و « الفن » الإسلامى أنه قد يهتم بالأمور الجادة فى الحياة ، ولكنه لا يهتم بالمتعة والتسلية ، اللذين قد يبحث عنهما المتلقى فى إطار العمل الفنى والأدبى، ودفعاً لهذا الاتهام نقول : إن الفن الإسلامى لم يبدع من أجل الإبداع، كما يقول أتباع مذهب « الفن للفن » ، ولكن دوره فى تشكيل الوجدان بما يبثه فيه من عطاءات فكرية وعاطفية ، كما أن هدفه ـ لا نقول تغيير الحياة ـ ولكن تطويرها والارتقاء بها إلى المستوى الأفضل والأجمل عن طريق ترسيخ العقيدة وبذرها فى النفوس ، وغرس مبادئ الحق والخير والجمال فى الصدور ، والتباعد عن الرذيلة

---

(١) كمال خليفة :مجلة الوعى الإسلامى ـ عدد ٣٥١ ،ص ٥٧ .

(٢) ر . ف . جوش :الجمالية ـ ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ـ الكتاب الثالث ـ المجلد الأول ـ موسوعة المصطلح النقدى ـ مؤسسة الدراسات والنشر ، ص ٢٨٢ .

والقبح ، فالهدف الأسمى للفن الإسلامى هو السمو بالإنسان فكراً وروحاً وسلوكاً ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يغفل المتعة والتسلية ،إذًا الإسلام لم يحرم مثل هذه الأمور ، وبالتالى فهو لا يضيق بها (١).

إن المتعة حالة نفسية أو وجدانية يتجسد فيها الارتياح والرضا والاهتمام والشغف ، والأمر يتعلق بنواح عديدة لتحقيق تلك المتعة ، فالدراما الناجحة تبعث على المتعة ، والكوميديا المصنوعة ببراعة تحرك شعور المتعة ؛ ولهذا فإن الحدث الذى يبعث على الأسى ، والحدث الذى يدفع فى النفس بموجات الفرح ، يستويان فى خلق المتعة ، على الرغم من اختلافهما فى الطبيعة والتأثير والإيحاء ؛ لأن كليهما يبعث لونا من اللذة أو النشوة الروحية أو الفكرية ، ويحركان فى الوجدان ألواناً من الانفعالات ، وفى الفكر ألوانًا من القناعات ، أو التساؤلات ، أو الاعتراضات ، وفى ذلك كله متعة للعقل والروح والخيال ،وهذه المتعة تنبع من الشكل والمضمون معاً ، فالقضية أو الموضوع الذى يعالجه العمل الفنى بما فيه من بداية وعقدة ونهاية ، وبما يتطعم به من تشويق وإثارة وترقب ، ثم نمو الحدث ، وتصوير الشخصيات والحوار المعبر المتميز فى القصة أو الرواية أو المسرحية ، وغير ذلك من العناصر التى ترتبط بكل لون من ألوان الأدب ، كالموسيقى والثقافة فى الشعر ، فهذه العناصر المتضمنة فى العمل الفنى والأدبى شكلاً وموضوعًا هى التى تكون عنصر المتعة لدى المتلقى ، كما أن انتصار الخير على الشر متعة ، واندحار القيم الرذيلة متعة ، والارتقاء بالإنسان والأخذ بيده ليتمكن من أداء مهامه المنوط بها فى الحياة متعة ، ونشر القيم السامية والفضائل الإيمانية والتعاطف مع الضعفاء وانتشال المخطئين من توقعات الرذائل ـ كل ذلك ـ متعة ، كما أن التنفير من الانحطاط والحث على الفضائل واعتناقها متعة (٢) .

---

(١) كمال خليفة : مرجع سابق ،ص ٥٧ .

(٢) د . نجيب الكيلانى :آفاق الأدب الإسلامى ـ مؤسسة الرسالة ، ص ١٢٢ .

الفنون الحديثة والإبداع التربوى

« الإبداع » تعبير يقصد به المقدرة على عمل شيء جديد ومبتكر ، وإخراجه إلى حيز الوجود ، والإبداع فى الفن والأدب معناه :الخروج على أساليب القدماء باستخدام أساليب جديدة ، وقد وردت فى القرآن الكريم هذه الكلمة فى أربع آيات ،ومنها قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة] ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سابق .

و« المبدع » فى العلم والفن: هو الشخص القادر على إدراك الروابط الخفية بين الأشياء .

يقول بعض كتاب الغرب ـ والمتحدثون بلسانهم بيننا :حرية الإبداع هى القدرة على اقتحام المحرمات الثلاث : الدين والسياسة والجنس ، فهى المجال الحيوى الذى يتحرك فيه الإبداع ، ومعنى هذا أن حرية الفنان فى الإبداع هى التى تتيح له تجاوز الضوابط والحدود والحرمات ، بل وإهانة المقدسات ، والاستهانة برموز الدين ، وتجريد كل ذلك من الأخلاق الفاضلة .

وهذه النظرة أدخلت فى بيوت بعض المسلمين كل معانى الفحش والرذيلة بدعوى الضرورة الفنية وحل مشكلات المجتمع .

وفى الغرب يدخلون إلى عالم الإبداع مجردين من القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة ويجعلون ذلك غايتهم ، وذلك مقبول عندهم بكل صورة ، فالإبداع فى الغرب لا حدود له ، والحرية لما يسمونه المبدع شاملة وكاملة .

والإبداع الفنى فى الغرب يجعل الصور المحسة بعامة وجسم الإنسان بخاصة له المقام الأول فى فلسفة الجمال ، وهذا معناه الهبوط بالفن إلى التقليد اللاواعى والمحاكاة اللاواعية ، ولذلك فإن أغلب الأعمال الفنية ما هى إلا حوار مكرر من الإنسان وصورته وتقوقع الإنسان داخل نفسه .

والسينما تصور المرأة ـ فى الإبداع الغربى ـ وكأنها لم تخلق إلا لمتعة الرجال ، وخيانة الرجل لزوجته ، وقد اختفت صورة المرأة المكافحة التى تعيش فى ظل المعانى الأسرية ، وتصورها على أن لها الحق فى ممارسة كل الأفعال غير الأخلاقية فى حرية تامة ، وإلا فهى الضحية وهى المظلومة فى حقوقها الإنسانية .

وباسم الإبداع والفن والحب ترتكب كل الآثام ، ثم تلتمس لها الأعذار ، وقد أصبح أبطال الشاشة هم القدوة والمثل للشباب ، فهم يقلدون ما يرونه فى السينما من تصرفات وملابس وأزياء وأفكار .

وإجمالاً ، فإنهم فى الغرب - وأذيالهم فى الشرق - يقولون : إن الدين قيد على الإبداع والفن والجمال .

وهذا زعم لا أساس له، فالدين - ونعنى الإسلام - دعا إلى إعمال العقل والتفكير، والنصوص القرآنية تحث على التفكر والتدبر، ففى ذلك آيات لقوم يتفكرون، وعبرة الأولى الألباب وأصحاب العقول المتدبر والمفكرة ، يقول الله تعالى فى ذلك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت] ، ويقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت] .

وقد عاب القرآن الكريم على أقوام لم يفكروا ولم يفقهوا ووصفهم بأنهم كالأنعام، بل هم أضل ؛ لأنهم لم يوظفوا حواس التفكير والتدبر ، فقال :﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] .

فالإسلام دعا إلى الفكر والتدبر وهو الدين الذى قال : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل].

فالإبداع الإسلامى يستوعب كل ما فى الحياة وفق التصور الإسلامى الصحيح لهذه الحياة ، بحيث لا يزيف حقيقة ولا يخلق وهماً فاسدا، ولا يحابى ضلالاً ، ولا يزين ، نفاقاً ، بل إنه يطلق نيرانه على شياطين الانحراف والقهر والظلم ؛ لأن له وظيفة فى هذه الحياة ، هى تحقيق وظيفة المسلم طبقاً لمنهج الخالق سبحانه وتعالى .

ومن ثم فإنه ينهض بعزائم المستضعفين وينصر قضايا المظلومين ويبشر بالخير والحق والجمال ، ومن هنا فإن الإبداع فى الإسلام لا يكون عبثياً ، بل إنه إبداع الضمير الحى والوجدان السليم والتطور الصحيح والخيال البناء والعواطف المستقيمة، فهو لا يتجه إلى انحراف نفسى ، ولا إلى اعتلال شعورى ، ولا إلى مرض فلسفى ،وما إلى ذلك مما نراه فى الحضارة الغربية .

وهو يقوم أيضاً على تأصيل القيم الجمالية والمضامين الفكرية الأصيلة ، وهو وثيق الصلة بالصحوة الإسلامية فى جميع المجالات .

والمبدع المسلم خاضع لحساب الضمير ولحساب المجتمع فى الدنيا ، وخاضع لحساب الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وحريته تكون فى إطار المنهج الإلهى .

والإبداع فى المنهج الإسلامى وسيلة من وسائل التربية ، وله تأثيره المتميز على نفسية المتلقى وفكره ، حتى وإن لم يدركه .

والفكر فى الإسلام مطلق بلا حدود، ولكن على ألا يتعدى المفكر بفكره ، والمبدع بإبداعه الثوابت التى جاءت ثابتة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، ولا يمكن للمبدع المسلم أن يقول : إنه لا علاقة للدين بالإبداع، أو يزعم أن الدين لا علاقة له بالفن .

ذلك لأن الدين الإسلامى جزء من كيان الإنسان ، بل إن الإنسان الذى لا دين له ما هو إلا حيوان ، ولا يمكن لحيوان أن يبدع أو يفكر؛ لأن الإبداع الفكرى والإبداع الفنى صفة من صفات الإنسان الذى يحس بوظيفته فى الحياة فى عمارة الأرض ، وفى عبادة الله تعالى بالمعنى الشامل للعبادة ، ولذلك فلا يوجد فى الإسلام رذيلة ولا يوجد انحلال أو انحراف أو تفسخ مشروع .

والحرية فى الإسلام لها ضوابط وقيود ، ويمكن لأى مسلم أن يفعل ما يريد وأن يقول ما يريد مادام ملتزماً بهذه الضوابط ، ومن هنا فإننا نجد الإسلام قد شجع الناس على التعامل بما خلق الله تعالى فى الطبيعة من جمال السماء والأرض .

والإسلام وهو يربى الروح يعمل على إثارة الحياة فيها عن طريق النظر والتفكر ، ثم يوجه القلب البشرى إلى علم الله تعالى الشامل لكل ما فى الحياة ، وإذا كان الغرب يعمل على إبراز الجنس فى لوحة الإبداع والفن ، فإن الإسلام يصور الحب بالمعنى الشامل للحب والجمال ـ الجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون ـ وهو الذى ينبغى أن تمارسه الفنون الإنسانية الرفيعة التى تتجاوب تجاوباً صحيحاً مع حقيقة الوجود ، وذلك هو الجمال الذى يؤدى وظيفته فى هذه الحياة .

وذلك هو الإبداع الذى يجعل المسلم قادراً على الانسجام مع نفسه ومجتمعه ومع الكون ، ومع ربه « سبحانه وتعالى» ، وهذا ما يميز المبدع المسلم عن غيره ممن يسمون أنفسهم بالمبدعين فى الشرق وفى الغرب على السواء !!

ولذلك ، فلا بد وأن تضع الحكومات الإسلامية أجهزة للإشراف على الفكر الفاسد الذى يضر بعقول الناس تحت اسم الإبداع ، فالكلمة الملوثة أخطر على الإنسان من الأدوية الفاسدة ؛ لأنها تعم الناس جميعاً ، وآثارها أكبر وأخطر .

الفصل الثانى

فن التمثيل : ماهيته ، أهميته ، حكمه

- السينما فن جماهيرى خطير .
- التمثيل بين الإباحة والتحريم .
- الواقع السينمائى الحالى .
- فساد الوسط الفنى واعتزال البعض .
- ضوابط للرقابة على المصنفات الفنية .
- الحاجة إلى سينما إسلامية .
- السينما الإيرانية : تعرية النفس لا الجسد .
- موضوعات السينما الإسلامية .
- مواصفات الفنان المسلم .
- تمثيل المرأة .
- نحو مسرح إسلامى .
- التليفزيون وأثره .



فن التمثيل
ماهيته ، أهميته ، حكمه

التمثيل : هو تجسيد الواقع الاجتماعى ، والحدث التاريخى ،والمشاعر والأفكار ، عن طريق الممثلين ؛ لتأكيد المعنى المقصود وتوضيحه للمشاهدين .

إن التمثيل فن ، مثل كل الفنون ، يحاول أن يعطى معادلاً موضوعيًا للحياة، فهو يرمى إلى تجسيد قطعة من الواقع مكتملة ، وذات مغزى وبناء حدثى وشخوص، فى صورة جمالية تدعو إلى الانفعال بالعمل الفنى ، والتمثيل يقوم على تجسيد الأحداث، من خلال قيام عدد من الأشخاص بالأدوار ، سواء على خشبة المسرح أو الفيلم التليفزيونى، وتقمص أشخاص من دم ولحم للأدوار المرسومة لشخوص وهمية، يتصورها المؤلف مكمن القوة والحضور فى الفيلم أو المسرحية ، ومنبع الانفعال والتأثير الكبير بين الممثل والمتفرج ، والتمثيل يرمى بذلك إلى تقديم عملى فنى « جميل » له قيمة، فى شكل ممتع ومؤثر وموجه، فهو فن ينبغى أن يتصف بالجمال الذى يضمن له التأثير فى نفس المتلقى ، ووظيفته لا تقف عند التسلية أو الترفيه أو أن يكون نوعًا من الزينة والزخرف ، فلا بد أن يحقق وظيفة اجتماعية وحضارية ،ويكون فى نهاية الأمر أداة للبناء الاجتماعى والرقى الحضارى [1] .

وقد ظهرت السينما،ونمت وتطورت تطورًا سريعًا متتابعًا فى مدة وجيزة من الزمن ، إذا ما قورنت فى تطورها بالفنون الأخرى ، ومع ذلك فقد طغى انتشارها على سائر هذه الفنون .

ويرجع تفسير هذا الانتشار السريع فى جانب منه، إلى كثرة وتنوع العاملين فى المجال السينمائى من كُتّاب وأدباء ومؤلفى نصوص تمثيلية ، وممثلين وفنيين وعاملين ومخرجين ومنتجين ، ومن جمهور ونقاد ومؤرخين .

وقد ورد فى إحصائية صادرة عن منظمة « اليونسكو » ـ التربية والعلوم والثقافة ـ عام ١٩٩١م فيما يتعلق بالإنتاج العالمى للأفلام السينمائية ، أن عددها بلغ حوالى ٤١٧٠

(١) محمود النجيرى : مجلة الوعى الإسلامى ، عدد (٣٤٤) ، ربيع الآخر١٤١٥هـ، ص ٦٩ .

فيلمًا عام ١٩٧ م، تتوزع بين الدول المتقدمة بنسبة ٤٨ ٪، والدول النامية بنسبة ٥٢٪ ، وعلى الرغم من زيادة نسبة إنتاج الدول النامية للأفلام السينمائية ، إلا أن هذه الزيادة لم تكن ذات مغزى تصحيحى لميزان الاختلال وعدم التوازن بأية حال من الأحوال ، فعدد مقاعد السينما المتاحة لكل ألف من السكان حسب إحصائيات ١٩٨٩م يبلغ ٥٠ مقعدًا فى الدول المتقدمة ،مقابل ٦,٩ مقعدًا لكل ألف من السكان، بالدول النامية ،مع ملاحظة أن عدد مقاعد السينما لكل ألف من السكان قد انخفض خلال الفترة من ١٩٧٠م حتى ١٩٨٩م بنسبة ٢٣,٣٪ فى الدول النامية ،مقابل انخفاض قدره ٦٪ فقط فى الدول المتقدمة ، وعلى الرغم من ذلك فإن حجم الحضور السنوى للسينما قد تزايد فى الدول النامية من ٣٦٦٠ مليونًا عام١٩٧٠م، إلى ٦٥٥٠ مليونًا عام ١٩٨٩م ، بينما انخفض فى الدول المتقدمة من ٨٦٤٠ مليونًا عام ١٩٧٠م إلى ٦٦١٠مليونًا عام ١٩٨٩م، حيث ترتفع مصادر التسلية والترفيه فى هذه الدول .

إن الهدف الأول للسينما هو النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية ،قفزًا من فوق العقل الواعى، وإلى العقل الباطن أو اللاشعور ، حتى إن أكبر شركة عالمية سينمائية «ميترو » طلبت من عالم النفس « فرويد» أن يعمل معها، مقابل مائة ألف دولار ـ بأسعار ذلك الوقت ـ ذلك لأنها تعرف العلاقة بين الفن وعلم النفس . وما يحدث بالضبط يمكن أن نطلق عليه عملية « بذر المعلومات » فى ذهن المتلقى ، وهى عملية غير مرئية وغير محسوسة ؛ لأن ما يُزرع فى الذهن يكون غالبًا مقدمات منطقية خاطئة ،ما تلبث أن تنمو داخل الذهن ،وتختمر داخل شخصية المتلقى ، فتتلون بلون الشخصية المزروع فيها المعلومات ، مما يجعل المتلقى لا يفطن إلى أن هناك أيدى بذرت داخل عقله ووجدانه «معلومات بذرية » فى شكل مقدمات منطقية، قد تظل « كامنة » فى غيابات العقل الباطن لسنوات عديدة،ولكنها لا تلبث أن تظهر فى صورة سلوك واضح، كما لو كانت تنبع من داخله، وليست من صنع أشخاص برمجوا عقله ووجدانه .

وقد يتساءل البعض:كيف تتم عملية البرمجة أو « بذر المعلومات » فى عقلى ووجدانى وأنا أجلس أمام الفيلم فى كامل قواى العقلية الإدراكية ؟! فأين عقلى إذن؟!

والإجابة : إن السينما تقفز فوق حواجز العقل لتصل إلى العقل الباطن أو اللاشعورى،ولعل من المناسب تذكّر عبارة المنتج السينمائى الإيطالى كارلوبونتى: « يجب أن تصل السينما إلى أحشاء المتفرج ، أما إذا وصلت إلى عقله، فذلك يعنى أن الفيلم سيئ،فالإنسان الذى يريد تثقيف نفسه لا يذهب إلى السينما،وإنما يأخذ كتابًا » ،وهكذا نجد فلسفة السينما واضحة فى هذه الكلمات .

السينما فن جماهيرى خطير

يلعب الفن دورًا رئيسًا فى تشكيل أخلاقيات الشباب ،ونظرتهم إلى الحياة والناس، وحكمهم على الأوضاع الراهنة ، والمستقبل أيضًا ،وتقف السينما فى مقدمة أدوات التأثير الجماهيرية ، وكذلك الفن التمثيلى عمومًا ، وقد يكون هذا التأثير أعمق أثرًا ، وأبعد مدى من مناهج التربية والتعليم ، بل ربما يحدث بين الاثنين نوع من التناقض والتضاد ، وذلك لغياب الخطة الشاملة الخاصة بتربية الجيل ، وتوجيهه الوجهة الصحيحة ، ومن ثم أصبح رجال التربية والتعليم فى واد ، ورجال الفن فى واد آخر ، والمعروف أن الفن مزوَّد بمغريات ومشهيات كثيرة ، تجعل الإقبال عليه أكثر ، والتأثر به أكبر . وهذا الحكم العام لا يعنى اتهام الفن اتهامًا مطلقًا وإدانته فى موجات التحلل والانحراف ، ففى الفن يختلط الجيد بالردىء ،والمفيد بالضار ،والحقائق الصادقة بالتُرَّهات الخادعة ، ويمتزج السُّم بالدسم [1] .

وفى ثلاثينيات القرن الماضى زار الرئيس الأمريكى « روزفلت » استوديوهات السينما فى هوليود ، واجتمع بصناعها وقال لهم : إذا أردتم لأمريكا الرفعة والمجد فاهتموا بالفيلم الأمريكى ، وكان ، وأصبح الفيلم الأمريكى أعظم فيلم فى العالم من الناحية التقنية والفنية ،وسفيرًا فوق العادة لأمريكا إلى العالم كله ، بحيث أصبح العالم يرى فى الفيلم الأمريكى أملاً يود لو يصل فى أفلامه التى يصنعها إلى مرتبته ،وبرغم كل ما يقال عن أفكار السينما الأمريكية ، إلا أنه أصبح من المسلَّمات أنها سينما واعية؛ تفهم ما تقول وتعنيه حقًا ، وارتاد الفيلم الأمريكى مجالات شتى ، واستخدمته أمريكا أداة طيعة لبث أفكارها فى وجدان وضمير الشعوب والتأثير عليها ، وكان ذلك بحشد إمكانات خيالية لإنتاج الأفلام ، فنحن نسمع عن الأفلام التى تتكلف ملايين الدولارات، والدراسات العلمية التى تعد للفيلم ، إلى غير ذلك من الرسائل التى تكفل للفيلم الأمريكى السيطرة على سوق الأفلام العالمية ،ويكفى للتدليل على ذلك أنه فى أغلب دور العرض ، وعلى شاشات التليفزيون فى العالم أجمع تعرض الأفلام الأمريكية ، بينما غيرها من الأفلام لا تعرض إلا بصعوبة ، وبعد اتفاقيات رسمية .

---

(١) د . نجيب الكيلانى : مجلة المختار الإسلامى ، عدد (١١) ،جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ، ص ٣٠ .

والسينما فن جماهيرى خطير ، وخطورته تتركز فى أن المشاهد يجلس فى قاعة مظلمة لعدد من الساعات مسلوب الإرادة ، مقتنعًا بأن الفيلم يخاطبه وحده ، ويسيطر على وجوده ، وبالتالى يسهل على صانعى الفيلم بث الأفكار والمعتقدات وطرق العيش التى يريدون الترويج لها فى وجدانه، فمن الناحية الداخلية تُستخدم السينما فى كشف عيوب المجتمع، ومحاولة الإيحاء بأن فى القضاء على هذه العيوب تقدمًا لهذا المجتمع ، كما تُستخدم السينما فى إثراء الوسائل التعليمية ، وليس من شك فى أن عرض فيلم عن موضوع أكاديمى ييسر فهمه، وهناك السينما الوثائقية التى تناقش المؤرخين فى تسجيل وقائع التاريخ ، وهناك السينما الدعائية التى تكرس نفسها للدعوة إلى اتباع نظام من الأنظمة ، كما أن هناك الأفلام الروائية ، وهى أخطر الأنواع ؛ لأنها ربما تضم بين جنباتها كل تلك الأنواع التى أسلفناها، والسينما - كما يقولون - فن العصر ،وهى أخطر وسائل التعبير ، وأشرس أدوات الإعلام والدعاية ، حيث يمكن أن تُستخدم فى تخدير الشعوب ، وصرفها عن أمانيها ، وذلك عن طريق إغراقها فى دوامة من أفلام الجنس والعنف ، لدرجة أن وصل الأمر إلى صناعة أفلام للشعوب المتخلفة والمقهورة لا يمكن عرضها داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وإلا عُدَّ ذلك استهانة بالشعب الأمريكى المتقدم [1] !

وبإلقاء نظرة فاحصة على أنماط السلوكيات والتصورات والأوضاع فى أى مجتمع ، نلحظ بغير عناء مدى مساهمة الفن السينمائى فى تشكيلها،أو التأثير فيها؛سلبًا أو إيجابًا.

وغنى عن البيان أن هذا التشكيل أو التأثير فى المجتمع لا تتضح معالمه ،ولا تترسخ جذوره فى وقت قصير ، وإنما تحدث المتغيرات الاجتماعية ويتغير نسيج المجتمع ، ويتلون بألوان شتى ،على مراحل متدرجة ، وتوصل مرحلة إلى مرحلة أخرى ، فى حركة بطيئة غير محسوسة غالبًا .

لذلك ، فإنه يتعين أن تتحلى الأجهزة المعنية برصد ومتابعة هذه المتغيرات بقدر كبير من الوعى واليقظة ، حتى تستطيع أن تتدارك الموقف ، وتوجه دفة الأمور بعيدًا عن التشكيل الضار للعقل المسلم ، وتصل بالمجتمع المسلم إلى بر الأمان .

وخاصية النفاذ أو الاختراق يمارسها صانعو السينما فى شكل أشبه ما يكون

---

(١) محمود حفنى كساب: مجلة الأمة عدد (٣٥) ذو القعدة ١٤٠٣هـ ،ص٧٦ ، ٧٧ .

بـ «التنويم المغناطيسى » فالجو المظلم ، وتوزيع الإضاءة ، والتمثيل الطبيعى ، والمؤثرات الصوتية ، و« الماكياج والديكور » اللذان يقنعانك بأن ما يحدث حقيقى مائة فى المائة بالإضافة إلى استخدام « الكاميرا » بُعدًا وقُربًا،ومن زوايا مختلفة ،كل هذا إلى استخدام «المونتاج» والحيل السينمائية يولِّد لدى المشاهد حالة نفسية عقلية يمكن أن نطلق عليها « حالة تداعى القوى المنطقية » ، إذ إن الفيلم يوهمك ، بنمو بطل الفيلم من الطفولة وحتى الكهولة فى زمن لا يتعدى بضع دقائق ، كما يستطيع الانتقال بك من مشهد تجرى أحداثه فى القاهرة إلى آخر تجرى أحداثه فى نيويورك أو باريس ، ينتقل بك فى ثوانٍ ،وأنت حينئذ تجلس أمام شاشة العرض فى ذلك الجو الساحر، الذى يلفه الظلام والغموض ومشاعر هى أقرب لعالم الأحلام منها للواقع ، فتندمج فى أحداثها ، كأنك جزء منها ،وتساهم خاصية « التقمَّص الوجدانى » فى ذلك الاندماج ، فتغضب من شخصية ، وتحبس أنفاسك هلعًا على شخصية أخرى ، كأن ما يحدث هو الحقيقة بعينها (١) !

---

(١) مجدى صلاح : مجلة الأزهر ، شعبان ١٤٠٤ هـ، ص ١٣٧٤ ـ ١٣٧٦ .

التمثيل بين الإباحة والتحريم

أصبحت السينما خلال العقود القليلة الماضية أمرًا واقعًا ؛ من حيث تأثيرها وانتشارها ، لا ريب في ذلك ؛ لذا فإن البحث الهادئ في مدى مشروعيتها الإسلامية يُعَدُّ أمرًا لازمًا، بل واجبًا، وقد علمنا من الإسلام، أن الفقه الإسلامى فقه مرن فى تعامله مع الأمر الواقع والأوضاع المتجددة، ولا يعنى ذلك قبولاً أو «خضوعًا » أو « انهزامًا نفسيًا » أمام الأمر الواقع ، وإنما يعنى عدم الرفض المبدئى لهذه المستجدات ، بل يتعين محاولة فهمها فى إطار القواعد الكلية الأساسية للدين ، وفى هذه الحال ، إما أن نقبل هذه المستجدات، أو نرفضها و نطرحها جانبًا ، أو نعدلها ، أو نضيف إليها .

وقد انقسم العلماء إزاء التمثيل إلى فريقين : فريق إباحه مع ضرورة تقيده بالالتزام بتوجيهات الإسلام وآدابه وأخلاقه ، وفريق آخر منعه ورأى تحريمه مطلقًا ، ومن أهم ما استندوا إليه أنه بدعة ، وأن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وبشىء قليل من التحقيق يبدو لنا أن هذا الاستدلال فى غير محله ، فقد دأب البعض إزاء كل جديد ومستحدث على وصفه بكونه « بدعة » ، وهذا تبسيط للأمور ؛ لأن البدعة شرعًا كما عرفها علماء الأصول هى :« طريقة مخترعة فى الدين ، تضاهى الشرعية ،يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه » .

وهذا المعنى لا ينطبق بحال على التمثيل ؛ لأنه مجرد وسيلة أو أداة ، قد تباح هذه الوسيلة إذا دعت إلى خير ، وقد تحرم إذا دعت إلى شر ، وإذا كان التمثيل قد ظهر فى الخلف ولم يعرفه السَّلَف ، فليس ذلك مبررًا لتحريمه ؛ لأننا لو سرنا على هذا المنوال فسوف نُحرم كل جديد نافع فى حياتنا ، فالسلف لم يعرف السيارة والطائرة ، والدبابة والبارجة ، والهاتف ، والحاسب الآلى . . . إلى آخر هذه المخترعات المفيدة ، فهل نُحرِّم ذلك كله استنادًا إلى فهم سقيم للنصوص ؟!

«وسر المسألة أن للمجتمع الإسلامى شخصية خاصة، وشخصية عامة، بل لكل مجتمع ذى دين شخصيتان: شخصية إنسانية عامة يشاركه فيها سائر المجتمعات الإنسانية، وهو- من هذا الجانب، وبتلك الشخصية - له وعليه أن يفكر فيما يصلح شأنه الإنسانى، ويجعله ذا

مركز فى الحياة يجارى به على الأقل - إن لم يسبق - سائر المجتمعات البشرية . . عليه أن يفكر فيما يلائم عصره من طرق التثقيف وخطط التعليم بما يوسع مدارك أبناء الشعب، ويصل بهم إلى الثقافة النافعة من أقرب الطرق وأيسرها، وليس له أن يجمد على ما ورث من ذلك عن آبائه وأجداده، ويقف مكتوف اليد دون أن يسلك طريق الاختراع والابتداع فيما يحقق له العزة والمجد من وسائل الحياة ، وإن كل ما يحدثه فى هذا الجانب من المخترعات التى لم يسبق بها يكون محفوظًا فى تاريخ العاملين على ترقية شعوبهم ، ويكون له فى الوقت نفسه من الثواب عند الله بقدر ما ينتفع العباد بمخترعاته .

وقد ترك الله فى شرعه هذا الجانب من الحياة للتفكير البشرى، ولم يقيده فيه بتشريع معين ، ولا أسلوب خاص، بل دعاه إلى التفكير والنظر فيما يصلح شأنه ، على حسب الإيحاءات الزمنية والوسائل العصرية المتبدلة المتغيرة ؛ ولعل ذلك هو المقصود بمثل قوله عليه الصلاة والسلام : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ؛ وإذن ليس لنا أن نقول عن شىء يقع فى هذه الدائرة: إنه لم يفعله الرسول، ولا أحد من خلفائه ، فلا نفعله؛ ذلك لأنهم لم يفعلوه لأن زمنهم لم يطلبه ، ولم تخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه، ومحال على الرسول وخلفائه أن يعترض تقدمهم فى الحياة شىء لا يمس عمله عقيدة ولا عبادة ، ولديهم وسائله والقدرة عليه، ثم لا يعملوه بحجة أن الله لم يأذن لهم فيه .

أما الشخصية الخاصة للمجتمع الإسلامى ، فهى الشخصية التى تحدد دائرتها العقيدة والعبادة ، وأصول المحرمات التى حظرها الدين؛ حفظًا للعقائد والأخلاق وحفظا للعقول والأبدان ، وهى الأصول التى تلتئم منها الشخصية الإسلامية ، ولا تتحقق إلا بها ، وهذه الدائرة لا تتلقى أحكامها إلا من جهة الوحى ، بيانًا بالقرآن ، أو بيانًا بفعل الرسول التشريعى العام ، ولا يصح التصرف البشرى فيها ، لا بتغيير فى كيفيتها ولا بزيادة عليها ولا بنقص منها ، وهى الدين الذى أكمله الله لعباده .

وهذه الشخصية هى التى لا يُقبل فيها الابتداع بوجه من الوجوه ، فهى - بأحكامها الخاصة - المظهر الصادق للإسلامية التى يريدها الله، والمحافظة عليها هى السبيل الوحيد لبقائها وتمييز المسلمين بها ، ومن هنا كان الابتداع فى شىء منها خروجًا عن حدودها التى رسمها الله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : ٢٢٩] »[(١)].

---

(١) محمود شلتوت : الفتاوى ، دار الشروق ، طبعة (١٢) ، ١٤٠٣هـ ، ص١٨٢ - ١٨٤ بتصرف .

يقول الناقد السينمائى الأردنى حسان أبو غنيمة :«إن السينما كوسيلة اتصال جماهيرية تجمع ما بين العلم والفن والثقافة ، وكظاهرة اقتصادية لا يمكن التغافل عنها ، تظل على أساس مجرد ، مثلها مثل غيرها من وسائل العصر المتطورة، مرهونة بأسس استخدامها، لا بطبيعتها المجردة ، مثلها مثل العلم ذاته ،الذى يمكن استغلاله لصالح الإنسانية ولغير صالحها ،فالمسألة ليست مرهونة بالأداة ذاتها ،وإنما بمن يقف وراءها ، وهكذا الأمر بالنسبة للسينما ، فليس مهمًا الآلة السينمائية أو تقنيات هذا الفن الجديد ، وإنما الأهم هو الإنسان الذى يقف وراء هذه الآلة ، ويتعامل مع هذه التقنيات .

إن البِنَى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تقف وراء الفن السينمائى وتستخدمه لصالح أهدافها ،هى التى جعلت من السينما وسيلة لنشر الفساد وتدمير الأخلاقيات والقيم، مثلما جعلت منها أحيانًا صانعة الأكاذيب والأوهام، ومشوهة للحقائق والتاريخ والواقع ، ولكن هذه المظاهر لا تنفى عكسها ، وهى إمكانية استخدام السينما لتكون وسيلة بناء لقيم الحق والخير والجمال .

وكما يتفق كثير من علماء المسلمين ومفكريهم ، فإن السينما ـ شأنها شأن غيرها من الفنون ـ مرهونة بالوظيفة التى تقدمها ،وبالأهداف التى تضعها نصب عينيها ، فإذا كان ما تقدمه يدعو إلى الخير والفضيلة فهى حلال، وإذا كان ما تقدمه يدعو إلى الفساد والرذيلة، فهى محرمة »(١) .

على أننا إذا كنا قد انتهينا إلى إباحة التمثيل السينمائى من حيث هو أداة ، فإن ذلك مرهون بشروط حتى تتأكد هذه الإباحة . . ومن ذلك :

ـ يجب أن يخلو العمل التمثيلى من كل ما يتعارض مع شعائر الإسلام وشرائعه ، وما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وألا يتناقض مع القيم والأخلاق والآداب ، وألا يحتوى على ما يثير الغرائز أو يدعو إلى الانحراف بأية صورة .

ـ ينبغى ألا تُلهى مشاهدة الفن التمثيلى عن الالتزام بأداء فرائض وحق الله على العباد ، كأن تلهيه عن أداء صلاة أحد الفروض ، والله لا يبارك فى عمل يلهى عن الصلاة ، وكذلك ألا تشغله عن أداء واجباته تجاه نفسه وأسرته وعمله .

ـ ويجب على من يرتاد دور السينما والمسارح ـ التى تعرض أعمالاً فنية لا تتنافى مع

(١) نقلاً عن محمد وليد جداع : الموقف من سينما إسلامية ، دار الوفاء ، ط (٢) ،ص ٦٩ ، ٧٠.

التوجيهات الدينية ـ أن يتحاشى الاختلاط بين الرجال والنساء .

وعلى ذلك فإننا نُجمل ما فصلناه فيما سبق ، فنقول : إن الفن التمثيلى ليس إلا وعاء ، إذا وضعنا فيه شيئًا محرمًا ، فهو محرم بهذا الشىء ، وليس بذاته ، وإذا وضعنا فى هذا الوعاء شيئًا مباحًا ، فهو مباح ، أى أن أمر الإباحة والتحريم يدور مع مضمون العمل الفنى وكيفية معالجته ، وعلى هذا الأساس يتحدد الحكم . . وهناك مقولة جميلة للشيخ أحمد الشرباصى ، يقول فيها : « إذا تديَّن رجل الفن ،وتفنن رجل الدين ، التقيا فى منتصف الطريق لخدمة العقيدة والفن السليم » .

الواقع السينمائى الحالى

إن نظرة فاحصة على واقع الفن التمثيلى المعاصر، تُظهر لكل ذى عينين أنه واقع يهدم ولا يبنى ، يخرب ولا يصلح ؛ وذلك نظرًا لما تحتريه مضامين الأعمال الفنية غالبًا من أخطار على الشخصية المسلمة ، هذا فضلاً عما تعج به الحياة الخاصة والعامة للعاملين فى المجال الفنى من موبقات يندى لها الجبين .

إن أفلام السينما كانت ـ ولازالت ـ أداة خطيرة لتوجيه أفكار الرأى العام نحو التهوين من الفضائل، وتحبيذ الرذائل وتقديم مبرراتها ،ونشر العرى والتحلل ،وإشاعة الفحشاء والمنكر ، وما يحدث فيها من حوار مكشوف يحمل إيحاءات جنسية فجة ، ومناظر العناق والتقبيل بين الممثلين والممثلات؛ مما لا يجوز إلا فى غرف النوم بين الأزواج والزوجات !!

ومن المدهش أننا نجد أحد أهم الممثلين المسؤولين عن هذه النوعية من الأفلام الساقطة ، وهو عادل إمام ، يذكر فى ندوة بأحد الأندية [1] : « إننى منعت أولادى من مشاهدة الأفلام الهابطة والمسفة التى تملأ دور العرض ،وتشكل خطرًا على الذوق والأخلاق ، والسبب فى الإسفاف فى السينما هو ندرة الكتابات الجادة والهادفة، مع تدفق الإنتاج الهابط » وشهد شاهد من أهلها !!

إن الفن السينمائى « خضع للعديد من الاعتبارات المختلفة ، فالناحية التجارية أخضعت القصة السينمائية لشروطها من حيث اختيار الموضوع، وطريقة الأداء ، وتلبية الغرائز والأحلام ، وما يتبع ذلك من إثارة وتشويق ومفاجآت ، مهما تعارض ذلك مع القيم والأخلاقيات الأصيلة التى هى جزء من تراثنا وحضارتنا .

إننا نرى مثلاً أن قداسة « الأسرة المسلمة » قد تعرضت لهجمة شرسة من الفلسفات والتصورات الغربية المنحلة ،فالزوجة التى تخون زوجها ، وتهمل أبناءها ، وتهجر بيتها،استجابة لنزوات طارئة ، أو بحجة الحرية فى اختيار « حبيب القلب » لأسباب تافهة،والتمرد الأرعن على القيم والتقاليد ،بحجة التجديد والعصرية والتحرر ، وإهمال

---

(١) صحيفة الأحرار بتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٩٩٦م .

الشعائر والآداب الدينية ، باعتبارها تخلفًا ورجعية ، والانسياق وراء العبث واللهو والخمر والسهر ومطاردة النساء ،والصراع الأحمق الوحشى من أجل الكسب المادى، قد أدخل إلى حياتنا ألوانًا شاذة من السلوك والتصورات، تحمل الكثير من الأضرار ، وتساعد على تمييع شخصيتنا والقضاء على تميزها وتفردها .

وما أكثر الشباب والشابات الذين يأخذون مثلهم العليا من فن السينما والمسرح، إنهم يرون الأبطال وهم يتحركون على الشاشة أو على خشبة المسرح ،وحياتهم كلها لذات ونزوات ،أو ما يسمونه ـ خطأـ بالحب ، ويرونهم يرتدون أفخر الثياب وأحلى الجواهر ، ويحققون ما يريدون،فيظن شبابنا أن الحياة على هذه الوتيرة من السهولة واليسر والإباحية وإشباع الرغبات ، فيدخل فى روعهم أن تلك الصورة هى الواقع،وأن ما يرونه حولهم خداع وظلم ، ومن ثم يتمردون ويسخطون ، ويبحثون عن أيسر السبل لتحقيق تلك الأحلام الوردية ،التى زوقها لهم ذلك الفن المخادع الذى يمالئ عواطف الشباب ، وينافقها ويسترضيها على حساب أعظم القيم وأنبلها .

وإذا كان الفن وثيق الصلة بالمجتمع، وانعكاسًا لواقع الحياة،فإن الأمر جد مختلف عندنا ، إنه أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع ؛ لأن فنوننا سقطت فى قبضة التقليد ، واستعارة الأفكار والقضايا الأجنبية ،ولم نستطع تقديم فن متميز محترم .

إن الأمر الذى يعجب له الإنسان أشد العجب،هو أن مهنة التعليم لها قيود ومواصفات ومؤهلات،أما الفن فقد تُرك له الحبل على الغارب،وأصبح عملاً سباحًا لكل إنسان وأهملت الرقابة،وتغلب الهدف المادى والترفيهى على الجوانب التربوية والأخلاقية والروحية،بل أصبح الفن والفنان مرتبطين فى أذهاننا بالتحرر اللامحدود، والتحلل الممجوج،وأصبح الفن نوعًا من المخدرات والمسكنات لتلك الجماهير المطحونة .

لقد صوَّر لنا الفن الحياة العصرية من جانبها المنحل ، فالزوجة تراقص رجلاً غير زوجها ، وتخاصره ويخاصرها ، واشتداد الأزمات معناه أن يهرع البطل إلى زجاجات الخمر كى يطفئ غضبه وقلقه ، ويخفف من حزنه وأساه ،والحرية أن تفلت الفتاة أو الفتى من رباط الأسرة ، وتنطلق على هواها تعاشر وتخالل ،والآباء والأمهات يظهرون دائمًا بصورة المتعنتين المتخلفين الذين يصادمون نواميس التطور ، والإسراف والإتلاف معناه الرجولة والشهامة والوفاء ، وارتكاب جرائم القتل واللكمات بطولة ، والعنف

والرعب الدموى فى أفلام مصاصى الدماء وسيلة للتعبير عن الذات ،وهى فى الواقع جوانب منحرفة شاذة،أبعد ما تكون عن طبيعة الإنسان السوى واتزانه النفسى ، مثل هذه الأمور أفرزت الانحرافات والشذوذ .

إن أبواب العالم الإسلامى مفتوحة على مصراعيها للفنون البذيئة المدمرة ،تفد إلينا من خلالها أفكار مشبوهة،وبعثاتنا التى نبعثها للخارج تعود وقد تشبّعت « بالإثم الفنى»، وخلعت عنها رداء شخصيتها وأصالتها ، وعادت مسخًا مشوها ،يخدم مخططات خبيثة من حيث تدرى أو لا تدرى .

تلك هى الصورة الغالبة على فنوننا ، وهى صورة غير صادقة ولا تتفق مع واقعنا ومبادئنا ، حتى فى البلدان الإسلامية التى أقامت مؤسسات للفنون والآداب ، فاتتها هذه الحقائق الهامة ، وركزت على الترويج للمبادئ السياسية التى تكفل لها الأمن والاستمرار والاستقرار ، ولم تتناول النواحى الأخلاقية والاجتماعية التناول الصحيح ، فما دام الفن لا يمس النظام ولا يتعرض له بالنقد أو المعارضة فله أن يفعل ما يشاء .

تلك النظرة القاصرة انحرفت بالفنون إلى زوايا خطرة ، وبذرت بذور الفساد والتحلل والتمزق فى الكيان الاجتماعى ، وأخذت تفعل فعلها فى خبث ودهاء ، فى غيبة الوعى الصحيح ، وفى غفلة الضمير الحى الحر »[1] .

نموذج للفن السينمائى :

عرضنا فيما سبق للواقع السينمائى الأثيم ، والحق أن من يتمعن فيه يجد أنه ترجمة حرفية للمخططات المسمومة لبروتوكولات « سفهاء » صهيون،حيث ورد فيها : « سنلهى الجماهير بأنواع شتى من الملاهى والألعاب لملء الفراغ ، وسندعو الناس للدخول فى مجالات شتى فى كل أنواع المشروعات ؛ كالفن والرياضة ومسابقات ملكات الجمال وغيرها، وسننشر بين الشعوب أدبًا مريضًا قذرًا تشمئز منه النفوس ، ويساعد على هدم الأسرة ، وتدمير جميع مقومات الأخلاق للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر فى الترويج لهذا الأدب وتشجيعه »

ونعرض فيما يلى لفيلم ، كنموذج على هذا الواقع الوبائى المتفشى فينا بأيدى أعدائنا ـ ومن خلال مخططاتهم ـ وبأيدى الغافلين منا .

---

(١) د . نجيب الكيلانى : مرجع سابق ، ص ٣٠ ـ ٣٤ بتصرف .

اسم الفيلم ـ النموذج « **يا دنيا يا غرامى** » إنتاج ١٩٩٦ م ، وندخل بك الآن إلى شاشة العرض .

« هذا الفيلم للبنات فقط (!!) من خلال ثلاث قصص متماسة، لثلاث فتيات صديقات من حى شعبى فقير ، يرغبن فى الزواج قبل أن يفوتهن قطاره السريع !! والفيلم يقدم للبنات الحائرات البائسات حلولاً سحرية ، فالشرف لم يعد مشكلة بعد تقدم الطب وعمليات « الترقيع » ، والزواج العرفى من ثرى هو الوصفة الأكيدة للسعادة الفائقة .

ولنعرض الشخصيات ، ففاطمة (لاحظ الاسم !!) تعمل بمصنع ملابس، وتتطلع للزواج من جارها « يوسف » اللص والنصاب ، الذى يتزوجها بعد خِطبة طويلة ، وفى ليلة الزفاف يتم القبض عليه، ويُسجن لسرقته سيارة فارهة .

والثانية « نوال» بائعة فى محل زهور، لا تجد من يتزوجها بعد إصابة شقيق صاحبتها ـ وكان من المفترض أن يتزوجها ـ بلوثة عقلية، لعدم قدرته على التأقلم مع ظروف الحياة الشديدة القسوة، والإحباطات المتوالية التى يعانى منها معظم الشباب وخاصة الجامعيين، ثم فى النهاية تخضع للثرى« صاحب محل الزهور » فيتزوجها عرفيًا!

أما « سكينة » فهى حالة خاصة ، فقد كانت مخطوبة لشقيق فاطمة ، الذى أفقدها عذريتها بدعوى الحب ، ثم انضم لإحدى الجماعات « الإرهابية » وطالبها بترك أهلها وارتداء النقاب ليتزوجها فرفضت ، وعندما عرض زميلها فى العمل الزواج عليها ، صارحته بحقيقة الأمر فتركها ، فلم تجد أمامها إلا إجراء عملية « ترقيع » باقتراح من صديقتيها ، فاطمة ونوال ليتزوجها مدرس لغة عربية ـ ولا تسأل لماذا مدرس للغة العربية بالذات ؟! ـ وطبعًا لا يكتشف الأمر ، وتحيا « سكينة » سعيدة هانئة هى وزميلاتها ، فى دلالة موحية قابلة للتأويل من أى بنت تشاهد الفيلم وتبدأ فى مجاراة أحداثه الوردية ، إذ النهايات أثبت وأكثر استقراراً فى اللاوعى من البدايات !!

وبانتهاء الفيلم ، وخروجنا من دار العرض ، نشرع فى تحليله ، فالفيلم من خلال الفتيات الثلاث تناول عدداً من القضايا المهمة والخطيرة ، أهمها قضية « فقد العذرية » و« الزواج العرفى » ، والتسطيح الفج لمشكلة « جماعات العنف والتطرف » ، التى لا

---

(١) د . نجيب الكيلانى : مرجع سابق ـ ص ٣٠ ـ ٣٤ بتصرف .

تُناقش إلا من خلال اللحى ، فى محاولة لإلقاء مسحة من البطولة المدعاة على أحداث الفيلم من خلال قضية قُتلت طرحًا ، حتى لو كانت هذه المعالجة مقحمة بشكل ذميم ، وتم تناولها بشكل زاعق يشكل عبئًا على العمل الفنى .

ثم قضية أخرى تكاد تتماس ـ أو بالأحرى تتكامل ـ مع قضية التطرف ، وهى الكم المبالغ فيه من الإحباطات والصدمات التى يعانى منها الشباب ، خاصة الجامعى بعد تخرجهم ، من عدم وجود عمل مناسب يوفر لهم موردًا كافيًا من الرزق ، يساعدهم على الزواج وبدء حياة مستقرة .

وما يريد أن يوصله الفيلم هو أن الشباب ، إما أن ينحرفوا ، أو ينضموا للجماعات المتطرفة ، أو يُصابوا بلوثة عقلية ، ولنتناول كلاً من هذه القضايا :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

هذا البيت الأشهر يعبر ببساطة عن مكونات شعب يعتبر الشرف والعرض أهم من الحياة نفسها ، ويوقن فطريًا بأن « شرف البنت » مثل عود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة ،لكن فيلم « يا دنيا يا غرامى » ينسف هذا المعنى من الأساس،ويُقدّم بديلاً مفاده أن شرف البنت مثل « الولاعة » تشتعل كلما ضغطنا عليها ، كما جاءت العبارة الداعرة على لسان إحدى بطلاته؛ فى محاولة لإقناع « سكينة » بإجراء عملية ترقيع حتى تتزوج فى أمان.

هذا المعنى ذاته أكده مخرج الفيلم،إذ قال فى ندوة لمناقشة الفيلم:« لقد جرت العادة على قصر مفهوم الشرف على بكارة الفتاة،وأعتقد أن هذا مفهوم ضيق جدًا » ، فهى دعوة إذن لتوسيع هذا المفهوم ، فأى توسيع هذا ؟! فإن كنا نعلم يقينًا أن بكارة الفتاة ليست معيارًا حاسمًا فى عملية إثبات الطهارة والعفة، إلا أن الحالة التى يقدمها الفيلم شديدة الوضوح،بل صارخة،وهى أن هذه البنت «سكينة » قد مارست الرذيلة مع خطيبها،ونتج عن هذا هتك بكارتها ، فأى مفهوم للشرف يمكن أن يأتينا به المخرج بعد أن قدّم حالة شديدة الجلاء لا تقبل أى تأويل ؟! وهل الحل هو إجراء عملية ترقيع؟!

هذه هى الرسالة « السامية !! » التى يقدِّمها الفيلم « للبنات »؛ ولذلك يوجه لهن الدعوة خصوصًا بعبارة مستفزة ؛وهى أن الفيلم « للبنات فقط » ، إذ إن فتاة ترفض

مخادعة زميلها فى العمل. وتصر على مصارحته بحقيقة أمرها قبل الزواج لا يمكن - ولعلماء النفس فى هذا قول ناجع - أن تحيا سعيدة مع رجل تزوجها ، دون أن يدرى ما بها بعد أن أجرت عملية الترقيع ، ودلالة سعادتها فى زواجها - بعد ذلك - واضحة لا تحتاج إلى بيان !!

والفيلم يحفل بمشاهد العرى والإباحية ، ومن ذلك مشهد شغل مساحة كبيرة من الفيلم ، من خلال الشخصيات الثلاث المحورية فى الفيلم ، فقبل زواج فاطمة تذهب سكينة ونوال لمساعدتها فى الاستحمام (!!) وتبدأ المداعبات والمناوشات بينهن وهن عاريات ، بينما « الكاميرا الآثمة !!» تتحرك بشكل مُوَظَّف بين سيقانهن وأكتافهن ، بشكل يوحى للمشاهد بأنهن عاريات تمامًا ، وقد استمر المشهد لمدة مبالغ فيها ، هذا فضلاً عن أن المشهد ككل ليس له أى دور فى الفيلم ، ولا يفيد شيئًا فى الأحداث ، ولو تم حذفه لما شعر أحد بافتقاده ، إلا أن « الشباك » يفرض مشاهد وأحداثًا خاصة !!

ومن القضايا المراوغة التى عرضها الفيلم ، قضية التطرف والإرهاب من خلال شخصية خطيب « سكينة » وهى شخصية باهتة يبدو عليها من التنافر أكثر ما يبدو من الاتساق والانسجام ، وموضوع الإرهاب قُتل بحثًا من خلال السينما والمسرح والتليفزيون ، لكنَّ أحدًا لم يتناوله بهذه السطحية التى ظهرت فى فيلم « يا دنيا يا غرامى » ،ربما لأن القضية « حُشرت حشرًا » فى أحداث الفيلم ؛لإضفاء مسحة وطنية عليه ، وللتكريس - ربما - لمفهوم مغاير للمعالجات المطروحة ، فى فيلم يستعرض عددًا من المشكلات والقضايا الحياتية شديدة التنوع ، وهذه القضايا تتناول بشكل متوازٍ ، ولكن دون تصاعد درامى مقنن ، إذ إن حل هذه القضايا يتم استعراضها من إطارها الخارجى دون الاضطلاع بعبء الولوج إلى لبها ،مما جعلها سطحية العرض هشة الحلول، محملة بأفكار طبقية ، ثم التدشين لها طوال أحداث الفيلم من أجل إحلال أفكار خاصة لدى البنات بصفة خاصة ، كما يتم وضع السم فى العسل ، ولكن على الطريقة السينمائية !!» [١] .

(١) أحمد كمال زكى : صحيفة النور، عدد (٦٣٨) ، ١٧ جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ .

فساد الوسط الفنى واعتزال البعض

هذه الأجواء الفاسدة فى الواقع السينمائى ، وبين العاملين فى الوسط الفنى دفعت أكثر من عشرين ممثلاً وممثلة للاعتزال وهم فى قمة الشهرة ، منهم : شادية - مديحة كامل - هناء ثروت - شمس البارودى - نسرين - نورا - سوزان عطية «مطربة » - شهيرة - سهير رمزى - سهير البابلى - هالة الصافى ، وسحر حمدى « راقصتان » - منى جبر .

ومن الممثلين : حسن يوسف - محمد العربى - محسن محيى الدين .

ولم يكن قرار اعتزال الوسط الفنى والشهرة والأضواء - كما ذكرت الفنانات التائبات فى أحاديث صحفية - قرارًا سهلاً ، حيث قوبلن بعاصفة من الهجوم الحاد والافتراءات الظالمة ، والإغراءات الكثيرة .

وعن أسباب اتخاذ قرارها باعتزالها الفن تقول «هناء ثروت» - فى حديث نشر بصحيفة النور عدد (٦٣٦) : « إن هذا القرار أصوب قرار اتخذته فى حياتى ، وزوجى الكريم محمد العربى كان له دور كبير فى ابتعادى عن الفن ، حيث توصلنا إلى أنه ليس الفن الذى كنا نحلم به ، فقد وجدت أن الأدوار التى تصل بى إلى النجومية بعيدة كل البعد عن الأخلاقيات التى تربيت ونشأت عليها ، فكان علىَّ أن أقدّم أدوار الإغراء ، أو أرفض هذه البذاءات ، حتى ولو كانت فيها الأمجاد ، فلم يكن لدىّ استعداد أن أقدِّم دورًا يخجل ابنى أو ابنتى ، وهذا ما جعل بينى وبين الفن سورًا عاليًا ، وبُعدى عن الفن جعلنى أعيد حساباتى من جديد ، فقد كان الفن يتطلب منى وقتًا طويلاً ، وكنت فى سبيله أُضيع رعايتى لأبنائى وزوجى وآدائى لفروض الصلاة ؛ وقد حاول الكثيرون معى للعودة للتمثيل ، ولكن لا !!» .

كما تقول « نسرين » - كما ورد فى نفس الصحيفة : « قضيت ثمانى سنوات فى تفكير دائم ومعاناة نفسية ، كنت أمثل بغير اقتناع بما أفعل ، وأسأل نفسى بعدها : لماذا أديت هذا الدور ؟! وكانت المخاوف تطاردنى وأنا أنظر إلى ابنتى الصغيرة ، وما ستقول عنى حين تكبر وتشاهد أعمالى وترانى ألمس هذا أو ذاك ؟! إننى لا أنكر الفن فى ذاته؛ لأنه عمل راقٍ إذا استخدمناه بصورة فاضلة ، ولقد اعتزلت وأنا فى فترة من أنجح

فترات حياتى ، وكنت أملك مع زوجى « محسن محيى الدين » شركة إنتاج ، وأنتجنا فيلمًا حقق نجاحًا هائلا ،وكنت أنا ومحسن نسأل بعضنا يوميًا : وماذا بعد ؟ وأصابنا التمزق النفسى ، حتى قررنا الاعتزال ، وأنا الآن أرتدى نقابًا كاملاً، والحمد لله » .

ويؤكد « محسن محيى الدين » على كلام زوجته « نسرين » قائلاً : « يجب أن نعلم أن الربح من الفن لا يضاهيه أى ربح آخر ، وكان من الجهل أن نضحى بعملنا ونجاحنا وشهرتنا فى مقابل أى ثمن ، إنما التضحية تكون مقابل قيمة أعظم من المال ، وليس أعظم منه سوى رضا الله تعالى ، ألا يعلم مروِّجو الإشاعات أن التجارة مع الله أربح وأضمن ، وأن عودتنا إلى الله ليست لغزًا محيِّرًا ، فالمسألة بوضوح هى أننا لم نكن نعلم أو نقرأ ، وكنا ننجح فى مادة الدين بصعوبة ، وكان الفهم الصحيح غائبًا ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لنا الهداية وتصحيح طريقنا » .

وتقول « شهيرة »- فى حديث لمجلة المصور (٥ / ٩ / ١٩٩٥م) : « الفن ليس حرامًا ، بل بالعكس هو شيء جميل إذا استخدمناه استخدامًا صحيحًا ، فقد ينجح عمل درامى فى إقناع الناس وإرشادهم عن خطبة يلقيها عالم دين ، ولكن الفن اليوم ليس رسالة أو قيمة ، وإنما انهيار وسقوط وابتذال ، لذلك قررت الاعتزال ؛ لأن الفن ليس أكثر من رقص وعرى وفجور ، وأى إنسان يحترم نفسه من الصعب أن يعمل فى مثل هذه الظروف ، والحقيقة ، نحن الذين نصنع الحرام بأيدينا ، كل مهنة فيها الحلال وفيها الحرام ، فمهنة الطب مثلاً أسمى رسالة ، والطبيب ملاك الرحمة ، لكن قد يتحول إلى مذنب إذا أغواه الشيطان وهو يكشف على جسد امرأة ، فيرتكب المعاصى ، وتصبح مهنة الطب « حرام » لأمثاله » .

ولعلنا نذكر تلك الضجة الكبيرة التى أثيرت حينما حاول أهل الوسط الفنى استدراج « شادية » بعد اعتزالها ، وإغرائها باستلام جائزة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى عام ١٩٩٥ م ، ولكنها رفضت !!

وصدق ذو النورين ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ حين قال : « ودَّت الزانية لو زنت النساء كلهن » !!

ضوابط للرقابة على المصنفات الفنية

إن طبيعة الفيلم السينمائى أنه يجب أن يُعرض على الجمهور من خلال دور عرض معلومة المكان ، شأنه فى ذلك شأن المسرحية التى تعرض على خشبة مسرح معلوم المكان ، ووقت العرض معلوم فى كلا الحالين أيضًا .

وعلى ذلك فإن سلطة الرقابة على المصنفات الفنية لن تحتاج إلى جهد كبير من البحث والتقصى، للتحرى عن الأفلام والمسرحيات المنافية للآداب ، وذلك على العكس من الرقابة على الكتاب الذى يمكن أن يطبع أو يتداول سرًا .

وقد يكون الفيديو وسيلة للهروب من الرقابة ، إلا أن مشاهدى الفيديو لا يزيدون ـ فى التجمع الواحد لهم أمام جهاز لمشاهدة فيلم هابط ـ عن أصابع اليدين ، وإذا زاد العدد عن ذلك فربما اكتُشفوا ، وذلك بعكس السينما التى يرتاد العرض الواحد فيها المئات ، بل الآلاف ، وعمومًا فإن الأمر المهم هو قرار الرقابة بعرض الفن من عدمه .

والرقابة على المصنفات الفنية تعد أمرًا ضروريًا لصيانة الآداب العامة ، ومصلحة البلاد العليا ، وعدم التعرض لما يمس شعور الشعب وعقيدته ، إلى غير ذلك مما يكون ضروريًا للمحافظة على الأخلاق والقيم ، وذلك حتى تصبح الأعمال الفنية وسيلة إصلاح وتهذيب ، ولما لها من تأثير فى توجيه الرأى العام فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ودعوتنا إلى الرقابة على المصنفات الفنية فى المجتمعات الإسلامية والتأكيد عليها ، ليست هذه الدعوة بدعة ، ففضلاً عن أن الدين والمنطق السليم يدعو إليها ، فإن سائر الأمم ـ ومنها الأوربية والأمريكية ـ تأخذ بها .

وقد بدأ تطبيق الرقابة فى مصر عام ١٩١٤م؛ استنادًا إلى المادتين ١٠ ، ١٦ من لائحة « التياترات » الصادرة فى ١٢ يوليو ١٩١١ م .

وقد صدر أول قانون خاص بالرقابة عام ١٩٤٧ م،وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م ، حل محله القانون رقم ٤٢٧ لسنة ١٩٥٤م ، الذى حظر على المسؤولين عن دور السينما

السماح بإدخال الأحداث ـ من هم دون ١٦ سنة ـ لمشاهدة العروض السينمائية المحظور عليهم مشاهدتها .

ثم صدر القانون رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥م ، فيتضمن فى مادته الأول : تخضع للرقابة الأشرطة السينمائية وما يماثلها؛ وذلك بقصد حماية الآداب العامة والأمن العام ومصالح الدولة العليا .

ثم يأتى القرار الوزارى رقم ٢٢٠ لسنة ١٩٧٦م لينص فى مادته الأولى على أن : الرقابة تهدف إلى الارتقاء بمستوى المصنفات الفنية ، لتكون عاملاً فى تأكيد قيم المجتمع الدينية والروحية والخلقية ، وفى تنمية الثقافة العامة وإطلاق الإبداعات الخلاقة ، كما تهدف إلى المحافظة على الآداب العامة والنظام العام ، وحماية النشء من الانحراف ، ثم تضيف المادة الثانية ـ تحقيقًا للأهداف المشار إليها فى المادة السابقة: لا يجوز الترخيص بعرض أو إنتاج أو إعلان عن مصنف، إذا تضمن بوجه خاص الدعوات الإلحادية والتعريض بالأديان السماوية والعقائد الدينية، وتحبيذ أعمال الشعوذة ، وإظهار صورة الرسول ﷺ صراحة أو رمزًا ، أو صور أحد الخلفاء الراشدين ، وأهل بيت النبى ﷺ، والعشرة المبشرين بالجنة ، أو تمثيل أصواتهم ، وكذلك صور الأنبياء عمومًا ، على أن يُراعى فى ذلك الرجوع إلى الجهات الدينية المختصة .

وأداء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وجميع ما تضمنته الكتب السماوية أداء غير سليم، أو عدم مراعاة أصول التلاوة ،وعدم مراعاة تقديم الشعائر الدينية على وجهها الصحيح ،وعرض مراسم الجنائز أو دفن الموتى بما يتعارض مع جلال الموت،وتبرير أعمال الرذيلة على نحو يؤدى إلى العطف على مرتكبيها،أو باتخاذها وسيلة لخدمة غايات نبيلة ، وذلك بتصوير وعرض الرذيلة على نحو يشجع على محاكاة فاعلها ، رغم تصوير العقاب الذى يناله عليها فى النهاية .

وإظهار الجسم البشرى عاريًا على نحو يتعارض مع المألوف وتقاليد المجتمع ، أو إبراز الزوايا التى تفصل أعضاء الجسم وتصورها بشكل واضح ،وكذلك المشاهد الجنسية المثيرة والحركات المادية ، والعبارات التى توحى بما تقدم ،والمناظر الخليعة ومشاهد الرقص بطريقة تؤدى إلى الإثارة ، وعرض مشاهد تعاطى الخمور والمخدرات على أنه شىء مألوف ومستحسن ، وعرض ألعاب القمار واليانصيب بطريقة تشجع على أن تكون

مصدرًا للرزق .

كذلك استخدام عبارات أو إشارات أو معانٍ بذيئة تسيء إلى الذوق العام ، أو تتسم بالسوقية ،وكذا عدم مراعاة الذوق عند استخدام الألفاظ المرتبطة بالحياة الجنسية والخطيئة الجنسية ، وعدم مراعاة قدسية الزواج والقيم المثالية للعائلة، أو عرض مشاهد تتنافى مع الاحترام الواجب للوالدين ما لم يقصد بها الموعظة الحسنة ، وعرض الجريمة بطريقة تثير العطف على الجانى ، أو تغرى بالتقليد ، أو تضفى هالة من البطولة على المجرم ، أو تقلل من شأن الفعل الإجرامى ودرجة خطورته على المجتمع ، مما يوحى بالمحاكاة، وكذا عرض جرائم الانتقام والأخذ بالثأر بطريقة تدعو إلى تبريرها ، وعرض مناظر القتل، أو الضرب ، أو التعذيب والقسوة عمومًا بطريقة وحشية تفصيلية ، واستخدام لقطات العنف والرعب لمجرد الإثارة ، وعرض الانتحار وتصويره بوصفه حلاً منطقيًا ومعقولاً لمشكلات الإنسانية ، وكذلك عرض الحقائق التاريخية ، وخاصة ما يتعلق منها بالشخصيات الوطنية بطريقة مزيفة أو مشوهة .

هذه هى النصوص القانونية ، وهى كما نرى كافية تمامًا ـ إذا تم تطبيقها ـ لحماية المجتمع من الأعمال الفنية الهابطة ، إلا أن المرء حينما يطّلع على الواقع الفنى يلحظ أن كل ما حظره القانون تقريبًا نشاهده على الشاشات صباح مساء !!

نرى أن هذا التناقض الواضح بين ما يحدث فى الواقع ، وبين ما يمليه القانون ، يرجع فى جزء منه ـ إلى ضعف العقوبات التى فرضها المشرِّع على المخالفين فى هذا الشأن، ولا أدل على ذلك من أنه على الرغم من قائمة النصوص القانونية التى ذكرناها، فإن الإسفاف لم يتراجع قيد أنملة ، بل إنه يتقدم !!

لذا فإنه يتعين على المشرِّع أن يعيد النظر فى العقوبات المفروضة فى هذا الصدد ؛ لتكون أكثر حسمًا وردعًا لسيل الأعمال « القذرة » ؛التى جعلت مدير التفتيش بالرقابة على المصنفات الفنية يقول ـ فى حديث بجريدة النور عدد رقم(٦٢٦) : « لو كنت سيد القرار لرفضت(٩٩ ٪) من الأعمال المعروضة حاليًا ، ولكن اختصاصنا كمفتشى رقابة متقلص ونعمل فى أضيق الحدود،ولا بد من تدخل الدولة لعمل بنية ثقافية لا تقل أهمية عن البنية الأساسية الاقتصادية ؛ لأن الثقافة حاليًا فى تدهور وتحتاج لإنقاذ سريع وخاصة السينما ، فالقضية هى دور الدولة الحيوى والهام الذى يجب أن تضطلع به

للتغيير ، وتطوير المجتمع نحو الأفضل فى جميع المجالات ، وأهمها الثقافة » .

وفضلاً عن ضعف العقوبات ، إلا أن الأمر الأهم هو أن هناك ما يمكن أن نسميه بـ « الضوء الأخضر » من سلطات الدولة، يسمح بالتجاوز عن الأعمال الفنية المُسفَّة التى تُعرض فى الجهاز الإعلامى الرسمى للدولة « التليفزيون » ، أفلا تعرض فى دور السينما التى يمتلكها الأفراد ؟!

فلو وُجدت الرغبة والإرادة الصادقة لدى الدولة فى « تهذيب » الواقع الفنى ، فإن القوانين الموجودة ـ التى عرضنا لها ـ فيها الكفاية ، ولا أدل على هذا الذى نقول من أن هناك مديرة للرقابة على المصنفات الفنية ـ السيدة درية شرف الدين ـ أرادت أن تواجه الأعمال المسفة ، والرقص الشرقى المتبذل فى السينما والمسرح،فمن الذى حال دون ذلك، ووقف فى سبيل « تهذيب » الفن ،إنه الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، بإيعاز من وزير الثقافة الذى لم يمنعه من التدخل فى أعمال مديرة الرقابة،فما كان منها إلا أن أعلنت استقالة مسببة من منصبها فى شهر مارس من عام ١٩٩٦م ، ألم نقل: إن أجهزة الدولة مسؤولة عن وصول الأعمال الفنية إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط والابتذال ؟!

رقابة الأزهر الشريف

للأزهر الشريف فى مجال الرقابة دور أناطه به القانون ، فقد قضى القانون رقم (٢٢٠) لسنة ١٩٧٦م بوجوب الرجوع إلى الجهات الدينية المختصة (أى الأزهر الشريف) فيما يتعلق بالأعمال التى تمس أو تتعرض للعقيدة الدينية، وما يتصل بذلك .

كما أكد القانون رقم (١٠٣) لسنة ١٩٦١ فى المادة ٢٥ منه على اختصاص الأزهر الشريف بالنشر والترجمة والتأليف والبحوث فى نطاق أغراضه .

كذلك قضى قرار رئيس الجمهورية رقم(٢٥٠) لسنة ١٩٧٥م بأن يضطلع الأزهر بدوره فى مجال الرقابة على ما ينشر متصلاً بعلوم الإسلام بصفة خاصة .

وقد أثير لغط فى السنوات الأخيرة حول مدى الاختصاص القانونى للأزهر فى الرقابة على الأعمال الفنية والمصنفات السمعية ، أو السمعية البصرية ، أو المقروءة التى تتناول قضايا إسلامية ، أو شأنًا من الشؤون يتعارض مع الإسلام ، ومنع هذه الأعمال من الطبع أو التسجيل أو النشر والتوزيع والتداول .

كما أثير جدل حول الضوابط التى تحكم اختصاص كل من الأزهر الشريف ووزارة الثقافة فى مجال الرقابة على المصنفات الفنية .

وحسمًا لهذا اللغط والجدل ، فقد عرض الأزهر الشريف هذا الموضوع على الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة ؛لبيان وجه الرأى القانونى فيه، فى ضوء أحكام القوانين التى تنظم الأزهر الشريف ، وتلك التى أخضعت المصنفات الفنية للرقابة .

وقد تناولت الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة هذا الموضوع بالبحث ، بجلستها المنعقدة بتاريخ الثانى من فبراير سنة ١٩٩٤م ، وخلصت من البحث الدقيق إلى وضع الضوابط التى تحكم الرقابة على المصنفات بوزارة الثقافة ، إذا ما تعلق المصنف بشأن إسلامى ، وقررت مبدءًا هامًا مقتضاه التزام جهات الإدارة المختلفة ؛ ومن بينها الرقابة على المصنفات الفنية بالتقدير الذى تتوصل إليه الهيئات المتخصصة بالأزهر الشريف ، نتيجة ما تقوم به من بحوث ودراسات .

تمثيل الأنبياء وآل البيت

ترددت في الآونة الأخيرة تُرّهات باطلة ، وتعالت أبواق العلمانيين ضد الأزهر الشريف ؛ نظرًا لرفضه عرض فيلم « المهاجر » الذى يحكى قصة سيدنا يوسف عليه السلام .

ومن الجدير بالذكر أن تمثيل هذه القصة القرآنية كان أملاً يراود بعض العاملين فى المجال الفنى ، وقد تحدث الشيخ أحمد الشرباصى عام ١٩٥٩ م ، أى قبل نحو أربعين عامًا قائلاً [١] : « ولعلكم سمعتم بالذين يريدون إخراج فيلم عن سيدنا يوسف الصديق، وهم لم يختاروا قصة يوسف لتكريمه أو تعظيمه ، بل لعلهم اختاروها ليعرضوا فقط مباذل امرأة العزيز ومراودتها ليوسف وغير ذلك من المناظر، التى سيكيفونها بطبيعة الحال حتى تُرضى رغبتهم فى إثارة الغرائز،والنزول بالمستوى الأخلاقى بين الناس » .

وهذا الذى توقعه الشيخ الشرباصى فى الخمسينيات أصبح واقعًا فى التسعينيات ، حيث قام المخرج المسيحى يوسف شاهين بإخراج فيلم المهاجر ـ قصة سيدنا يوسف ـ وأنتج هذا الفيلم القناة السابعة بالتليفزيون الفرنسى !!

وقد استند الأزهر الشريف فى رفض عرض هذا الفيلم ـ فى التقرير الذى وضعه مجمع البحوث الإسلامية، بعد قراءة سيناريو الفيلم فى مارس ١٩٩٥ م ـ إلى أنه فضلاً عن تمثيل شخصية سيدنا يوسف ، فإن الفيلم يحتوى على أخطاء تاريخية تناقض ما جاء بالقرآن الكريم ، وهذه بعض الأخطاء ، بل الخطايا التى وقع فيها الفيلم من واقع تقرير مجمع البحوث الإسلامية :

ـ وصف نبى الله يعقوب بأنه يتلوى ألمًا وغضبًا ؛ لأن ربه قد أنزل به العقوبة ، وأنه بدا صائحًا منتحبًا يعاتب ربه ، وهذا يناقض ما جاء فى القرآن من أن يعقوب عليه السلام تذرع بالصبر .

ـ تحدث الفيلم عن سيدنا يوسف بأنه شارك المصريين فى طقوسهم وصلاتهم للأصنام ، مجاملاً ومؤمنًا بأن ربه سيسامحه ويقدر موقفه .

---

(١) أحمد الشرباصى : الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية ، جـ ٤ ، دار الجيل ، ص ١٤٨ .

ـ أظهر امرأة العزيز وهى ترقص لاهية نشوانة، وأن يوسف عليه السلام كان يراقب حركاتها ،وأخذ كفها المجروح ورفعه إلى فمه وقبله ، وهذا الوصف لا يليق أن يروى أو يرى فى قصة نبى من أنبياء الله .

ـ جاء فى مشهد أن يعقوب أعطى يوسف عباءة جده إبراهيم، وقال له: إن هذه العباءة هى التى أنقذت جده من النار ، وهى التى ستنقذه من غيرة إخوته ، وهذا كله حديث خرافة؛ فلم تكن لإبراهيم عباءة من هذا النوع، ونجاته من النار إنما كانت علته أن الله سلب منها القدرة على الإحراق ،وجعلها بردًا وسلامًا .

ـ جاء فى مشهد أن يعقوب كان يفضّل يوسف وأخاه (بنيامين) على أولاده كافة، وهذا خطأ ، فكان يعقوب أعدل من أن يفضّل بعض ولده على بعض ، وما قاله أبنائه قد كان وهمًا منهم ، ولم يكن حقيقة قررها يعقوب .

ـ وأكد التقرير الذى وضعه الشيخ سيد سعود وكيل الأزهر والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، أن مؤلف وكاتب سيناريو ومخرج فيلم (يوسف الصديق) قد ناقضوا ما ثبت فى القرآن الكريم عن قصة نبى الله يوسف ، ولم يلتزموا بالنص القرآنى فيما حكاه رب العزة من وقائع هذه القصة ، وأضافوا إليها الكثير من شطحات الخيال ، التى أوهنتها وأخرجتها من دائرة الحقيقة والواقع إلى مجال الأسطورة والخرافة، وأضافوا إليها كثيرًا من العبارات الهابطة والمشاهد الخارجة عن تقاليد المجتمع وآدابه .

ـ ولما أخطر مخرج الفيلم (يوسف شاهين) بهذه الملاحظات أعرض عن الاستجابة إلى الأغلب والأعم والجوهرى منها ، واكتفى بتغيير اسم الفيلم من (يوسف الصديق) إلى (المهاجر) مع الإبقاء على أساس الوهن والمناقضة للقرآن .

ـ وترتيبًا على ذلك، فإن فيلم المهاجر يكون حريًا برفض الأزهر الشريف له ، وهو ما انتهت إليه الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة بمجمع البحوث الإسلامية، وفقًا للاختصاص المخوَّل لها قانونًا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القانون رقم (٤٣٠) لسنة ١٩٥٥م لتنظيم الرقابة على المصنفات الفنية،والمعدَّل بالقانون (٣٨) لسنة ١٩٩٢م،قد أقر للأزهر الشريف بدوره الرقابى هذا،وأيده فيما انتهى إليه من أنه لا يجوز إظهار صورة الأنبياء أو غيرهم من

الشخصيات الدينية ذات القداسة فى نفوس الناس؛ حتى لا يكون ذلك ماسًا بالنظام العام للمجتمع والآداب العامة، التى تنص عليهما المادة الأولى من قانون الرقابة على المصنفات.

هذا وقد أقر المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى ذى القعدة سنة ١٣٩٧هـ ـ أكتوبر ١٩٧٧ م ما أقره المجمع، من منع إنتاج أى فيلم يتناول بالتمثيل صاحب الرسالة أو أحد أصحابه الكرام، ولا يجوز السماح بعرضه صيانة لشخصية الرسول الكريم وأصحابه الأجلاء من التعرض لما لا يليق بمنزلتهم المصونة، ويطالب المؤتمر بمراقبة الأفلام السينمائية والتمثيليات قبل عرضها، ومنع ما يتعارض فيها مع تعاليم الدين الحنيف.

ـ وفى فتوى للشيخ حسنين مخلوف (٧ من مايو سنة ١٩٥٠م) أجاز إخراج فيلم عن الإسلام، بشرط عدم التعرض لأى موقف للرسول، ولا لأحد من آله وخلفائه، بحيث لا تظهر فيه صورة، أو يسمع صوت لأى واحد من هؤلاء.

ونخلص من ذلك إلى ما ذهب إليه الأزهر الشريف، مؤيّدًا بالقرار رقم (٢٢٠) لسنة ١٩٧٦م، من تحريم إظهار صورة الرسول ﷺ صراحة أو رمزًا أو صور أحد الخلفاء الراشدين، وأهل بيت النبى ﷺ، والعشرة المبشرين بالجنة، أو تمثيل أصواتهم، وكذلك صور الأنبياء عمومًا.

علماء الدين فى الأعمال التمثيلية:

علماء الإسلام هم قادة الفكر والدعوة، والحصن الحصين للأمة الإسلامية، يلجأ إليها الناس عند كل محنة ليحكموا بينهم بما شرع الله، هذا الرجل المهاب حوّلته الأعمال الدرامية إلى وسيلة ومن وسائل السخرية، فظهر كشخصية ساذجة، أو أنه رجل يبيع الدين، أو أنه إرهابى معادى للمجتمع، وغير تلك الصور التى تظهره بشكل مكثف يثير التساؤل.

فلماذا تظهر شخصية علماء الدين ممسوخة فى الأعمال الدرامية؟! ومن وراء ذلك العمل الدنىء الذى يهدف إلى هدم القيم الإسلامية؟!

إن الهجوم والتهكم على علماء الدين بدأ مع بادية الاستعمار الأجنبى لمصر، حيث أدرك المستعمر أن علماء الدين وعلماء الأزهر هم قادة الفكر؛ ولذا حاول المستعمر تشويه صورتهم أمام المجتمع، وتصويرهم على أنهم مجموعة من الجهلاء جامدى

الفكر، لا يمكنهم مواكبة التغيرات الحديثة.

وانعكست تلك الصورة المشوهة على أجهزة الإعلام المختلفة، فظهر العالم فى بعض الأعمال على أنه يتمسك بتفاهات الأمور فى بعض الأحيان ،وأحيان أخرى يصور على أنه يبيع الدين (الفتاوى) لمصالح شخصية، فى نفس الوقت الذى اختفت فيه صورة العالم الحقيقية ، بل استمرت السخرية من كل ما يستطيع رجل الدين أن يقوم به أو يمثله، فسخروا من الفكرة الدينية فى كثير من المواقف، مثل :« فلان الفلانى بيصلى» فيرد عليه آخر فيقول : « يا سيدى يبقى ياخدنا على جناحه » .

ثم السخرية من مدرس اللغة العربية بإظهاره بمظهر « المتقعر »، والذى كان يمثله آنذاك العالم الأزهرى ، ففى مسرحية « السكرتير الفنى » يظهر « عبد الوارث عسر » بشخصية مدرس اللغة العربية الأزهرى « التافه »، الذى هو محل سخط الناظر فى معظم الوقت، واستتبع ذلك أيضًا أن تظهر شخصية المأذون كشخصية مهزوزة وبلا ضمير ، ثم يظهرون شخصية الحانوتى وهو يرتدى زى الأزهريين ، حيث إن الحانوتى يؤدى دورًا خطيرًا ، لكنه ارتبط فى الأذهان بعدم القبول .

وكان نتيجة هذا التناول أن ظهر اعتقاد بأن العالم متخلف ، وأن هذه الشخصية غير حضارية وضد التطور والتقدم ، مع أن الواقع يقرر أن الذين نهضوا بكل المعايير الحضارية هم علماء الدين ، ثم ظهر عامل آخر آكد فى إظهار عالم الدين بهذا المظهر فى الأعمال الدرامية، وهو الأفكار والمناهج الاشتراكية والشيوعية التى حرصت على أن تجفف ينابيع الدين ، وأن تقلص دوره وذلك بعد قيام الثورة .

إن شخصية عالم الدين ترمز إلى الدين ، فإذا صورت على أنها شخصية (كاريكاتيرية) مليئة بالسخرية ومتخلفة بعيدة عن التقدم ومتطلبات العصر ، أو أن من يرتدى زى عالم الدين مجرد رجل جشع ، أو رجل يبيع دينه ويحلل ما حرَّم الله لأغراض شخصية ، أو أنه إنسان ساذج يثير الاستهزاء والرثاء ،كل هذا يخلق فجوة بين المجتمع وعالم الدين؛ حيث يعتبر البعض أن فاقد الشيء لا يعطيه، فيبتعد شيئا فشيئًا عن مناهج الدين، وهنا الكارثة .

إن تصوير عالم الدين بهذه الصورة يضر بالمجتمع وبالمصالح العليا للبلاد ؛ لذا يجب أن تهتم المؤسسات الإسلامية الرائدة ـ وعلى رأسها الأزهر ـ بإصدار تشريع يمنع

إرتداء الزى الأزهرى لكل من (هب ودب)، مثلما منعت وزارة الداخلية بيع الزى الرسمى لها بدون تصريح ، وذلك حتى نحمى صورة علماء الأزهر فى أذهان الناس .

إن وسائل الإعلام المختلفة ركزت فى الفترة الأخيرة على علاج قضية الإرهاب ولكن بشكل خاطئ ، حيث صورت كل من يرتدى جلبابًا ويطلق لحيته على إنه إرهابى متطرف لا يفقه شيئًا فى الدين ، ويجب أن يبتعد الشباب عنه حتى لا ينحرفوا .

ونحن نتساءل كيف يمكن أن نربى أجيالاً تحترم وتوقر علماء الدين، وهى تراه فى وسائل الإعلام ـ وخاصة (الأعمال الدرامية)ـ دائمًا على أنه شخص ليس بينه وبين المجتمع أى صلة .

ومن الأعمال الفنية التى أساءت إلى الدين الإسلامى وما يمثله لدى المسلمين مسلسل العائلة الذى عرض عام ١٩٩٤م ، وهذا نص ما ردَّ به الأزهر الشريف على تجاوزات المسلسل (١) :

نوضح أن هذا المسلسل حين عرضت نصوصه على الجهة المختصة بالأزهر الشريف، وجدت فيها بعض التجاوزات والمخالفات للمبادئ الدينية الخاصة بعذاب القبر وغيره ، وأبدى الأزهر الشريف ملحوظاته على ذلك،ولم يوافق على عرضه قبل تصويب الملحوظات التى أبداها وأبلغها للمسؤولين فى حينه ، غير أن المسلسل فيما يبدو عرض دون تصويب وقبل إعادة مراجعته من الأزهر الشريف .

والحق أن عذاب القبر ـ وكذا نعيمه ـ ثابت بالكتاب والسنة والإجماع،ويجب على كل مسلم الإيمان به؛لما ورد فى ذلك من النصوص المؤيدة،والبالغ مجموعها حد التواتر.

وقد تضافرت فى ذلك الأدلة الواضحة القوية ،حيث جاء فى كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى : ﴿ **إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)** ﴾ [التوبة] .

وجـاء فـى السـنة الشريفـة الأحاديث المتواترة المعنى فى هذا الموضوع؛ كقوله ﷺ: « القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران » رواه الترمذى،وقال :

---

(١) هدية مجلة الأزهر ، شوال ١٤١٤ هـ ، ص ١٤ ـ ١٦ بتصرف .

هذا حديث حسن .

فهذه النصوص كلها - وغيرها - متضافرة تفيد : أن عذاب القبر من العقائد الإسلامية التى يجب الإيمان بها .

وإذا كان هذا هو موقف الأعمال الفنية عندنا من علماء الدين . فإن المسؤولين عن وسائل الإعلام فى أمريكا - مثلاً - يقولون :

(السبب الذى يجعلنا نمتنع عن إظهار القسس فى شخصيات فكاهية أو على أنهم أشرار ، هو ببساطة أن الاتجاه الذى يكوّنه الناس عنهم قد يصبح بسهولة اتجاهًا يعتنقه الناس نحو الدين بشكل عام) [1] ، فإذا كان هذا اتجاهًا فى مجتمعات متحررة ، فما بالنا نحن نهدم - بطريقة خفية - علماءنا ؟!و نحث الناس على ازدرائهم؟ !

كما أن الرقابة الفنية ببريطانيا - المرجع الأساسى لليبرالية الغربية - منعت فيلمًا سينمائيًا من العرض ؛ لأنه يتضمن مشاهد إباحية تتعلق بالسيد المسيح ومريم البتول ، ولم يكن المنع بهدف المحافظة على الأخلاق العامة ،إذ توجد بصالات العرض البريطانية أفلام فى غاية الجرأة والابتذال ، وإنما الهدف بالتحديد هو الحفاظ على العقيدة المسيحية المتصلة بتنزيه السيد المسيح وأمه ، فقد تضمن قرار المنع اعتبار المشاهد الجنسية التى تتصل بالمسيح وأمه هرطقة وتجديفًا ، أى ارتداد وخروج على الملة المسيحية .

وهنا فإن بريطانيا - أم الديمقراطيات الحديثة - ترى أن الإبداع الفنى وحرية المبدع لا يجب أن تتعرض لعقائد الأمة ، أو تمس صلب دينها ، لكن منتجى الفيلم رأوا أن ذلك حجرًا على حريتهم ، وتوجهوا إلى سلطة أعلى وهى المحكمة الأوربية - (محكمة قارية وغير قومية) - SufranationL - وذلك لنقض القرار البريطانى؛ بحجة أنه يخالف شرعية حقوق الإنسان فى حرية القول والتعبير ، كما أنه يحول دون حق الناس أنفسهم فى الاطلاع على هذا العمل الفنى ، لكن المحكمة الأوربية أقرت قرار هيئة الرقابة الفنية البريطانية بمنع عرض الفيلم؛ لتعرضه لما يمكن أن يوصف بازدراء الدين المسيحى ، أى أن المحكمة الأوربية - هى الأخرى - رأت أن حق الإنسان والمبدع فى الإبداع والحرية فى التفكير لا يجب أن يطول مقدسات الأمة وثوابتها ، أى أن هناك محرمات لا يجب انتهاكها واختراقها بحجة الإبداع الفنى ، هو عمل شائن يعرض فاعله للحكم عليه بالتجديف والهرطقة ،أى الارتداد .

---

(١) د . جيهان رشتى : الأسس العلمية للإعلام ، ص ٣١٧ .

الحاجة إلى سينما إسلامية

إن فن السينما رغم كونه من الفنون الحديثة ، إلا أنه تجاوز من حيث تأثيره وانتشاره سائر الفنون الأخرى ، وأصبح عنصرًا هامًا وفاعلاً فى تشكيل الوجدان والعقل الإنسانى فى مختلف القطاعات والثقافات .

فإذا لم يتم توجيه هذا الفن المؤثر توجيهًا سليمًا ، يهدف إلى تحقيق آمال الأمة وطموحاتها فى ثقافة دافعة إلى التقدم والازدهار ، وليس إلى التراجع والانحدار ، فإن مردوده سيكون حتمًا سلبيًا على تواصل الأجيال ، وعلى تراث الأمة وتاريخها وتوجهات حضارتها .

ونحن فى عصر تتسابق فيه الأمم وتتصارع ـ وخاصة المتقدمة منها ـ إلى إحلال الاحتلال الثقافى محل الاحتلال العسكرى ، وذلك عن طريق استخدام الوسائل التقنية الحديثة ـ ومنها الفن السينمائى ـ فى نشر ثقافاتها ومفاهيمها ؛ لأن السيادة تبدأ من الفكر والثقافة .

لذلك ينبغى أن تكون التصورات والأفكار والمفاهيم التى نطرحها من خلال السينما وغيرها نابعة من قيمنا ومبادئنا الإسلامية ، حتى تصب فى صالح المجتمع المسلم ، فتعمل على تهذيب أخلاقياته، وتقويم سلوكياته، وتصحيح اتجاهاته، وترتيب أولوياته ، وذلك لن يتحقق إلا إذا كان ما يُطرح على الساحة من أعمال فنية وأدبية ، ومن معارف مختلفة مرتبطًا ومتصلاً اتصالاً وثيقًا ببناء القيم والأخلاقيات الإسلامية ، التى هى مصدر حياة الأمة ، وسر وجودها .

ونظرًا لخلو ـ أو ندرة ـ الساحة الفنية من الفنانين الإسلاميين ذوى الحس والفهم والإدراك لأبعاد خصوصية توجهات الحضارة الإسلامية، ممن يجيدون تصوير وتجسيد شخصية المسلم السوى فى سلوكياته وأسلوب تفكيره وتفاعله مع مجتمعه ؛ نظرًا لذلك ـ وغيره ـ باتت السينما ـ باعتبارها أداة هامة فى صياغة الأفكار وتحديد الاتجاهات ـ حكرًا على فئة معينة منسلخة من القيم والمبادئ الإسلامية ، بدءًا من كاتب القصة والسيناريو والحوار للفيلم ، والمنتج ، مرورًا بالفنانين والفنيين ، وانتهاءً بالمخرج والموزع

وصاحب دار العرض .

وهكذا أصبحت مسؤولية تشكيل الرؤى والأفكار للمجتمع الإسلامى فى أيدٍ غير أمينة؛ لكونها تشرَّبت ثقافتها وارتوت من معين الفكر الغربى ، فعملت على « تسريب » الأوضاع والتصورات والسلوكيات السائدة فى المجتمع الغربى . والمنافية لقيمنا وحضارتنا إلى المجتمع الإسلامى ، وتصويرها له باعتبارها سر النهوض والتقدم ، ولا سبيل إلى الازدهار إلا بها .

من هنا كانت الرسالة التى يتم توجيهها إلى مجتمعنا المسلم من خلال الأعمال الفنية المختلفة، ليست إلا انعكاسًا لما رسخ فى نفوس هؤلاء القائمين على أمر السينما بوجه خاص من اعتبار « النموذج الغربى » هو القدوة؛ لذلك فإنه يكون من غير المفيد ، بل من العبث ، مطالبتهم بالتحول عن هذا النموذج الغربى، الذى يعدُّونه سر « التقدم والازدهار » إلى النموذج الإسلامى، الذى يعدونه سبب « التراجع والاندحار » !!

ولعل السبب الرئيسى الذى أدى إلى هذه النتيجة ، هو التراخى والتكاسل والسلبية وإلقاء اللوم على الاستعمار والصهيونية وأذيالهما من العلمانيين والمتغربين ، إلى آخر قائمة الاتهامات التى يجيد القائمون على أمر التوجيه الثقافى الإسلامى إطلاقها وهم قعود بلا حراك !!

وقد كان من الأجدى منهم ، بدلاً من اعتماد السلبية والانزواء فى خندق الدفاع ، هو اختراق هذه الفنون واستيعابها وتطويعها وتطويرها، وجعلها أداة فى أيديهم يوجهونها الوجهة الصحيحة المأمونة ، والمطلوب من المسلم أن يكون صاحب موقف عملى إزاء ما يعرض له من مستجدات .

لذلك فإن حاجتنا أصبحت ماسة إلى صناعة « السينما الإسلامية ؛ لأنها إحدى الوسائل التى نوقف بها مظهرًا من مظاهر (الغزو الثقافى) لأمتنا ، وطريقة من الطرق التى نواجه بها حملات التشويه والتشكيك والعداء ، التى يضمها جزء من السينما الأجنبية الواردة إلينا .

وإن صناعة السينما الإسلامية وسيلة من وسائل الحد من تأثيرات السينما العربية ، التى تبتعد فى معظمها عن كل ما هو عربى وإسلامى وجاد وجوهرى ، فى قضايا الأمة العربية (والإسلامية) ومشكلاتها ، وطريقة من الطرق التى نواجه بها عمليات

التخريب والتشويه و (قتل) المشاهد العربى بخبث أو بحسن نية ،عبر مئات الأفلام السخيفة التافهة الرديئة ، التى دأبت على إنتاجها دوائر إنتاج عربية لا تأبه إلا إلى الأرباح التى تجنيها ، هذا إذا لم يكن لها أهداف مشبوهة أخرى نتورع عن الجزم بها ، وإن كان مضمون هذه الأفلام يشير إليها ويدل عليها .

وإذا كان ما سبق أمر (وقائى) دفاعى ـ ونحن للأسف فى مواضع الدفاع غالبًا ـ فإن هناك قضايا ذات طابع (إيجابى) تؤكد (الحاجة) إلى سينما إسلامية فعالة ومؤثرة.

هناك أولاً الموقف اللازم الذى ينبغى على المسلمين أن يقفوه إزاء كل الأدوات والوسائل والتقنيات والمجالات الجديدة ، التى يبتكرها العقل الإنسانى ويوجدها ، وهو موقف (الاستيعاب) السريع و (الامتلاك) والاستحواذ ، ومن ثم التوظيف الكامل لهذه الأدوات والوسائل والتقنيات فى خدمة قضايا الأمة ومشكلاتها ، وهو أمر دفاعى وإيجابى فى الوقت نفسه ، وقد أثبت العرب والمسلمون ، بجهود غير ضخمة قدرتهم عليه ، وإمكاناتهم حتى فى التفوق فيه ، وفى مجال السينما بالذات استطاع بعض المخرجين العرب والمسلمين أن يقدموا أفلامًا عظيمة ذات مضمون إسلامى ووطنى وإنسانى كبير يضاهى الأفلام الكبيرة ، ويتفوق عليها أحيانًا ، وقد أثبتت السينما الإيرانية وجودها عالميًا فى هذا المجال .

وهناك ثانيًا سعة التصور الإسلامى ، وأمداؤه الفسيحة التى تجعل السبل ميسورة أمام السينما الإسلامية لتتطرق إلى جوانب ومجالات متعددة لا حصر لها ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، والكون والحياة والإنسان ، أى المجالات الكثيرة التى يمكن للسينما الإسلامية أن تتعامل معها وتخوض فيها ، وتسهم بالتالى فى الجهد الإسلامى العام الذى يبذل من أجل عودة الأمة لأصولها وذاتها وجذورها ، وسط التحديات الكبرى التى تواجهها .

وهناك ثالثًا إمكانية توظيف السينما لصالح العمل الإسلامى السياسى بوجه خاص ، وهو مجال يؤمل منه تحقيق نتائج كبيرة ، ولا سيما للتواصل السينمائى والإعلامى الكبير بين مختلف دول العالم ، بحيث يمكن أحيانا اختراق عوائق كبيرة ، لا يمكن لوسائل العمل الإسلامى الأخرى أن تتجاوزها » [(١)] .

---

(١) محمد وليد جداع : مرجع سابق ، ص ٦٥ ـ ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

السينما الإيرانية : تعرية النفس لا الجسد

يمكن القول : إن السينما الإيرانية أصبحت رائدة ونموذجية بين البلاد الإسلامية، وقد عبرت عن الحقائق بكل وضوح بعد انتصار الثورة الإسلامية قبل نحو ربع قرن ، وإذا اعتبرنا مخرجين مثل مصطفى العقاد بفيلميه « الرسالة » و « عمر المختار » نقطة انطلاق للحركة باتجاه سينما إسلامية التوجه ، فيجب التنويه إلى أن المحتوى السياسى والاجتماعى للأفلام الإيرانية بعد الثورة كان أعمق وأكبر ،حيث توجه المخرجون الإيرانيون لتناول الموضوعات الاجتماعية والإنسانية من منظور إسلامى .

لقد تركت السينما الإيرانية آثارها العميقة على المهرجانات العالمية فى مختلف بلدان العالم ، فقد أدهش فيلم « المرآة » لجعفر يناهى الأنظار فى مهرجان لوكارنو بسويسرا ، وأحدث فيلم « مسافر الجنوب » ضجة فى مهرجان طوكيو ، وحاز فيلم « البالون الأبيض » لجعفر بناهى على جائزة الكاميرا الذهبية ، فى مهرجان « كان » العالمى .

ولم يكن هذا النجاح من باب الصدفة ، فقد كانت الروح الإنسانية والأهداف السامية فى الأفلام الإيرانية مما يأسر القلوب حقاً ، وبصفة عامة فإن من إيجابيات السينما الإيرانية فى العقدين الأخيرين ، فضلاً عن نبذ الاعوجاجات السابقة فى عهد «سينما الشاه » عرض نزوع البشر إلى القيم الإنسانية السامية .

وفى مسابقة لم تظفر بها إحدى دول العالم المتقدمة سينمائياً من قبل ، فازت إيران بثلاث جوائز دفعة واحدة فى المسابقة الرئيسة لمهرجان « كان » السينمائى الدولى لعام ٢٠٠٠م الذى تنظمه فرنسا سنوياً ، وذلك عن أفلامها الثلاثة التى شاركت بها فى ذلك العام ، وبذلك تعد إيران الدولة الوحيدة فى تاريخ هذا المهرجان وغيره من المهرجانات الدولية ، التى تفوز جميع أفلامها بجوائز متخطية بذلك زعيمة السينما فى العالم وصاحبة « هوليوود » الولايات المتحدة الأمريكية ، فضلاً عن دول أوربا المتطورة سينمائياً مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا .

وأول الأفلام الإيرانية الفائزة هو فيلم « تاختى سياه » أو« السبورة السوداء » للمخرجة « سميرة مخملباف » ذات العشرين ربيعًا فقط ، والتى تعد أصغر مخرجة سناً

تشارك فى المسابقة الرسمية للمهرجان على مدى أكثر من نصف قرن من تاريخه ، حيث فاز هذا الفيلم بجائزة لجنة التحكيم والتى تعد من أرفع جوائز المهرجان ، وفاز الفيلمان الإيرانيان « جمعة » و « الجياد المخمورة » بجائزة الكاميرا الذهبية عن أول إخراج .

وبعد أن شاركت « مخملباف » لأول مرة ـ وهى محجبة ـ فى المهرجان عن فيلم «التفاحة » وهى لم تكن تجاوزت ١٨ عاماً فقط ها هى تعود لتفوز فى دورة مهرجان عام ٢٠٠٠م بفيلمها « تاختى سياه » الذى يجمع بين الفكاهة والمأساة والشعر والواقعية ، ويروى قصة معلمين يجوبون الطرقات الوعرة القاحلة فى منطقة « كردستان » على الحدود مع العراق ، سيراً على الأقدام بحثاً عن تلاميذ ، ليكسبوا لقمة عيشهم ، وكان صاحب فكرة الفيلم ـ الذى كان أغلب ممثليه من الهواة !! ـ هو والد سميرة المخرج محسن مخملباف ،الذى شارك من قبل فى مهرجان « كان » بفيلمى « سلام سينما » و « زمن الحب » ، وتدور أحداث « تاختى سياه » بكردستان على غرار فيلم المخرج الإيرانى العالمى « عباس كيا روستامى » الحائز من قبل على الجائزة الأولى للمسابقة الرسمية لمهرجان « كان » وهى « السعفة الذهبية » .

ونهمس فى أذن القائمين على صناعة السينما فى مصر والدول العربية والإسلامية ـ منتجين ومخرجين وكتاب سيناريو وفنانين وفنيين ـ أن يقتدوا بالسينما الإيرانية ويسيروا على نهجها ، بدلاً من سينما المقاولات (العرى والجنس والعنف والمخدرات و«الكوميديا » السطحية) حيث استطاعت السينما الإيرانية من خلال تعرية النفوس لا تعرية الأجساد أن تحصد العديد من الجوائز الهامة من أهم المهرجانات السينمائية العالمية؛بينما السينما المصرية « محلك سر » بل فى تراجع ، ومازلنا ـ منذ سنوات ـ نتحدث عن أزمة صناعة السينما فى مصر .

موضوعات السينما الإسلامية

إذا ما طرحنا سؤالاً عن المجالات والموضوعات التى يمكن للسينما الإسلامية المأمولة أن تتناولها وتعالجها ، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن ، هو الموضوعات المستمدة من التاريخ الإسلامى بحوادثه وأحداثه ، من السيرة النبوية وعهد الرسالة ، وعصر الخلفاء الراشدين، والمعارك الكبرى فى الإسلام ، وحياة القادة البارزين على امتداد التاريخ الإسلامى ، فإذا تحدث أحد عن فيلم إسلامى ، انطبع فى الذهن توًا أن مجاله ومضمونه التاريخ الإسلامى وصُنَّاعه !!

وإذا كان من المطلوب صنع أفلام تدور حول الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى، إلا أنه يكون من قصر النظر وصف هذه النوعية من الأفلام فقط ـ دون غيرها ـ بالإسلامية ؛ ذلك لأن التصور الإسلامى هو تصور واسع فضفاض للإنسان والكون والحياة ، وبالتالى يجب أن يعبر الفيلم الإسلامى عن هذا التصور ولا يحصره فى الجانب التاريخى فحسب .

يقول الأستاذ محمد قطب ـ فى كتابه منهج الفن الإسلامى : « ليس من الضرورى أن يتحدث الفن عن الإسلام ؛ حقائقه وعقائده وشخصياته وأحداثه ، وإن كان من الجائز أن يتناول كل هذه الموضوعات ، قد يتحدث لنا عن البرعم النابض الذى ينبعث من ضمير الحياة ، قد يتحدث عن الجيل الشامخ الأشم ، قد يتحدث عن نبتة وحيدة فى الصحراء ، قد يتحدث عن الليلة المقمرة ، قد يتحدث عن مواجع البشرية ، عن صراع الناس فى الأرض، قد يتحدث عن بطل أسطورى ، قد يتحدث عن ذلك كله ، فيكون فنه إسلاميًا إذا تلقَّاه فى حسه بتصور الإسلام الصحيح ، وعبَّر عنه بروح هذا التصور ، وفى سبيل هذه الصورة الشاملة الواسعة للحياة البشرية ، يهتم الفن الإسلامى بإبراز دور العقيدة فى حياة الإنسان، مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية ، أو بلورة فلسفية ، تبعد الفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص » .

«إن الأفلام العلمية ، حين تعرض من منظور إسلامى ، قد تكون سينما إسلامية مفيدة ، وإن الأفلام المعدة للأطفال، على تنوع موضوعاتها ، حين تعرض من منظور إسلامى ، قد تكون سينما إسلامية أيضًا ، وإن الأفلام التى تبرز « القدر » فى حياة الإنسان أو الكون من منظور إسلامى ، قد تكون سينما إسلامية أيضًا ، إن المجالات

والموضوعات واسعة حقًا ، بقدر ما هو التصور الإسلامى واسع وملتزم ، بقدر ما الفن الإسلامى واسع وملتزم كذلك » (١) .

« وبطبيعة الحال فإن الأمر لا يعنى مطلقًا أن نحوِّل الفن إلى مجموعة من النصائح المباشرة أو الوعظيات والخطب ، فالفن تعبير غير مباشر،وله مواصفاته وقواعده ، ونحن لا نطالب بهدم هذه القواعد أو النيل منها ، وإنما نركز على المضامين الفكرية فيه، وعلى الإيحاءات والتأثيرات الوجدانية التى يخلفها فى نفس المتلقى ، وعلى صور الأحداث المتراكمة المعقدة ، التى لا بد أن تهدف إلى شىء أعمق وأعظم ، حتى ينشأ جيل جديد يدرك معنى الحرية الحقيقية ، والحب النظيف ، والجهاد الشريف فى قلب معركة الحياة والوصول إلى الأهداف النبيلة ، بالوسائل المشروعة .

إن وجهة النظر الإسلامية بالنسبة للفنون ليست قاصرة ولا جامدة ، وليس هناك عداء بين الفن الصادق وبين الدين ، بشرط أن يعرف الفن مكانته بالنسبة للدين ، فالفن وسيلة أو دعوة لقيم الخير والحب والجمال والسمو بروح الإنسان وفكره وغرائزه ، الفن ليس هدفًا فى حد ذاته ،ولكنه أداة لصنع الإنسان القوى الحر المجاهد ، الإنسان المنطلق فى أنحاء الأرض يكتشف ويعمر ويدافع عن القيم النبيلة ، ويحمى شرف المخلوقات، ويذود الظلم عن المظلومين ، ويخوض « معركة » السلام النفسى والاجتماعى والعالمى، حتى يكون لدينا عالم يسوده الرخاء والإخاء والمحبة .

من هنا نرى أنه لا صحة لما يقال عن وجود فجوة سحيقة بين الفن والدين ،مادام الفن ـ من خلال التصور الإسلامى ـ يخدم قضية الدين ،ويعمل جنديًا مخلصًا أمينًا تحت لوائه ، وداعية صادقًا فى ظله يتشرب قيمه وآدابه ، ولا شك أن رداء «الإسلامية» الذى يتزيا به الفن يعتبر شرفًا ما بعده شرف ، ومجدًا لا يدانيه مجد ، وما أحوجنا إلى طائفة من رواد الفن الإسلاميين مزوَّدين بأحدث الأشكال الفنية ؛ كى يضعوا البديل لتلك الترهات والأوهام ،التى أفسدت معظم الفنون والآداب العالمية » (٢) .

---

(١) محمد وليد جداع : مرجع سابق ، ص ٦٥ ـ ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) د . نجيب الكيلانى : مرجع سابق ، ص ٣٣ ـ ٣٥

مواصفات الفنان المسلم

إذا سلمنا بضرورة قيام سينما إسلامية، وسلمنا ـ وهو الأهم ـ بأن السينما مجرد أداة، وأن المهم هو الإنسان الذى يقف وراءها ، فإن من البساطة أن نقرر الآن أن الأجدر بصناعة السينما الإسلامية هو الإنسان المسلم الفنان .

إن المسلم الذى يتفهم الإسلام وتصوراته ، ويعيش بروحية الإسلام ومنهجه ، ويدرك آفاق الإسلام وأبعاده ، هو الأقدر على تقديم الإسلام ، فى كل مجال ، وفى السينما بوجه خاص ، إن السينما باعتبارها فنًا إسلاميًا ، تحتاج إلى الفنان المسلم .

يقول الأستاذ محمد قطب ـ فى كتابه منهج الفن الإسلامى : « والفن الإسلامى ينبغى أن يصدر عن فنان مسلم ، أى عن إنسان تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص ، الذى يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة والواقع ـ بمعناه الكبير ـ وزود بالقدرة على جمال التعبير ، وهو فى الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامى ، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور ، ثم (يقص) علينا هذه التجربة الخاصة التى عاناها فى صورة جميلة موحية » .

والحقيقة أن هذه بدهية إنسانية ، فالإنسان الذى يعيش فكرًا معينًا ، وتجربة شعورية معينة، يتعامل معها وينفعل بها، هو الأقدر غالبًا على التعبير عن هذا الفكر وهذه التجربة، وهو أمر يؤكده الناقد السينمائى حسان أبو غنيمة حين يتحدث عن (المعايشة) ضمن دعوته إلى (تعامل إسلامى . . مع السينما وفروعها) . يقول [1] :

« . . . كما أن استغلال هذا الشعور الدينى عند الجماهير ، دون إيمان حقيقى بالإسلام ، وبالمفاهيم الحضارية التى يحملها ، ودون قناعة تامة من جانب العاملين فى مثل هذه الأفلام ، هو أيضًا أمر لا يجب النظر إليه باستهانة » .

إن النظريات السينمائية الحديثة التى تؤكد على دور « المعايشة » وأهميتها فى نقل الوقائع بكل صدق ووضوح ، بما يضمن الإقناع والفائدة ، ليست مجرد نظريات تقال

---

(١) نقلا عن : محمد وليد جداع : مرجع سابق ، ص ٧٤ ـ ٧٦ .

فحسب ، وإنما هى أسس النجاح لأى تجربة سينمائية جادة ، ومن هنا فإنه يصبح لزامًا علينا التخطيط لتعامل إسلامى مع السينما ، ليس فقط فى حدود النظرية ، وإنما أيضًا على صعيد التطبيق ، ضمن فروع الفن السينمائى كافة ، بدءًا من الكتابة ومرورًا بالإخراج والتصوير والمونتاج والتمثيل والأداء والموسيقى وفروعها والديكور ، وانتهاء حتى على صعيد التكنولوجيا السينمائية ذاتها » .

إن مسألة الفنان المسلم فى صناعة السينما الإسلامية، تنطوى على ضخامة المهمة المطلوبة،ولاسيما لتعدد عناصر السينما ومفرداتها ،فنحن إذن بحاجة إلى المؤلف المسلم، وكاتب السيناريو المسلم ، والمونتير المسلم ، والتقنى المسلم ، وفنان الديكور المسلم ، وهى احتياجات كثيرة ودقيقة ، لا يمكن الحصول عليها إلا بإعداد وتخطيط مسبقين، وعلى الأمد البعيد كذلك .

ولكن الفن الإسلامى - كما يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه « منهج الفن الإسلامى » : ليس وقفًا على المسلمين وحدهم من الفنانين ، فالتصور الفنى الإسلامى للكون والحياة والإنسان هو تصور كونى إنسانى. . . مفتوح للبشرية كلها ؛ لأنه يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان ، ويلتقى معه كذلك من حيث هو إنسان ، ومن ثم يستطيع أى إنسان أن يتجاوب مع هذا التصور ، ويتلقى الحياة من خلاله بمقدار ما تطيق نفسه هذا التلقى وذلك التجاوب ، فيلتقى مع الفن الإسلامى بذلك المقدار».

إن الفنان المؤمن الملتزم بالإسلام فى حياته الخاصة وسيرته العامة ، هو الذى يستطيع بالوسائل المتاحة أن يقود نهضة ، وهو العملة الصعبة والنادرة اليوم ، لابد أن يكون الكاتب والفنان والمخرج من المؤمنين بالإسلام ،ومن أصحاب القدوة بحيث يراهم الناس أنقياء ورعين ، يرونهم فى المسجد ، يعتصمون بكل شعائر هذا الدين ، فتتغذى قلوبهم وأرواحهم به، ويعصمهم الدين من فتنة شيطان الفن فى فترات قل فيها الناصح الأمين ، والدليل الهادى والمناخ الصالح ، وحين يوجد هذا النوع فى واقع الحياة ، عندها تتحسن صورتهم وصورة الفن عند الناس [١] .

---

(١) محمد عبد الله الخطيب : حوار حول الدين والفن ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ص ١١ .

تمثيل المرأة

تعد المرأة - وقضاياها - من أكثر الموضوعات حساسية فيما يتعلق بفن التمثيل ، ويتخذ « البعض » منها ذريعة أو « شماعة » لتحريم هذا الفن ، ونحسب أن هذا يرجع - فى جانب منه - إلى الواقع المرير للمرأة على شاشة السينما ، هذا الواقع الذى لا يمكن بحال أن يتفق أو يتسق مع الدور المفترض للمرأة فى ظل التصور الإسلامى .

فإذا ظهرت المرأة فى عمل فنى تمثيلى، غالبًا ما يتبادر إلى الذهن أولاً - تأثرًا بالواقع الفنى - غريزة الجنس، والعواطف المحمومة ، والحب بمفهومه الضيق ، والعشق المحرم ، والانغماس فى مستنقع اللهو واللذة الحيوانية ، وما يصاحب ذلك أو يترتب عليه من أوضاع مرفوضة .

لكن هل يعد ذلك مبررًا لـ « منع » المرأة من التمثيل ، وبالتالى منع فن التمثيل بالتبعية ؛ لأن هذا الفن من واقع الحياة ، هذا الواقع الذى يتبادل الأدوار فيه الرجل والمرأة معًا ؟!

إن المرأة يمكن أن تشارك فى الفن التمثيلى ، إذا ما توافرت لذلك بعض الضوابط التى لا أثر لها فى الواقع الفنى الحالى ، لعل من أهمها : الاحتشام فى الملبس، والكلمات النظيفة ، والأداء غير المثير ، وتجنب كل ما يخدش الحياء .

إن هنالك قضايا وأمورًا وأدوارًا فى الحياة ، لا يستساغ أن تقوم بغير المرأة ، فمن يقوم بدور الأم ، أو الزوجة ، أو الأخت ؟! لا يمكن أن يقوم الرجل بهذه الأدوار فى واقع الحياة ، وبالتالى لا يُقبل أن يقوم بها فى العمل الفنى - سينما أو مسرح - الذى يصور واقع الحياة ، إذن لا مفر من الحضور المباشر للمرأة فى العمل الفنى ، فى ظل الضوابط التى ذكرنا طرفًا منها .

لقد حرم الله - فى القرآن الكريم - الربا والخمر والميسر، وقطع الطريق ، وقتل النفس - بغير حق - وأكل مال اليتيم ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

فما الذى يمنع من طرح هذه الموضوعات ، وبيان آثارها السلبية على الفرد والأسرة والمجتمع والأمة بأسرها ، من خلال شخصية « المرابى » الذى يستغل حاجة الناس

واضطرارهم ، و« شارب الخمر » وما يجرُّه الشرب عليه من ويلات ، و« الميسر » وما يؤدى بصاحبه إلى الفقر والفاقة والذلة ، و« قاطع الطريق » و« القاتل » وما يلحق بهما من جزاء رادع ، و« آكل مال اليتيم » وما يصيبه من كراهية المجتمع له وشعوره بالعزلة نتيجة لذلك، و« الزانى ومرتكب الفاحشة » وما يلتصق به من عار لا يُمحى . . . إلخ .

وعلى هذا النسق يمكن تناول قضايا المرأة ـ فى ظل الضوابط المشار إليها ـ تناولاً يهدى المتلقى إلى السلوك السوى ، بعيدًا عن السقوط والزلل .

المرأة فى القرآن الكريم [(١)] :

لقد كان للمرأة تواجدها فى التعبير القرآنى ، ولقد اختلف ذلك الوجود باختلاف السياق والمغزى ونمط الشخصية ، فامرأة فرعون نموذج لقوة الإرادة وصفاء القلب ، فلقد رفضت الوثنية ، ورفضت زوجها وما يدين به ، وولت وجهها إلى الله سبحانه لتحدد توجهها الدينى والإيمانى .

وتقف امرأة لوط على النقيض ، حيث خانت دعوة النبى ولم تهتد بنور النبوة وكانت حربًا عليه مع الكافرين ، وكذلك امرأة نوح .

وتتحول أم موسى إلى رمز الأم القلقة الحائرة المعذبة بفقدان الرضيع ، ويغلب عليها الفزع والخوف والاضطراب ، لولا أن تدركها رعاية الله فيتحول الخوف إلى طمأنينة والهلع إلى رضا بقضاء الله ، فيمتنع الطفل عن المراضع ليعود إلى أمه كرة أخرى ، وهى فى حال بين اليأس والرجاء .

وفى سورة مريم يظهر لنا جانب من خصائص الأنوثة ، متمثلة فى عذراء طاهرة متبتلة انقطعت عن الدنيا واتجهت إلى الله ، ثم ها هى يتملكها الرعب إذ تجد نفسها فى خلوة مع الملك ـ الرجل ، فينبثق من داخلها مشاعر التقوى .

وقصة ابنتى شعيب مع موسى عليه السلام التى وردت فى سورة القصص، تصور عواطف الأنثى النظيفة تجاه الرجل (عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته، ثم أمانته المتمثلة فى محافظته عليها) ، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحيية الخجولة .

---

(١) محمد قطب عبد العال : نظرات فى قصص القرآن ، الجزء الثانى، رابطة العالم الإسلامى ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥، ١١٨ بتصرف . ثم الجزء الأول ص ٧٥ ـ ٧٨ بتصرف .

والتعبير القرآنى استطاع أن يعبر عن كل هذه العلاقات النظيفة، التى لا تنحرف ولا تسف ، لإبراز أجمل ما فى النفس البشرية من مشاعر ووجدانات ، على طريق الحياة النظيفة التى أرسى قواعدها الإسلام .

وتسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له ، وهذه العواطف ليست حرام ، إنها عواطف الإعجاب والميول وما يصحبها من عمل طيب وسلوك قويم ، والحكم عليها هو الحكم الذى يستمد شرعيته من قوانين الدين وشرعه، الذى يتلاءم مع الفطرة السوية الطاهرة النقية ، إنها تهدف إلى علاقة نظيفة مثمرة منتجة ، اتساقًا مع فطرة الحياة التى خلقها الله ، والجمال هو فطرة الطبيعة ، وكل مشاعر طيبة مبرأة من الغرض فهى مشاعر جميلة ،تساهم فى حسن الأداء ، وتقويمه وتعديله وتخليصه من الهوى والجموح والشطط والسقوط .

ولقد أوفت الألفاظ بهذه المعانى جميعًا ، فعكست مشاعر الخوف والحيرة والرغبة النظيفة ، وجاءت متنامية مع الموقف ومع الحالة المصاحبة .

فلفظ : **﴿عَلَى اسْتِحْيَاء﴾** [القصص:٢٥] يشى بما تتصف به الفتاة من عفة ونبل وطهارة، فهى جاءته تمشى مشية الفتاة الفاضلة العفيفة النظيفة؛ من تمشى على استحياء فى غير تبذل أو تبرج أو خروج عن المألوف فى الفطرة السوية ،إنه لفظ قصد إلى المعنى قصدًا فى إيجاز مشع .

ولقد جاء لفظ : **﴿ تَذُودَانِ﴾** [القصص٢٣] ليصف مشاعر الضعف والذلة والمسكنة، والتى كانت عليه حالة الفتاتين وهما ينتظران السقى ، إنهما امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدران على مساجلة الرجال، ولا ترضيان لنفسيهما أن تزاحما الناس على فعل هو من عمل الرجال الأقوياء .

ويأتى اللفظ : **﴿ اسْتَأْجِرْهُ﴾** [القصص :٢٦] ليكشف ذلك الهاجس الجميل الذى تحس به الفتاة ، إنه الإعجاب بنوعين من القوة تبدت لها من موسى : القوة المادية التى ظهرت فى مزاحمته للرجال وسقايته لهما ، والقوة الخلقية التى تتبدى فى العفة والطهر ونقاء القلب والبعد عن تتبع عورات الناس ، أو إقحام البصر فيما هو مفسد .

واللفظ يظهر نفسية المرأة وتكوينها الوجدانى ؛ فالمرأة حين تعجب بأحد هذا الإعجاب النقى النظيف ، تحاول فى رقة ونبل وإيحاء أن تزينه فى عيون الآخرين ،

ومن ثم فلقد زينت ابنة شعيب فى عين أبيها موسى وزكته له .

ونظرة الإسلام إلى الجنس نظرة تنطلق من هذا الوجود الكونى كله ، إنها بنية الكون إن صح التعبير . وفى القرآن الكريم إشارات تتعلق بالجنس كحقيقة بشرية . قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٧٨]، فثمة التقاء وتلاصق حتى ليبدو الجسدان جسدًا واحدًا ، ولكنه التلاصق تحت جناح الستر الروحى والنفسى الذى هو وقاية من الفحش والتبذل.

والإسلام يدرك تمامًا ما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين، من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك ،ولكنه يقيها بمنهجه ؛ لأن منهجه الذى يسير عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها ، نظيفة فى معرض النور ، لا مستقذرة ولا مختلسة فى الظلام .

ولقد تحدثت القصة القرآنية عن مجالات الجنس التى تهبط بصاحبها ، وتسفل به ، وكيف تجنح به طاقته المنحرفة إلى سبيل فاسد ، ولكن الحديث وهو يصور لحظة الهبوط لا يرتقى بها إلى الإثارة أو إحداث اللذة ، شأن ما تراه فى الأدب البشرى المائل إلى الإثارة ودغدغة العواطف ، وإنما يقصد التعبير إلى تصوير النفس البشرية فى لحظة الضعف دون تزيد ، للتنفير من تلك الفطرة المنحرفة عن منهج الله ونسق الفطرة السوى، ومن ثم فإننا قد نلحظ المواقف الجنسية والتهيؤ البشرى لها ، والصراع النفسى المشتجر فى الموقف ، والحالات الوجدانية المعبرة أدق تعبير عن الموقف ، ولكن فى موضعها من السياق العام دون إثارة أو إحداث لذاذة عاطفية،وإنما هو عرض لباطن النفس ورغباتها فى نظافة وقصد محسوم .

وتعكس قصة يوسف هذا الجانب من جوانب النفس البشرية ،حين راودت امرأة العزيز فتاها ، والقصة حين تعرض هذا الموقف لا تثير تلذذ القارئ بمشاعر منحرفة، وإنما تهدف إلى إدانة هذا اللون من المشاعر الفاسدة ، فضلاً عن إبراز جانب من جوانب الابتلاء التى واجهها يوسف عليه السلام .

وإذا ما نظرنا إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف عليه السلام ، نجد أن القصة تحتوى على عظات بالغة ، كما أنه يدعو بالبراهين الساطعة ـ على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، ففى جزء من أجزاء القصة الرائعة ، يتواجد يوسف مع امرأة العزيز فى

موقف ، قلما ينجو منه إنسان إلا من عصم الله ، موقف يوضح صراع الخير والشر ، الجمال مع القبح ، العفة مع الابتذال .

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف] .

الآيات الكريمات تحكى قصة النفس البشرية حين يسيطر عليها الهوى ،ويجنح بها إلى مهوى الإثم ، إنها اللحظة التى تبدو فيها الأمور مهيأة للفعل وللسقوط فى الفحشاء، ولدوىّ المرأة وهى تلح فى همس ونعومة ومخادعة، فامرأة العزيز تجملت ودعته وأحكمت أسبابها ، ويوسف عليه السلام يرتجف مستعيذًا بالله من هول الفعل .

وانظر كيف يقف يوسف موقف الكرام ، الذين تجسَّدت فيهم مكارم الأخلاق جميعها. يقول يوسف : سيدتى كيف أقدم على هذا الفعل الشنيع ؟! كيف أخون سيدى ؟ كيف أنتهك عرضه الكريم وهو الذى ربانى وأحسن رعايتى ؟!

ولكن المرأة تفننت فى أساليب الإغراء ، وتوسَّلت بكل أسلحة الأنثى حتى كادت تنشب عواطفها فى قلبه ، فى قوة وتصميم ، ولكن الله حفظ يوسف، وعصمه .

والآيات الكريمات تصور حالة التغير والتبدل التى تعترى المرأة فى مثل هذه المواقف إذا ما جابهتها المفاجأة ، إنها تتحول ـ وبمهارة فائقة ـ لتقلب الوضع ليصبح المظلوم ظالمًا؛ والظالم مظلومًا ،والبرىء متهمًا ،ولكن الزوج يدرك الحقيقة فيطلب من يوسف كتمان الأمر ، ويصف ما فعلته زوجته بأنه من كيد النساء .

وهنا يتبدى لنا أن العزيز قليل الغَيرة على من أرادت خيانته وتدنيس فراشه بالإثم والفجور .

لقد قوبلت دواعى الغواية بدواعى العفاف ، مقابلة صورت من قصص المجتمع جدالاً عنيفًا بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان ؟

مفهوم الحب [1] :

ما معنى الحب ؟

الحب هو شعور نفسى ، وإحساس قلبى ، وانبعاث وجدانى ينجذب به قلب المحب تجاه محبوبه بحماسة وعاطفة وبشر .

والحب بهذا المعنى من المشاعر الفطرية المتأصلة فى كيان الإنسان لا انفكاك منه ولا غناء عنه ، وهو قابل فى كثير من الأحيان لتحكم الإرادة فيه إلى ما هو أفضل وأسمى، إن أراد المحب أن يسلك فى حبه مسلكا كريمًا شريفًا ، وأن يعيش فى الحياة عيشة الأصفياء والأطهار ، والمتقين الأبرار .

الحب ، هذه الكلمة التى ما تكاد تذكر ، حتى تضيء جوانب النفس البشرية ، وتهزها هزًا، لتستريح على مهاد من العواطف النبيلة ، ترشها كلمة الحب بالعبير وتنثر حولها الياسمين ، فلا يرضى المحب إلا أن يغتسل بماء السماء ، بالماء الطهور ، تسكن عليه يد حانية ، ليتسامى فوق الدّيم يرف كالحلم الوضيء ، يتوضأ بالمسك ، ويضم من يحب داخل دائرة العطر ، ويحوم به عبر سحابة وردية ، لا أحلى ولا أجمل فى هذا العصر المادى الذى يكتوى بنيرانه أبناؤه ، أولئك الذين ما عرفوا للحب إلا معنى المعشوقة والسرير ، مادة فى مادة وليس بعد المادة شيء .

نسوا أن هناك ألوانًا من الحب : حب الله ، حب الرسول ﷺ ، حب الوالد والوالدة ، حب الزوجة ، حب الأبناء والبنات ، حب الأخوة والأخوات ، حب فى الله يتجاوز تخوم الصلف المادى الرعيب .

نسوا كل هذه الألوان المشرقة ، وتسللوا إلى العتمات ، حيث الحب المحرَّم ، حب المعشوقات يطفئون وقداته فى فراش وثير ، أو على قارعة الطريق ، فعل البهائم ، من شعراء الغريزة اليوم .

ومن واقعية الإسلام : أن من ابتلى بحب امرأة ، وما استطاع أن يصل إليها بعقد أو زواج ، فعليه أن يتشاغل عنها وينساها ، فإن بقيت حاضرة فى ذهنه وماثلة فى تصوره ، فعليه أن يبذل قصارى جهده ،وغاية سعيه فى ولوج طريق التسامى والاستعفاف ، عسى أن يجعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا .

(١) عبد الله ناصح علوان : الإسلام والحب ، دار السلام ،مواضع متفرقة بتصرف ، وعلى القاضى : مجلة الوعى الإسلامى ، عدد (٣٣٥) ، ص ١٦ ـ ١٨ بتصرف .

أما العاشق الذى لا يتحلى بالعفة،ولا يتسامى عن الحرام، ولا يصبر على المصيبة ، فما أراه إلا والجًا طريق الغواية ،وسالكًا سبيل الفاحشة ، وسادرًا فى متاهات الهواجس والأفكار ،وربما قتل نفسه فانتحر ، أو قتل غيره فشقى وفجر ، أو توغل فى الفاحشة فشذ وانحرف ، أو أضناه السقام فعجز وقعد .

تزوج عبد الله بن أبى بكر ﷺ « عاتكة بنت زيد »، وكانت حسناء جميلة ذات خلق بالغ وأدب رفيع،فشغلته عن مغازيه وجهاده ،فأمره أبوه الصديق بطلاقها، وقال معللاً: « إنها شغلتك عن مغازيك فطلقها »، فطلقها عبد الله، فمر به أبوه وهو ينشد :

فلـم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير ذنب تطلّـق

لهـا خلق جزل ورأى ومنصب ... علـى كبـر منـى وإنـى لوامق

فرقّ له أبوه فأمره أن يراجعها، فراجعها ، ثم شهد مع النبى ﷺ غزوة بالطائف فأصابه سهم ، فمات بعده بالمدينة ﷺ .

يأخذ الحب مساحة كبيرة فى الثقافة الغربية ، ويكاد يقتصر على الصلة الخاصة بين الرجل والمرأة ، وقد توسعوا فيه فشمل جميع النواحى ، وساعد على نشر هذه المفاهيم أجهزة الإعلام بكل أنواعها ، حتى تحوّل الحب إلى تجارة تربح المليارات ، وانتشرت المثيرات الخارجية التى تخصصت فى ذلك ؛ مثل بيوت الأزياء العالمية والمجلات الجنسية والأفلام التى دمرت القيم والحياة ، ووضعت العقبات أمام الشباب فى الزواج المبكر، ووجد الفراغ الفكرى والعقلى وضعفت الأسرة ، وزادت مثيرات الجنس والمال الذى يدفع الشباب إلى الهجرة ، وعجزت منتديات الشباب عن أداء دورها .

وقد لاحظ ذلك الطبيب الإنجليزى ترومان مل بريل (مدير مستشفى لندن النفسى) فقال :

« لعل أغرب تجارة كسب منها التجار الآلوف من الملايين :تجارة الحب وتجارة السينما ونحوها ، لقد ساعدوا فى إفساد عواطف هذا الجيل من الشباب الذى ولد بعد الحرب ، وقالوا له : إن الحب جميل وساحر ، وأصبحت كلمة الحب صورة خيالية لا يستطيع الإنسان أن يصل إليها ، فيعجز عن ممارسة الحب وعن الرضا العاطفى ، وذلك يختلف عن أفكاره؛ لأن الواقع يصدمها » .

وقد وردت كلمة الحب فى القرآن الكريم (٨٨) مرة ،لم يرد فيها الحب الخاص

بالصلة بين الرجل والمرأة إلا مرة واحدة ؛ وذلك فى قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾ [يوسف] .

أما ماعدا ذلك فقد ذكر القرآن الكريم الذين يحبهم الله والذين لا يحبهم، ونحو ذلك من المعانى التى تبنى المجتمعات البناء السليم، وتحقق وظيفة الإنسان على الأرض، فالذين يحبهم الله تعالى هم الذين يطيعونه ويسيرون على منهاجه، والذين لا يحبهم هم الذين لا يسيرون على طريق الاستقامة فيؤثرون تأثيرًا سلبيًا فى هذه الحياة .

ومن آيات القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [البقرة]، ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾ [التوبة]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [الصف : ٤] .

ومن آيات القرآن الكريم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) ﴾ [المائدة] . ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾ [البقرة] .

الحب لله تعالى هو حب الطاعة، والانقياد لكل ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية، والالتزام بمنهج الله تعالى والسير على رضاه ، يقول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » [الطبرانى ، والبيهقى] .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة :١٦٥]، وقد طلب الله تعالى من نبيه أن يقول للمؤمنين : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فليس الحب كلمة تقال ، وإنما هى عاطفة واتجاه وطاعة وسلوك .

وقد تنبهت إلى ذلك رابعة العدوية فقالت :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وحتى فى الحب الذى يكون بين الرجل والمرأة ، يتقدم حب الله سبحانه عليه فلا

يفعل المسلم ما يغضب الله ، فهذا عبد الله القس ؛ الذى كان يعيش فى بغداد أيام الدولة العباسية ، وكان يحب سلامة حبًا ملك عليه فؤاده وعقله، حتى أطلقوا عليها : سلامة القس ؛ لاشتهار هذا الحب فى المجتمع،يلتقى مرة بمحبوبته سلامة فقالت له : إنى أحبك ، فقال: وأنا والله الذى لا إله إلا هو،قالت :وأشتهى أن أضع فمى على فمك ، فقال : وأنا، والله الذى لا إله إلا هو،قالت فما يمنعك،فوالله إن المكان لخال. فقال: يمنعنى قوله تعالى: ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)** ﴾ [الزخرف]، وأخشى أن تتحول مودتى لك إلى عداوة يوم القيامة ، ثم انصرف ولم يرها بعد ذلك أبدًا .

وهكذا نرى الحب فى الثقافة الإسلامية ، هو حب بناء لا حب هدم ، بينما الحب فى الثقافة الغربية حب هدم لا حب بناء ، ولذلك فقد طلب د . بريل منع وسائل الدعاية من نشر المفاهيم الغربية للحب ،لخطورتها على المجتمع، ثم طلب أن يعرف المجتمع ـ صاحب الثقافة الغربية ـ الحبَّ ، وأن يقتنع بالتعامل معه كعاطفة إنسانية طاهرة .

نحو مسرح إسلامى

المسرح: المعنى الواسع لهذه الكلمة هو شكل من أشكال التعبير الفنى عن المشاعر والأحاسيس والأفكار، ووسيلته فى ذلك فن الكلام،وفن الحركة ، مع الاستعانة بمؤثرات أخرى كالرسم « والديكور » والإضاءة والملابس و« الماكياج » ، ورغم الكتابات الكثيرة حول المسرح بمختلف اللغات ، فلا يوجد تعريف شامل ، فله أكثر من تصور ، وهو عمومًا: وسيلة وأداة يمكن توجيهها إلى طريق الخير ، أو إلى طريق الشر ، فضلاً عن أنه وسيلة تربوية وتعليمية .

وقد عرف العرب ما يشبه المسرح ، وإذا مررنا على الطقوس الاجتماعية والدينية للعرب قبل الإسلام ـ والتى لم تتطور إلى فن مسرحى كما حدث فى الأمم الأخرى ـ سنجد أنها قريبة من فن المسرح ، بل إننا نجد ثمة إشارات واضحة على أن المسلمين فى عهد الخلافة العباسية ، قد عرفوا شكلاً من الأشكال المسرحية المعترف بها ، وهو مسرح « خيال الظل » ، فقد ورد فى كتاب « الديارات » للشابشتى أن الشاعر « دعبل » هدد ابنًا لأحد طباخى المأمون بأنه سيهجوه ، فرد الابن بدوره قائلاً : « والله إن فعلت لأخرجن أمك فى الخيال »، أى أنه أنذره بأنه سيوحى إلى أحد فنانى المخايلة بإظهار صورة أم دعبل بين الصور الأخرى ، التى كان يلعب بها أمام متفرجيه ، يظهرها بمظهر يدعو طبعًا إلى السخرية (١) .

وفى الحقيقة إذا تطرقنا إلى الواقع المسرحى الحالى ـ فى الغالب الأعم ـ فلن نطيل الحديث؛ لأن شأنه شأن الواقع السينمائى الذى عرضنا له فيما سبق بشىء من التفصيل .

فالمسرحيات الحالية هى مجرد أسلوب فكاهى يستجدى الضحك للضحك ، ودغدغة المشاعر والشهوات؛ لأنها هدفت إلى الربح والكسب المادى على حساب الأخلاقيات والذوق العام،وقد أدى ذلك وأفضى إلى تهميش دور المسرح الحقيقى فى الإسهام بإعداد وتثقيف وتربية المجتمعات والأجيال ، وفقًا لمبادئ وأسس سليمة .

لقد أصبحت النصوص المسرحية لا تخاطب ـ غالبًا ـ سوى الغرائز ، بل إن الممثلين

---

(١) د . على الراعى : مجلة العربى ، عدد (٢٢٢٥) ، أغسطس ١٩٧٥م .

يخرجون كثيرًا عن النص المكتوب ، ويأتون بألفاظ تخدش الحياء العام ، وتحمل إيحاءات جنسية فجّة .

إن نجمًا مسرحيًا مثل « محمد صبحى » ـ فى إحدى المسرحيات ـ كان ينام عند قدمى إحدى الممثلات ، ويطلب مفتاحًا برقم صغير ، ثم ما يلبث أن يطلب مفتاحًا أكبر، ثم عندما يتأمل أكثر يطلب مفتاحًا أكبر !!

من أجل هذا كله كان واجبًا على المسرحيين ـ خاصة ذوى الغيرة على الدين ـ أن يحددوا منهجًا واضحًا ، وأن يصوغوا أسلوبًا إسلاميًا ، يساعدان على قيام مسرح إسلامى ، يكون مدرسة تربوية نسمع من خلالها الكلمة الطيبة .

وليس بالضرورة لكى يكون المسرح إسلاميًا أن يتناول التاريخ الإسلامى بموضوعاته وشخصياته ، فالمسرح الإسلامى هو مجموعة من القيم والمبادئ ، وكل مسرحية يكون مضمونها على هذا النحو الذى يحض على السلوك القويم ، فهذه مسرحية إسلامية ، ومناقشة الواقع الإسلامى المعاصر بمختلف قضاياه ومشكلاته ، ومعالجة ذلك مسرحيًا ، من خلال المنظور الإسلامى ، فهذا مسرح إسلامى .

وهذا الهدف ـ هدف المسرح الإسلامى ـ يتطلب منا تحديد نوعية الكاتب والممثل والمخرج المسرحى ، بحيث يكون فنهم ليس بخارج عن التصور الإسلامى للإنسان والكون والحياة .

لذلك يتعين على مختلف الهيئات الإسلامية أن تتضافر جهودها فى سبيل إنشاء هذا المسرح المنشود ؛ ذلك لأن الجهود الفردية المتناثرة فى هذا المجال لن تستطيع وحدها تحقيق وجود هذا المسرح المأمول ، أما إذا تضافرت الجهود المخلصة فنيًا وإداريا وماديًا، إذا تحقق ذلك ، يمكن أن نرى مسرحًا إسلاميًا .

التليفزيون وأثره

يعد التليفزيون من أحدث الوسائل الإعلامية ، فقد كانت أول تجربة لاختراع هذا الجهاز على يد المخترع الإنجليزى « جون لويجى بيرد »، أمام جمع من العلماء فى المعهد الملكى بلندن ، بتاريخ ٢٧ من يناير عام ١٩٢٦م ، إلا أنه لم يبدأ فى الانتشار والازدهار إلا بعد منتصف هذا القرن ، ولم تعرفه منطقتنا العربية إلا فى الستينيات ، ولم ينتشر فيها إلا فى السبعينيات .

ففى عام ١٩٧٠م ـ وفق إحصائيات اليونسكو ـ كان عدد أجهزة التليفزيون فى العالم (٢٩٨) مليون جهاز ، تتوزع بين الدول النامية بنسبة ٨,٤ ٪ بواقع (١٠) أجهزة لكل ألف شخص ، وبين الدول المتقدمة بنسبة٩١,٤ بواقع (٢٥٩) جهازًا لكل ألف شخص ، أما فى عام ١٩٨٩م فقد ارتفع عدد أجهزة التليفزيون إلى (٧٩٧) مليون جهاز فى العالم، توزعت بين الدول النامية بنسبة ٢٥,٧٢٪ بواقع (٥٢) جهازًا لكل ألف شخص من السكان ، وبين الدول المتقدمة بنسبة ٧٤,٢٨٪ بواقع (٤٨٩) جهازًا لكل ألف شخص من السكان .

وفى مصر تحديدًا تشير الإحصائيات التى أجريت عام ١٩٧٠م إلى وجود ٤٧٥ ألف جهاز تليفزيون ، أى بواقع جهاز واحد لكل ٦٠ شخصًا ، إلا أن هذا الرقم قد تضاعف بدرجة مذهلة إلى عشرة أضعاف فى التسعينيات ، حيث أصبح عدد الأجهزة أكثر من عشرة ملايين جهاز ، بواقع جهاز لكل ستة مواطنين فقط ، حيث اقتحم هذا الجهاز كل بيت ، وأصبح أمرًا لازمًا فى جهاز أى عروسين ، بل إن بعض البيوت بها أكثر من جهاز ؛ فى غرفة الاستقبال ، وغرفة النوم ، وغرفة المكتب ، وغرفة الأطفال ، بل نجده فى المحلات التجارية والأكشاك ولدى بائعى الفاكهة والخضراوات فى الأسواق !!

مما سبق من إحصائيات يتبين لنا ما يمكن أن يكون لجهاز التليفزيون من تأثير فى مختلف قطاعات المجتمع المسلم،فهو يجمع بين الصوت والصورة والحركة واللون، وهو بهذه الخواص قد أحدث انقلابًا فى المفاهيم والأفكار والثقافات والقيم والأخلاق ، وهو من حيث كونه أداة ـ كغيره من الأدوات الإعلامية الأخرى ـ يمكن أن يُوجه إلى الخير أو

إلى الشر، فهو كعود الثقاب تستطيع أن تشعل به الحرائق وتخرب به المجتمع ، كما تستطيع أن تولّد به طاقة هائلة ، تساهم في بث الحياة النابعة من التصور الإسلامى لها.

وتزيد أهمية هذا الجهاز وخطورته فى أنه يخاطب كافة فئات المجتمع ، بخلاف الأدوات الإعلامية الأخرى التى لا تتمتع بمثل هذه الصفة ، كالكتاب والصحيفة ، بل والسينما والمسرح اللذين يتطلبان مالاً للدخول والمشاهدة ، عكس التليفزيون ، فهو فى البيت ولن يتكلف المرء شيئًا لمشاهدته ، والتليفزيون يخاطب أكثر من ٥٠٪ من مجموع سكان مصر الأميين - ونقيس العالم العربى ذلك - ويعمل على تشكيل عقولهم ونظرتهم إلى الحياة ، وهذا يسوقنا إلى ما يلى :

التليفزيون والقراءة :

لو اطلعنا على إنتاج الكتب فى مصر - التى تعد منارة الثقافة العربية - نقرأ ما يلى: فى عام ١٩٧٠م كان عدد عناوين الكتب الجديدة الصادرة (٢١٤٢) عنوانا ، وفى عام ١٩٨٠م انخفض إلى(١٦٨٠)، وفى عام ١٩٩٢م زاد الانخفاض إلى (١٥٤١) !!

وأبرز ما نلاحظه فى هذا الإحصاء التعاقبى ، هو التراجع الكبير فى إنتاج الكتاب الجديد فى مصر ، فالعناوين الجديدة التى بلغت (٢١٤٢) عنوانًا مطلع السبعينيات وقت بدء انتشار التليفزيون ، تراجعت بعد عشر سنوات إلى(١٦٨٠) عنوانًا مع مطلع الثمانينيات، وها هى تشهد تراجعًا آخر يصل بها إلى(١٤٥١) عنوانا جديدًا فقط فى بداية التسعينيات ، أى أن هذا التراجع فى إنتاج الكتب خلال عقدين بلغ ٣٢ ٪ أى نسبة الثلث ، مع أنه كان من المفروض أن يزيد بنسبة ١٠٠٪ ، أى بنسبة الضعف؛ نظرًا لتضاعف نسبة عدد السكان فى مصر خلال هذه الفترة ، فضلاً عن انتشار التعليم الأساسى .

ومصر فى هذا نموذج يصدق على المنطقة العربية من لبنان إلى الصومال ، حيث لم يتعدَّ إنتاج العالم العربى من الكتب عام ١٩٨٩م (٧ ٪) من الإنتاج العالمى ، حيث صدر فى العالم العربى - كما ورد فى تقرير لليونسكو - أن الكتب العربية الصادرة عام ١٩٦٥م بلغت (٥١٩٩) كتابًا عام ١٩٦٥م وقت بدء انتشار التليفزيون، انخفضت بنسبة تزيد على ٤٠ ٪ من الإنتاج عام ١٩٨١م حيث بلغت (٢٨٥٠) كتابًا !!

إذا عقدنا مقارنة بين انتشار كل من الكتاب والتليفزيون ، نلحظ التراجع الكبير فى

إنتاج الكتاب ، يتزامن ذلك مع انتشار كبير لجهاز التليفزيون ، حيث تزحف المشاهدة التليفزيونية بسرعة فائقة ، وتتراجع عادة القراءة والمطالعة ، ويقل نتيجة لذلك الإبداع والابتكار ؛ لأن القراءة كعادة ثقافية هى تمرين لعقل الإنسان ، فى حين أن المشاهدة التليفزيونية هى دغدغة للحواس أساسا ، فالمسافة المعرفية كبيرة بين مصدر الثقافة التليفزيونية ، ومصدر الثقافة الكتابية .

نموذج القدوة فى التليفزيون :

نموذج القدوة من أهم الصور الذهنية التى يمكن أن يقدمه التليفزيون بالنسبة لطفل ، فإذا ما تم حُسن اختيارها كانت آثارها إيجابية ، وإذا ما أسيء الاختيار كانت آثارها سلبية .

فالتليفزيون يعتبر أحد العوامل الهامة ـ إلى جانب الأسرة والمدرسة ـ فى تنمية الطفل وتنشئته الاجتماعية والأخلاقية والدينية .

ونماذج القدوة يمكن أن تكون نماذج إيحابية ، ويمكن أن تكون نماذج سلبية ، فمنها المقبول ، ومنها المرفوض .

فنموذج الرجل الخارق للعادة ، أو « السوبرمان » التى تحفل به برامج الأطفال فى التليفزيون ، نموذج مرفوض ؛ لأنه يستخدم فى القتل والدمار وغرس قيم لا يقبلها المجتمع ، ومن ذلك ما يقدم فى التليفزيون المصرى من برامج عديدة لا تحسن اختيار المادة المقدمة ، وربما تلجأ للترجمة غير السليمة التى لا تنقل السياق التربوى والفنى للنموذج المنشود تقديمه للأطفال ، بل قد تؤدى إلى تصوير العنف تصويرًا مبهرًا ، وغرس قيم مادية لا تتناسب مع مقومات المجتمع المصرى والعربى [١] .

وفى إطار الندوات التى ينظمها مهرجان سينما الطفل الثالث بالقاهرة ، أقيمت ندوة توظيف التراث الشعبى فى سينما الطفل ، وشارك فيها مجموعة من المتخصصين والخبراء ، حيث وجهوا انتقادات حادة للأفلام والمسلسلات الأجنبية التى تقدمها التليفزيونات العربية لأطفالنا ، حيث إن أبطالها ، مثل « توم وجيرى » يرسخون أساليب مدمرة فى عقول أطفالنا باستخدام العنف والخداع ، بخلاف أبطال الحكايات الشعبية العربية الذين يحملون قيمًا إيجابية ، ومن ذلك كتاب الدميرى « حياة الحيوان » الذى ضم مادة خصبة يمكن توظيفها ـ وغيرها من التراث العربى والإسلامى ـ فى برامج الأطفال [٢] .

وقد تبين من دراسة علمية تحليلية على المضمون الأجنبى المذاع فى التليفزيون

---

(١) د . سامية أحمد على : نماذج القدوة فى برامج التليفزيون ، هيئة الكتاب ، ص ٢٨ .

(٢) صحيفة صوت الكويت : بتاريخ ٩ / ٩ / ١٩٩٢م .

المصرى : أن القيم السلبية تشكل(٤٦,٧٪) من مجموع القيم التى عكسها هذا المضمون ، حيث يركز على دور الفرد بصفة أساسية ، دون النظر إلى المجموع ، وتستخدم القوة والعنف كوسيلة لحل الصراع ، وتزداد خطورة هذا المضمون على المشاهدين خاصة الأطفال،حيث تركز على جوانب العنف والجريمة ، ويروج لجوانب الانحراف الخلقى ، ويبرز ضعف الروابط الأسرية وانفصال الآباء عن الأبناء (١) . ومن ذلك يتبين لنا بوضوح مدى أهمية نماذج القدوة فى البرامج التليفزيونية ، خاصة تلك الموجهة للأطفال ، فى إطار التنشئة الاجتماعية والأخلاقية .

التليفزيون والحجاب :

غنى عن البيان أن المسؤلين فى مبنى التليفزيون يقفون موقفًا رافضًا وعنيدًا من الحجاب؛ الذى فرضه الله تعالى من فوق سبع سموات ، يتجلى ذلك واضحًا فى مذيعات معروفات للقاصى والدانى ،تم إبعادهن لا لجريمة ارتكبنها ، أو رشوة أخذنها ، بل ـ ياللهول ـ لأنهن ارتدين الحجاب ، ومنهن : المذيعة عفاف عبد الرازق ، التى كانت تقدم برنامجًا جماهيريًا ناجحًا ؛ هو « مجلة التليفزيون » ، وكذلك المذيعة ـ والممثلة المعتزلة ـ منى جبر ، ومذيعتا برامج الأطفال الشهيرتان : كاميليا العربى ـ شقيقة الممثل المعتزل محمد العربى ـ وعفاف الهلاوى ، التى كانت تقدم برنامجًا شهيرًا هو «سينما الأطفال » .

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن موقف القيادات الإعلامية فى مصر ـ التى ينص دستورها الرسمى فى مادته الثانية على أن الإسلام دين الدولة الرسمى ، والشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيس للتشريع ـ من هذا التحدى الخطير لأصل أصيل من أصول الدين ، ولمظهر هام من مظاهر التدين ؟!

فإلى متى يبقى المسؤلون فى التليفزيون بمعزل عن واقع المجتمع المصرى ،هذا المجتمع الذى اتجهت الغالبية الساحقة إلى الحجاب الذى فرضه الله ؟!

البرامج الدينية :

البرامج الدينية التى تعرض فى التليفزيون ـ رغم كونها ليست على المستوى المطلوب من حيث : الإعداد والتقديم والإمكانات، وتناول الموضوعات الأكثر أهمية وأولوية ـ

---

(١) عدلى سيد رضا : تدفق البرامج من الخارج عبر تليفزيون مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة فى كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، نقلاً عن : مجلة الوعى الإسلامى ، عدد (٣٤١) ص ٦٧ .

فإنها تُعرض فى أوقات ميتة ، بحيث لا يستطيع معظم الناس متابعتها ،حيث تعرض معظمها فى فترة الظهيرة ،وهى فترة ينشغل الناس فيها بالعمل ، ويكون الأطفال فى المدارس ، والشباب فى الجامعات ، وربات البيوت ينهمكن فى إعداد طعام الغذاء ، هذا هو الغالب ، فمن يشاهد هذه البرامج ؟!

فضلا عن ذلك فإن المؤسف حقًا هو أن هذه البرامج الدينية التى يبثها التليفزيون المصرى ،لا تشغل سوى من ٥ ـ ٦ ٪ من مساحة ما يعرض على شاشته ، وذلك باعتراف المسؤولين بالتليفزيون فى الإحصائيات الرسمية السنوية عن التوزيع الموضوعى للبرامج والموضوعات المختلفة .

وفى عصر القنوات المتخصصة ، نتساءل عن مدى استجابة القيادات الإعلامية إلى نداءات الأزهر الشريف وجامعته ، وتوصيات العديد من الندوات والدراسات ، بالمطالبة بـ « قناة دينية » على غرار إذاعة القرآن الكريم .

وفى الحقيقة ،فإن هذه القناة تمثل مطلبًا ملحًا فى ظل الظروف والأحداث الراهنة التى تمر بها مصر والمنطقة العربية والعالم الإسلامى ، وهذه القناة إذا كتب لها أن ترى النور يمكن أن تكون صورة مُشْرِقة ،مشرِّفة لمصر الإسلامية وستكون منافسة قوية لجميع القنوات الفضائية .

وإذا كانت الدولة ـ على لسان المسؤولين فيها ـ تضج بالشكوى من آن لآخر من شيوع ظاهرة التطرف فى الدين ، والانحراف عن الدين أيضا ،فإنه يمكن عن طريق هذه القناة ترشيد أفكار الشباب ، هذا فضلاً عن تناولها لقضايا الدعوة الإسلامية، والحضارة الإسلامية ، والأقليات الإسلامية فى العالم .



الفصل الثالث

الغناء والموسيقى

- سماع الغناء والموسيقى.
- والعرب والغناء .
- الغناء والموسيقى بين الإباحة والتحريم .
- موقف السلف الصالح من الغناء .
- ضوابط الغناء .
- قيود على إباحة الغناء .

سماع الغناء والموسيقى

تعريف الغناء [1] :

الغِناءُ : (بالكسر والمد) هو رفع الصوت مطلقًا ، يقال : غنَّى بالرجل وتغنى به : إذا مدحه أو هجاه ، وتغنَّى بالمرأة : إذا تغزل بها وأظهر محاسنها .

قال ابن الأثير فى النهاية ، وابن منظور فى اللسان : كل من رفع صوته ووالاه ، فصوته عند العرب يسمى غناء .

والغَناء :(بالفتح والمد) الإجزاء والكفاية ، يقال :رجل مغنى ، أى مجز كاف ، وبالكسر والقصر (الغِنى) ضد الفقر .

ويطلق الغناء (بالمد والكسر) : على الترنم الذى تسميه العرب « النَّصب »، وعلى الحِداء (بالمد والكسر) المعروف عند العرب،وعلى مجرد الإنشاد، ففى حديث عائشة : وعندى جاريتان تغنيان بغناء يوم بعاث . أى: تنشدان الأشعار التى قيلت يوم بعاث .

ويطلق الغناء على التمطيط والتلحين بالأشعار على النغمات الموسيقية ،وإذا أُفرد : فالمراد به هذا الأخير ، وهو الذى يسمى فاعله مغنيًا .

تعريف الموسيقى :

الموسيقى هى:الإيقاع ، فما هو الإيقاع إذن وما الدور الذى يقوم به فى الموسيقى؟!

يجيبنا عن هذا الدكتور فؤاد زكريا [2] : « تشتق كلمة الإيقاع فى اللغات الأوربية من فعل بمعنى ينساب أو يتدفق ، وفى اللغة العربية يرجح أن لفظ الإيقاع مشتق من «التوقيع » ، وهو نوع من المشية السريعة ، إذ يقال « وقَّع الرجل » أى: مشى سراعًا مع رفع يديه ، ومن المعروف أن مشية الإنسان من أهم الأصول الحيوية التى يرجع إليها الإيقاع ، ولكن الأهم من ذلك هو فكرة الحركة بوجه عام ، إذ إنها تظهر فى الأصلين اللغويين العربى واليونانى معًا : فالانسياب حركة ، والمشى بدوره حركة ، وفى ذلك

---

(١) أبو بكر الآجرى : تحريم النرد والملاهى ، تحقيق محمد إدريس ، دار إحياء السنة ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) د . فؤاد زكريا : مع الموسيقى، هيئة الكتاب ١٩٨٥م ، ص ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ بتصرف .

دليل قاطع على الارتباط الوثيق بين الإيقاع والحركة كما تشهد بذلك اللغة ذاتها .

وقد تحدث أفلاطون عن الإيقاع على نحو يوحى بأنه يعتمد أساسًا على الحركة ، فقال : « إنك تستطيع أن تميز الإيقاع فى تحليق الطيور ، وفى نبض العروق ، ومقاطع الكلام » .

وهناك صلة من نوع خاص بين الموسيقى والشعر ، ربما كانت أقوى من صلة الموسيقى بأى فن آخر ؛ ذلك لأن الشعر فن صوتى الأداء ، ووسيلة تذوقه هى الاستماع ، والإيقاع أو « الوزن » يقوم فيه بدور أساسى.

والحق أن العلاقة بين الموسيقى والشعر تبلغ من التشابك حدًا ، أصبح من العسير معه أن يستقر الرأى حول مسألة تحديد أيهما يُرد إلى الآخر ؛ ذلك لأن الارتباط بين الموسيقى والشعر من حيث الإيقاع ، وثيق إلى أبعد الحدود ، فالوزن الشعرى هو أساس الإيقاع الموسيقى ، بحيث يمكن أن نصف الموسيقى بأنها إيقاع شعرى .

وقد كانت هذه الصلة الوثيقة بين الموسيقى والشعر هى التى أدت إلى امتزاجها منذ أبعد العصور ، فالفن الغنائى الذى هو فن جامع بين الموسيقى والشعر ، أقدم من الفن الموسيقى الخاص ، والصوت البشرى ـ مصوغًا فى القالب اللغوى ـ كان هو أداة التعبير عن المعانى الموسيقية ، قبل أن يُستعان بالآلات فى أداء مهمة نقل المشاعر الموسيقية إلى نفوس الآخرين .

«والواقع أن الغناء يؤدى وظيفة مزدوجة فى الموسيقى ، فهو من جهة يضفى على الموسيقى « الخالصة » معنى محددًا مستمدًا من اللغة المعتادة ، ومن جهة أخرى يؤكد عنصر الإيقاع بأن يضيف أوزان الشعر وإيقاع الكلمات إلى دقات النغم ونبض الأصوات، وربما كان هذا السبب الأخير هو أقوى العوامل التى أدت إلى دعم الروابط بين الموسيقى والكلمات » .

ومن التعريفات التى ذكرها بعض الفلاسفة وأرباب الموسيقى لها : أن الموسيقى هى المحاكاة المباشرة للحس الخلقى ـ أنها التناسب فى حركة الأصوات ـ أنها بساطة علم الأصوات ـ أنها ترجمة الانطباعات والعواطف إلى صوت .

تعريف ونشأة السماع :

« لفظ السماع عرف فى صدر الإسلام ، وكان يقصد به سماع القرآن وأغانى ،

الحجيج، والزهديات التى ينشدها الزهاد فى الحث على نبذ الدنيا والتشويق إلى الجنة ، غير أن هذا المفهوم لم يلبث أن تطور عند الصوفية ، بحيث أصبح يعنى الغناء والموسيقى والرقص.

والسماع من الظواهر التى تلفت النظر فى التصوف، وقد دخل السماع التصوف فى وقت مبكر ، وكثرت فيه أقوال شيوخ الصوفية وأباحوه، وعده بعضهم سمة من سمات الصوفى ،فقد سئل أبو الحسن النورى عن الصوفى ، فقال: « من سمع الأسماع ، وآثر الأسباب » .

«ومن المرجح أن سماع الصوفية كان تطورًا طبيعيًا لحلقات الذكر ، فقد كان الصوفية يهتمون بالذكر ويحثون المريدين على الانشغال به فى أوقات فراغهم ، والمداومة عليه فى خلواتهم ، ثم تطور هذا اللون من الذكر الفردى إلى لون جماعى ، فكانوا يعقدون حلقات الذكر ويرددون خلالها بعض العبارات الدينية ترديدًا موزونًا ، ثم لم تلبث هذه العبارات أن تطورت إلى نوع من الأناشيد والأغانى الدينية ، وبمرور الوقت استبدلت هذه الأناشيد بالأشعار الغزلية ، التى ينشدها القوالون فى حلقات السماع على مسمع من الصوفية ، فيفسرها هؤلاء تفسيرًا يتلاءم مع مقاصدهم ، وقد يصحب ذلك العزف على بعض الآلات ،مما يثير الطرب والنشوة فى المستمعين ، فتمتلكهم حال من الوجد ،ويفقدون السيطرة على أجسامهم ، فتهتز فى حركات تشبه الرقص ، وكثيرًا ما كانت مجالس السماع تنتهى بالصراخ وتمزيق الخرق » (١) .

سماع القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو أولى وأفضل ما يمكن أن يُسمع، فبسماعه تطمئن القلوب ، وتهدأ الجوارح ، والطبع السليم لا يمل من سماعه وقراءته ، حتى أن مشركى مكة كانوا يتخفون ليلاً لسماعه ، وكان منهم عتبة بن ربيعة الذى خر مغشيًا عليه ذات مرة بعد سماعه للقرآن ، وقال عمرو بن هشام (أبو جهل) بعد سماعه للقرآن : « لقد علمت أن هذا ليس من كلام المخلوقات » ،ومشهور قول الوليد بن المغيرة بعد سماعه للقرآن : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه » .

---

(١) الهجويرى : كشف المحجوب ، جـ٢، ترجمة وتعليق : إسعاد قنديل ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م ، ص ٦٣٨ ـ ٦٤١ .

وليست أسماع الإنس هى التى استلذت بالقرآن فحسب، بل وكذلك أسماع الجن ، فقد جاؤوا فوجًا فوجًا لسماع القرآن من النبى ﷺ : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ﴾ [الجن] .

فالإنس والجن مأمورون بالاستماع إلى القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال :٢] .

وقد ذم الله من لم يستمع إلى هدى القرآن العظيم : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة :٧] ، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [الملك] .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن مسعود:«اقرأ »ـ أى:اقرأ وأسمعنى القرآن فقال : أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال الرسول الكريم :« أنا أحب أن أسمع من غيرى » ، وهذا دليل على أن المستمع أكمل حالاً من القارئ ؛ لأن القارئ إما أن ينطق عن حال أو عن غير حال ، والمستمع لا يستمع إلا بحال ؛ لأن فى النطق نوع من التكبر ، وفى الاستماع نوع من التواضع .

فعظات القرآن أطيب العظات ، ولفظه أوجز من كل الألفاظ ، وأمره ألطف من جميع الأوامر ، ونهيه أشد زجرًا من جميع النواهى ، ووعده أكثر اجتذابًا للقلب من كل الوعود ، ووعيده أشد صهرًا للروح من كل وعيد ، وقصصه أكثر إشباعًا من كل القصص ، وأمثاله أفصح من جميع الأمثال ، وقد صاد سماعه آلاف القلوب ، وأغارت لطائفه على آلاف الأرواح ، يذل أعزة الدنيا ، ويعز أذلتها ، وعندما سمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن أخته وصهره أسلما ، قصدهما سالا سيفه ، وهيأ لقتلهما ، وأخلى قلبه من حبهما ، حتى أكمن الله تعالى عسكرًا من لطفه فى زوايا سورة طه ، وإلى أن جاء إلى الدار كانت أخته تقرأ: ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) ﴾ [طه] ، فصارت روحه صيد دقائقها ؛ وقلبه رهين لطفها ، فسلك طريق الصلح وخلع رداء الحرب ، وترك المخالفة إلى الموافقة :

وسطية الإسلام وترويح القلوب :

خلق الله تعالى الإنسان ، وأودع فيه حب الملذات والطيبات وزينات الحياة الدنيا،

التى خلقها الله للإنسان لكى يستمتع بها ، من الروائح الزكية ، والمناظر الجميلة كالمياه الصافية ، والخضرة اليانعة ، والوجه الحسن الذى تنبسط به الأسارير، فتترك هذه النعم الإلهية أثرًا طيبًا فى نفسه .

ولا يستقيم فى حكمة الله أن يخلق ويسخر للإنسان هذا الكون ؛ الفسيح المتسع الأرجاء بما فيه من آيات الجمال والجلال ، وأن يخلق الإنسان بالغريزة والعاطفة التى تستشعر هذا الجمال ، ثم يكافح هذه العاطفة ويمنعها من الاستمتاع الحلال بمباهج الحياة الدنيا .

إن حكمة الله تقتضى ـ فحسب ـ رد هذه العاطفة إلى حد الاعتدال والتوسط، إذا جاوزت هذا الحد ، بحيث تكون وسطًا بين الإفراط والتفريط .

ومن الخير أن نعلم شيئًا من منازع الطبيعة الإنسانية التى لا يصح أن تقاوم ؛ لأنه لا معنى لمقاومتها ، والغناء بعض هذه المنازع التى ترتاح إليها النفس ، وتسلم إليها الجماهير قيادها ، وتجد فيها متنفسًا لعواطفها المكبوتة ، والكثرة العظمى من الناس يصغون إلى الأنغام المتسقة والأصوات الطروب ، ويتفتح المستعصى من مشاعرهم على هذه الأصداء الشجية أو المرحة ، وربما نسوا متاعبهم وتجدد نشاطهم واستأنفوا السير الجاد فى مواكب الحياة ، كما تستأنف الإبل اندفاعها فى قلب الصحراء على حداء القائد اللبيب ، وقد فهم قادة الأمم هذه الطبيعة ، فاستغلوا الأغانى فى سبيل تدعيم نهضتهم والتمكين لها من أفئدة الناس [1] .

والغناء ظاهرة إنسانية منذ القدم ، تشترك فيها جميع الأمم ، فليست هناك أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، ليس له من الغناء نصيب ؛ ذلك لأنه فطرة إنسانية .

وقد تساءل ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » :« هل خلق الله شيئًا أوقع للقلوب ، وأشد اختلاسًا للعقول من الصوت الحسن ؟! إن صنعة الغناء هى مراد السمع ،ومرتفع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس » .

وقبله قال أفلاطون :« من حزن فليسمع الأصوات الطيبة ، فإن النفس إذا حزنت خمد نورها ، وإذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد » .

(١) محمد الغزالى : من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى ، دار الكتب الحديثة ، ص ٢٩٨ .

وذهب الجاحظ إلى القول : « أمر الصوت عجيب ، وتصرفه فى الوجوه أعجب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط السرور ، فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق » .

ويرى بعض الأطباء أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق ، فيصفو له الدم ، وتنشرح له النفس ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ، وإن لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نساء ولا صيد إلا وفيها معاناة للبدن ، ومشقة على الجوارح ما خلا السماع ، فهذا يكفى !

إن أهل الصناعات إذا خافوا الملل والفتور ترنموا بالألحان ، وليس من أحد كائنًا من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ، وكثير من الناس يحبون الغناء ، ويطربون لسماعه ، وينشطون لإيقاعه ، ويستعينون به على إنجاز أعمالهم ، ولاسيما المضنى منها ، فالملاح الذى يزجى قاربه فى النيل ، والفلاح الذى يلقى بشادوفه فى الماء ، والجمَّال الذى ينقل الأثقال ، والبناؤون . . . وغيرهم ، إن كل هؤلاء لا يفترون برهة عن الغناء والشدو، وهم يكافحون فى سبيل القوت .

وفى « الإحياء » يقول الإمام الغزالى : « اللهو مروح للقلب ، ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها إعانة لها على الجد ، فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة ؛ لأن عطلة يوم تبعث النشاط فى سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوت فى سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات ، فالعطلة معينة على العمل ، واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض والحق المر إلا نفوس الأنبياء ، عليهم السلام ، فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغى أن يكون مباحًا ، ولكن ينبغى ألا يُستكثر منه ، كما لا يستكثر من الدواء ، ولله تعالى سر فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرًا عجيبًا ، فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ، ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات ، ولا ينبغى أن يظن أن ذلك لفهم معانى الشعر ، بل هذا جار فى الأوتار ، حتى قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ليس له علاج ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية، زائد فى غلظ الطبع

وكثافته على الجمال والطيور ، بل على جميع البهائم ؛ فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة » .

وتأثير الغناء والنغمات لا يكون قاصراً على تحريك المشاعر ، وتهييج الأحاسيس ، وترويح القلوب بالنسبة للإنسان فحسب،بل بالنسبة للحيوان أيضًا ، فبالصوت المنغَّم الشجى ، تُسر الطيور فتتراقص أو تشدو، وبالصوت المغنَّى يدخل الرعب روع الأسود ، وكما يقول « أرسطو » :« إن الأيائل تُصاد بالصفير والغناء ، وهى لا تنام مادامت تسمع ذلك من حاذق الصوت ».

وثمة حيوانات أخرى تحب الغناء والموسيقى حبًا جمًا ، وتطرب لها أيما طرب ، فالخيل تشرب بالصفير ، والثعابين تخرج من مكامنها على صوت الناى ، وبالغناء الشجى تتداعى أنواع السمك ، فتدخل حظائر الصيد ، وفى بعض نواحى العراق ، يتخذ صيادو السمك فى جوف الماء حفائر ثم يوقعون عندها بأصوات شجية ، فيجتمع السمك فى الحفائر ، فيسهل صيده ، وكانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته .

ويقول الغزالى فى « الإحياء » : « والجمل مع بلادة طبعه ، يتأثر بالحداء تأثرًا يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه ، فتراها إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال ، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها ، وتصغى إلى الحادى ، ناصبة آذانها وتسرع فى سيرها ، حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها ،وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل ، وهى لا تشعر به لنشاطها ، فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى رضي الله عنه قال :« كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافنى رجل منهم ، وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبدًا أسود مقيدًا بقيد ، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدى البيت ، وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل ، كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام : أنت ضيف فهل لك أن تشفع فىَّ إلى مولاى ؟ فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ، فعساه يحل القيد عنى ، قال : فلما أحضروا الطعام امتنعت ، وقلت: لا آكل ما لم أُشفَّع فى هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد أفقرنى ، وأهلك جميع مالى ، فقلت : ماذا فعل ؟ فقال: إن له صوتًا طيبًا ، وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالاً

ثقالاً ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ، من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ،ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ، ووقعت أنا على وجهى ، فما أظن أنى سمعت قط صوتًا أطيب منه » .

العرب والغناء

لعل من المفيد ـ فى مجال التعريف بصلة العرب بالغناء ـ أن نعرض لما ذكره العلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون فى « مقدمته » ، حيث يقول :

« كان للعرب أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية ، على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة ، لا ينعطف على الآخر ، ويسمونه البيت ، فتلاؤم الطبع بالتجزئة أولاً ، ثم تناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادئ ، ثم بتأدية المعنى المقصود ، وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به ، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره؛ لأجل اختصاصه بهذا التناسب ، وجعلوه ديوانًا لأخبارهم ، وحكمهم وشرفهم ، ومحكًا لقرائحهم فى إصابة المعانى وإجادة الأساليب .

واستمروا على ذلك ، وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف ، قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى ، إلا أنهم لم يشعروا بما سواه ؛ لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علمًا ، ولا عرفوا صناعة ، وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تغنى الحداة منهم فى حداء إبلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم ، فرجَّعوا الأصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناءً ، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيرًا ـ بالغين المعجمة والباء الموحدة ـ وعللها أبو إسحاق الزجَّاج بأنها تُذكّر بالغابر وهو الباقى ، أى : بأحوال الآخرة ، وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة ، كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب «العمدة» وغيره ، وكانوا يسمونه السِّناد ، وكان أكثر ما يكون منهم فى الخفيف الذى يُرقص عليه ، ويُمشى بالدف والمزمار فيضطرب ويستخف الحلوم، وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ، ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع .

ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم ، فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه ،وكانوا من البداوة والغضاضة

على الحال التى عرفت لهم ، مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ ، ما ليس بنافع من دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئًا ما ، ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة ، والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرّفْه بما حصل لهم من غنائم الأمم ،صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ ، وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم .

وظهر بالمدينة « نشيط » الفارسى ، «وطويس» ، و«سائب بن جابر» مولى عبيد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ، ثم أخذ عنهم« معبد» وطبقته و«ابن شُريح» ونظراؤه ، وما زالت تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس؛ عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق وابنه حماد ، وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد ، وأمعنوا فى اللهو واللعب، واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يُترنَّم بها عليه ، وجعل صنفًا وحده أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرُّون ويفرُّون ، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو ، وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق ، وانتشر منها إلى غيرها ، وكان للموصليِّين غلام اسمه « زرياب» أخذ عنهم الغناء فأجاد ، فصرفوه إلى المغرب غيرةً منهم، فلحق بالحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات ، وأحلَّه من دولته وندمائه بمكان،فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف،وطما منها بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العُدوة بإفريقية والمغرب،وانقسم على أمصارها ، وبها آلاف منها صُبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها،وهذه الصناعة ـ أى صناعة الغناء ـ آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع؛لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهو أيضًا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه » .

ومن آلات الطرب التى عرفها العرب قبل الإسلام : المزمار ، والمعزف ،والقصبة، والمزهر، والدف ، وقدْ قدَّر ملوك الفرس للعرب مواهبهم الموسيقية ، فكانوا يرسلون أبناءهم إلى مكة ؛ لتعلم الغناء بين ما يتعلمون من الفنون ، وكان العرب فى جاهليتهم

يتنافسون فى صياغة الشعر وتوقيعه وتلحينه وحسن إلقائه،ومن هنا نشأت سوق عكاظ ، وما أدت إليه من وجود المعلقات السبع ، ومن المعروف عند علماء التربية أن تلحين الشعر وتوقيعه يساعد على الحفظ ؛ ومن هنا كانت الموسيقى ولا تزال من أهم وسائل تحصيل العلوم .

وأول من غنى فى الإسلام « طويس » ، وأول صوت له فى الإسلام ، هو .

قد برانى الشوق حتى كدت من شوقى أذوب

ولولع العرب بالشعر أقبلوا على الغناء والموسيقى ، وكأنهم الظماء رأوا المنهل العذب ؛ لأن تركيب الشعر يدعو إلى ترديده وفق نغمة متزنة .

ومن طريف ما يحكى « أن أبا النصر الفارابى وفد إلى دمشق على سيف الدولة الحمدانى ، وهو إذْ ذاك أميرها ، قيل: إنه لما دخل عليه وقف ، فقال له سيف الدولة: اجلس ، فقال : حيث أنا أو حيث أنت ؟ فقال له : حيث أنت ، فلم يفعل ، بل تخطى الرقاب حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه حتى أخرجه عنه ،ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين فى كل علم وفى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقول ، وصرفهم سيف الدولة ، وخلا به ، فقال له : هل لك أن تُسمع ؟ فقال : نعم ، فأمر سيف الدولة بإحضار كل ماهر فى الموسيقى ، فخطَّأ الجميع ، فقال له سيف الدولة : هل تحسن هذه الصنعة ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه كيسًا أخرج منه عيدانًا ، وركبها ولعب بها فضحك كل من فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبًا آخر فبكى كل من فى المجلس ، ثم فكها وغيَّر تركيبها وحرّكها فنام كل من فى المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نيامًا وخرج !» .

والفارابى هو الذى ابتدع آلة القانون ، وكان منفردًا بنفسه ولا يجالس الناس ، وكان يؤلف موسيقاه فى الحدائق ، وعند الجداول والأنهار . وكان أزهد الناس فى الدنيا ، ولا يحفل بأمر مسكنه وملبسه ، وتوفى عام ٣٣٩هـ بدمشق ، بعد أن عمَّر زهاء ثمانين سنة ، وكُتب الفارابى من أهم المؤلفات فى الموسيقى العربية .

هـذا بعض خطر الموسيقى والغناء فى تاريخ العرب ، فى العصور الإسلامية المختلفة ـ وقبل الإسلام ـ وخاصة فى عصر الدولة العباسية ، ومن قبل ذلك فتح العرب الأندلس ، وإليها انتقلت الموسيقى العربية ، وفيها تطورت تطورًا عظيمًا ، إذا

أخرج الأندلسيون الموشحات ولها أنغام كثيرة ، فظهرت آلات واستخدمت نغمات عديدة، كما استحدثوا صوتًا لم يكن للعرب به عهد ، ومن أشهر الموشحات :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلمًا في الكرى أو خلسة المختلس

الغناء والموسيقى بين الإباحة والتحريم

يعد موضوع الغناء والموسيقى من أكثر الموضوعات التى اختلفت الأحكام حولها ، وقد تباينت آراء العلماء الخائضين فى هذا الموضوع إلى أربعة آراء : رأى يستحسن ، ورأى يبيح ، ورأى يكره ، ورأى أخير يحرم ، والقائلون بهذه الآراء ، منهم من أطلق حكمه ، ومنهم من قيده بشرط .

وقد استند كل رأى من هذه الآراء إلى أحاديث وآثار وتأويل لما ورد فى القرآن الكريم عن « اللهو » ، إلا أن القائلين بالاستحسان والإباحة ينقضون آراء القائلين بالتحريم والكراهة ، فيذهبون إلى أنه ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ولا معقولهما من القياس والاستدلال ، ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات ؛ لأن الصوت الطيب من حيث هو طيب لا يحرم ، بل هو حلال ، لأنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع ، ولم يقل أحد: إنه حرام؛ لمجرد أنه صوت طيب ، وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة ليتوصلوا إلى أنه لا يصح منها شىء .

وممن توصل إلى هذه النتيجة ، الفقيه الحنفى عبد الغنى النابلسى ـ أحد فقهاء القرن الحادى عشر ـ الذى قرر فى رسالة له بعنوان « إيضاح الدلالات فى سماع الآلات » : أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم ـ على فرض صحتها ـ مقيدة بذكر الملاهى ، وبذكر الخمر والقينات ، والفسوق والفجور ، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعلى ذلك فإن الحكم فى سماع الأصوات والآلات المطربة إذا اقترن بها شىء من المحرمات ، أو اتخذت وسيلة إلى المحرمات ، أو أوقع فى المحرمات كان حرامًا ، أما إذا سلم من ذلك فيكون مباحًا فى حضوره وسماعه وتعلمه ، وقد نُقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الفقهاء ، أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السمع البريئة من المجون والمحرم ، وذهب إلى هذا كثير من الفقهاء .

وسوف نستعرض فيما يلى موقف القرآن الكريم ، وموقف السنة النبوية ، وموقف كثير من فقهاء وعلماء الإسلام حول حكم الغناء والموسيقى .

اللهو فى القرآن الكريم :

فى لسان العرب : اللهو : ما لهوت به ، ولعبت به ، وشغلك ؛ من هوى وطرب

ونحوهما ، والملاهى : آلات اللهو ، وفيه القصب : كل نبات ذى أنابيب ، والقاصب: الزامر ،والقصَّاب : الزمار .

وفى المصباح المنير : أصل اللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، وألهانى الشىء أى: شغلنى .

وقد ورد لفظ « اللهو» فى القرآن الكريم، فى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦)** ﴾ [لقمان]،وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن لفظ « اللهو » فى هذه الآية يقصد به الغناء .

ويرى ابن حزم الأندلسى فى « المحلى » أن هذا الرأى لا يعدو أن يكون تفسير مفسرين،لم تثبت صحته فى حديث « صحيح » للنبى ﷺ،فهو ليس بحجة ملزمة ، ثم لو صح لما كان فيه متعلق ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ، وكل شىء يُقتنى ليُضَلّ به عن سبيل الله،فهو إثم وحرام،ولو أنه شراء مصحف وتعليم قرآن .

ويضيف ابن حزم : « إن نص الآية يبطل احتجاجهم بها ؛ لأن : ﴿**مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا** ﴾، من كانت هذه صفته كان كافرًا بلا خلاف إذا اتخذ سبيل الله تعالى هزوا ، ولو أن امرءًا اشترى مصحفًا ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزوا لكان كافرًا ، فهذا هو الذى ذم الله تعالى،وما ذم الله عز وجل من اشترى لهو الحديث ليتلهى به ويروح نفسه ،لا ليضل عن سبيل الله تعالى ، فبطل تعلقهم بقول كل من ذكرنا .

وكذلك اشتغل عامدًا عن الصلاة بقراءة القرآن ، أو بقراءة السنن ، أو بحديث يتحدث به ، أو بنظرٍ فى ماله ، أو بغناء ، أو بغير ذلك ، فهو فاسق عاص لله تعالى ، ومن لم يُضع شيئًا من الفرائض اشتغالاً بما ذكرنا فهو محسن .

ويقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)**﴾ [الجمعة] .

وسبب نزول هذه الآية ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائمًا يوم الجمعة ، فجاءت عير عن الشام ، فانفتل الناس إليها ، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً ، فأنزلت هذه الآية ، وأخرج الطبرى هذا الحديث عن جابر ، وفيه : أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب لهم الجوارى بالمزامير فيشتد الناس إليهم ، ويدَعون رسول الله

ﷺ قائمًا .

وفى هذا يقول ابن القيسرانى فى كتابه « السماع »: « فهذا عتاب الله عز وجل بهذه الآية، والله عز وجل عطف اللهو على التجارة، وحكم المعطوف حكم المعطوف عليه، وبالإجماع تحليل التجارة، فثبت أن هذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليه فى الجاهلية؛ لأنه غير محتمل أن يكون النبى ﷺ حرمه ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله عز وجل من ترك رسوله ﷺ قائمًا، وخرج ينظر إليه ويستمع، ولم ينزل فى تحريمه آية، ولا سنَّ رسول الله ﷺ فيه سنة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله » .

ويذهب البعض إلى تحريم « السماع » استنادًا إلى ذم الله تعالى له فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : ٣٥] ، والمكاء والتصدية هما: التصفيق بالأيدى ، والصفير ، ونحو ذلك .

وقد ورد فى « فتاوى ابن تيمية » فى « مسألة السماع » ، حول هذه الآية: « أن المقصود بالسماع فيها، سماع المشركين الذين كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت بالفم قُرْبة، ودينًا، ولقد عُرف بالاضطرار من دين الإسلام، أن النبى ﷺ لم يشرع لصالحى أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة، مع ضرب بالكف، أو ضرب القضيب، أو الدف، كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته ، واتباع ما جاء به من الكتاب والسنة، لا فى باطن الأمر ولا فى ظاهره ولا لعامى ولا لخاصى » .

فالذم والتحريم للسماع فى الآية، إنما كان لأن المشركين اتخذوا منه « قُرْبة ودينًا » ، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ورسوله .

واحتج البعض الآخر على تحريم الغناء ، بقوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) ﴾ [النجم] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير ، يعنى: السمد .

وفى « الإحياء » يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى كتاب « السماع » : « ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضًا ؛ لأن الآية تشتمل عليه !

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ، فهذا أيضًا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾ [الشعراء] وأراد به شعراء الكفار ، ولم يدل ذلك على تحريم

الشعر فى نفسه .

هذه هى النصوص القرآنية التى استند إليها بعض المفسرين فى تحميلها ما يؤيد نظرتهم فى تحريم الغناء ، ولكن ـ وكما تبين ـ هذه النصوص لم تتعرض بالتحريم للغناء ـ تصريحًا أو تلميحًا ـ إلا إذا اقترن بفعل محرم ، كأى أمر آخر .

السنة النبوية والغناء :

الأحاديث النبوية الواردة فى الغناء ، نوعان :

النوع الأول :

وهو أحاديث فى إباحة الغناء ، وهذه الأحاديث هى من قبيل « السنة الفعلية » أو « التقريرية »، التى لا تحتمل أى لبس أو غموض أو تأويل .

فعن عائشة أم المؤمنين ﵂ : أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان فى أيام منى،وتضربان ، ورسول الله مسجى بثوبه فنهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله عنه ، فقال : « دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد » رواه مسلم .

وعنها أيضًا ـ وفى رواية أخرى لمسلم ـ قالت : دخل رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه فقال : « دعهما » .

وفى « رسائل » ابن حزم : فإن قيل: إن أبا أمامة روى هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه ، فقال فيه : وليستا بمغنيتين ، قيل له : قد قالت عائشة : تغنيان ، فأثبتت الغناء لهما ، فقولها : وليستا بمغنيتين : أى ليستا بمحسنتين ، وقد سمع رسول الله قول أبى بكر : مزمار الشيطان ، فأنكر عليه ، ولم ينكر على الجاريتين غناءهما ، وهذه هى الحجة التى لا يسع أحد خلافها ولا يزال التسليم لها .

وعن عائشة ﵂ أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، ما كان معكم من لهو ، فإن الأنصار يعجبهم اللهو » البخارى .

وفى رواية أخرى لهذه الواقعة : أنكحت عائشة ذات قرابة لها رجلاً من الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ :« أهديتم الفتاة ؟ ألا بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم ، فحيانا وحياكم » رواه النسائى .

وفى حديث آخر عن السائب بن يزيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ،

فقال:«يا عائشة ، أتعرفين هذه ؟» قلت : لا يا نبى الله ، قال : «قينة بنى فلان ، تحبين أن تغنيك ؟ فغنتها » رواه النسائى .

أما الإمام أحمد ،فإنه يروى فى مسنده ، عن عبد الله بن عمير ـ أو عميرة ـ قال : حدثنى زوج ابنة أبى لهب ، قال : دخل علينا رسول الله ﷺ حين تزوجت ابنة أبى لهب ، فقال : « هل من لهو ؟» .

أما وقائع وروايات السنة العملية التى تحدثت عن الغناء فى مجتمع الصدر الأول ، على عهد رسول الله ﷺ دون أن يكون هناك جدل ولا اجتهاد يمنع منه ، فهى كثيرة جدًا فى كتب السيرة والحديث ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر .

عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا ، فرح أهلها ، وكانوا ينتظرون مقدمه لأيام عدة ، حتى ليروى البراء بن عازب ، فيقول : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء كفرحهم برسول الله ﷺ ، وصعدت ذات الخدور على الأسطح من قدومه ، يقلن :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

أما جوارى بنى النجار ، فلقد خرجن إليه ﷺ عندما بركت ناقته بباب أبى أيوب الأنصارى ـ من بنى مالك بن النجار ـ خرجن يضربن بالدفوف ، ويغنين :

نحن جوارٍ من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال لهن النبى ﷺ : « أتحببننى ؟ » قلن : نعم ، يا رسول الله ، فقال : «الله يعلم أن قلبى يحبكم » .

وفى إحدى الروايات: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوم الهجرة همَّ بزجر الجوارى عن الغناء ، فقال له الرسول :« دعهم يا أبا بكر ، حتى تعلم اليهود أن فى ديننا فسحة» .

فهو مَعْلم إذن من معالم الفسحة والمرونة التى يستجيب بها الإسلام لحاجات النفس الإنسانية ، وسبيل من سبل الترويح التى تنفى عن النفس الوحشة ، وتبرئها من عوامل الحزن والضيق .

وعندما شرع رسول الله ﷺ بعد أن استقر فى المدينة فى بناء المسجد ، كان يحمل مع الصحابة طوب اللبن ، مشاركًا فى البناء ، وخلال العمل كان ينشد مترنمًا :

هذا الجمال لا جمال خيبر   هذا أبرُّ بنا وأطهر

ومن الصحابة من كان ـ أثناء ذلك ـ يغنى أغانى العمل ، فيقول البعض منهم :

لئن قعدنا والنبى يعمل   فذاك منا العمل المضلل

وكان آخرون يترنمون :

لا يستوى من يعمر المساجدا   يدأب فيها قائمًا وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

ولقد صنع ذلك الأشعريون ـ قوم أبى موسى الأشعرى ـ عندما قاموا إلى المدينة ، فعن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقدم عليكم غدًا أقوام هم أرق قلوبًا بالإسلام منكم » ، قال : فقدم الأشعريون ، وفيهم أبو موسى الأشعرى ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون ، يقولون ـ فيما رواه الإمام أحمد :

غدًا نلقى الأحبه   محمدًا وحزبه

وحديث آخر يحكى كيف شهد رسول الله ﷺ « ندب » الجوارى ، على أنغام الدفوف ، تذكرة بالأبطال الشهداء فى وقائع الإسلام ، فعن أبى حسين ، قال : كان يوم لأهل المدينة يلعبون ، فدخلت على الربيع بنت معوذ بن عفراء ، فقالت : دخل علىَّ رسول الله ﷺ فقعد على موضع فراشى هذا ، وعندى جاريتان تندبان آبائى الذين قتلوا يوم بدر ، تضربان بالدفوف، فقالتا ضمن ما قالتا :

وفينا نبى يعلم ما فى غد

فقال النبى ﷺ : « أما هذا فلا تقولاه ، لا يعلم ما فى غد إلا الله عز وجل » رواه الإمام أحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها ـ وفى سنة عملية أخرى ـ تقول : « كان يوم عيد . يلعب السودان ـ أى الحبشة ـ بالدرق (الدرقة : الترس من جلود ، ليس فيه خشب ولا عقب) والحراب فى المسجد ، فإما سألت رسول الله ﷺ ، وإما قال : « تشتهين تنظرين » فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه ، خدى على خده ، يسترنى بثوبه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون ، فزجرهم عمر ، فقال النبى ﷺ : « أَمْنًا بنى أرفدة ، دونكم بنى

أرفدة » (وأرفدة : لقب الحبشة) وهنا يعطيهم الرسول الأمان ضد زجر عمر لهم ، وبشجعهم على مواصلة لهوهم حتى إذا مللت ، قال : « حسبك ؟ » قلت : نعم ، قال : « فاذهبى » رواه الشيخان .

فهنا أيضًا سنة عملية أقرت اللعب ـ التمثيل ـ المصحوب الغناء ، وفى بعض الروايات أنهم كانوا يغنون شعرًا ، يقول :

يا أيها الضيف المعرج طارقًا لـولا مـررت بآل عبد الدار

لولا مررت بهم تريد قراهم منعوك من جهد ومن إقتار

النوع الثانى :

وهو الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ ، والتى يستند إليها البعض فى تحريم الغناء ، إلا أن الفريـق المؤيـد لإباحـة الغناء يرى أن هـذه الأحاديث لا يُطمـأن إليهـا ؛وفقًا لعلـم «الجرح والتعديل » ، فهى مقطوعة النسب بالنبى ﷺ .

وممن ذهب هذا المذهب ، الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨ ـ ٥٠٧هـ) حيث يرى ـ كما جاء فى نهاية الأرب للنويرى: أن هذه الأحاديث وأمثالها احتج بها من أنكر السماع ، جهلاً منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فترى الواحد منهم إذا رأى حديثًا مكتوبًا فى كتاب جعله لنفسه مذهبًا ، واحتج به على مخالفه ، وهذا غلط عظيم ، بل جهل جسيم » .

وقد تتبع الإمام ابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ) الذى يطلق على مذهبه « المذهب الظاهرى » نظرًا لالتزامه ، وتمسكه الشديد بالسنة وبظاهر النصوص ـ تتبع ـ مأثورات تحريم الغناء ، وانتهى إلى مطاعن فى رواية هذه الأحاديث ، فقال ـ فى رسالة الغناء الملهى أمباح هو أم محظور ؟ : « . . . ولا يصح فى هذا الباب شىء أبدًا ، وكل ما فيه فموضوع ، والله لو أسند جميعه أو واحد منه فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ لما ترددنا فى الأخذ به ، فلا حجة فى الأخذ بهذا كله » .

وهذه بعض نماذج للأحاديث التى نقد ابن حزم بعض رواتها :

عن عائشة ﵂ أن النبى ﷺ قال : « إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » .

وفى رواة هذا الحديث : « سعيد بن أبى رزين عن أخيه ، وكلاهما لا يدرى أحد

من هما » .

ـ حديث محمد ابن الحنفية عن على بن أبى طالب رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » ، ومنها : « واتخذت القينات والمعازف » ، جميع رواة هذا الحديث إلى يحيى بن سعيد لا يُدرى من هم ، ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد ابن الحنفية كلمة ولا أدركه » .

ـ حديث أبى أمامة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن ،وثمنهن حرام ، وقد أنزل الله ذلك فى كتابه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [لقمان :٦] والذى نفسى بيده ما رفع رجل عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت » .

فى رواة هذا الحديث : « إسماعيل بن عياش » وهو ضعيف ، والقاسم وهو مثله ضعيف .

ـ حديث أنس ، قال رسول الله ﷺ : «من جلس إلى قينة صُبَّ فى أذنه الآنُك يوم القيامة » ، أما هذا الحديث « فبلية !» لأنه عن مجهولين ، ولم يروه أحد قط عن مالك من ثقات أصحابه،والثانى عن مكحول عن عائشة ،ولم يلقها قط ، ولا أدركها ، وفيه أيضًا من لا يُعْرف ، وهو هاشم بن ناصح وعمر بن موسى ؛ وهو أيضًا منقطع ، والثالث عن أبى عبد الله الدورى ، ولا يُدْرى من هو » .

ـ حديث أبى أمامة : قال رسول الله ﷺ : « تبيت طائفة من أمتى على لهو ولعب ، وأكل وشرب ، فيصبحوا قردة ، وخنازير ، يكون فيها خسف وقذف ، ويبعث على حىّ من أحيائهم ريح فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم باستحلالهم الحرام ، ولبسهم الحرير ، وضربهم الدفوف ، واتخاذهم القيان » .

فى رواة هذا الحديث :« الحارث بن نبهان »،وهو لا يكتب حديثه، و« فرقد السبخى»، وهو ضعيف،«وسليم بن سالم،وحسان بن أبى سنان،وعاصم بن عمر»،وهم غير معروفين .

وهذه الأحاديث ـ وغيرها ـ التى توصل ابن حزم ـ كما رأينا ـ إلى أنها جميعًا معلولة ولا يمكن الاطمئنان إليها ، نقول حتى بفرض صحتها ، فإنها مقيدة بذكر الملاهى

والخمر والفسوق والمجون والفجور ، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك: « ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف »، فالتحريم هنا « للصورة كلها »، لاقتران المعازف بالمحرمات كالخمر ، ويؤكد هذا النظر حديث آخر : « يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، تضرب على رؤوسهم المعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض » ، فعلَّة تحريم المعازف هنا اقترانها بشرب الخمر .

فسماع الأغانى والموسيقى ليست محرمة فى حد ذاتها إلا إذا اقترنت بفسق ، أو كما قال بعض السلف : إذا كان « الغناء رقية للزنا » ، فالتحريم يقع إذا جرَّ الغناء أو الموسيقى إلى الحرام ، أو كان وسيلة إلى الفساد .

ولو كان الغناء والموسيقى من المحرمات فى حد ذاتها، لكانت آلات الموسيقى وكل ما يتصل بالغناء أموالاً غير مضمونة ، وقد ذهب ابن حزم إلى إباحة بيع المغنيات وشرائهن ، وكذلك آلات الموسيقى والمعازف والمزامير ، وضمان من أتلف شيئًا من ذلك لأنها مال .

وهذا نص ما أورده فى « المحلى » : « بيع الشطرنج والمزامير والمعازف والطنابير حلال كله ، ومن كسر شيئًا من ذلك ضمنه، إلا أن تكون صورة مصورة ـ تمثالاً مجسمًا ـ فلا ضمان على كاسرها ، وتضمين المعتدى على هذه الأشياء واجب ؛ لأنها مال من مال مالكها ، ويجوز بيع المغنيات وابتياعهن من الجوارى ، وأساس الجواز فى كل ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ولم يأت نص بتحريم بيع شىء من ذلك » .

أما حديث تحريم « بيع المغنية »، فقد ذكرناه ضمن الأحاديث التى نقضها ابن حزم واستدل ابن حزم على كون المعازف وآلات الموسيقى مالاً حلالاً بذكر رأى الإمام أبى حنيفة . الذى قال: «من سرق مزمارًا أو عودًا قطعت يده ، ومن كسرهما ضمنهما » .

فلو كانت آلات اللهو والموسيقى مما يدخل فى دائرة الحرام، لكانت من قبيل الأموال المهدرة، كالخمر مثلا، أما وقد جعلها الإمام أبو حنيفة مالاً مضمونًا فهى مال حلال .

وإذا كان مجتمع الخلافة الراشدة قد عرف « المجون والتمَجُّن » وميَّز بينه وبين الغناء كفن حسن وجميل ، فلقد سارت الأمور على هذه السُّنَّة فيما تلا هذا العهد

الراشد ، وعلى امتداد الحكم الأموى ودولة بنى العباس ، مع ملاحظة التأثيرات السلبية التى ذخرت بها الحياة الاجتماعية ، بعد اتساع دائرة الدولة بامتداد الفتوحات ، الأمر الذى جعل لمواريث الأمم التى فُتحت بلادها ، فى الفنون والآداب ، شيوعًا وسيطرة ، نهض الإسلام لمغالبة الماجن والفاسد منها ، لكن دون أن ينجح أهله فى اقتلاع هذا الشيوع وهذه السيطرة من كثير من حواضر هذه البلاد ، وفى ظل هذا الواقع الجديد ، وجدنا الموقف الكاره أو المحرم لهذا اللهو من أئمة الفقه الأربعة (أبو حنيفة ـ مالك ـ الشافعى ـ أحمد بن حنبل) ، ولكن الأمر الذى ننبه عليه ، هو أن هؤلاء الفقهاء الأعلام قد رويت عنهم ـ وعن فقهاء معاصرين لهم ـ فى الغناء آراء أخرى تبيح الغناء وتراه حلالاً ، الأمر الذى يؤكد أن أحكام الكراهة أو التحريم إنما كانت للون من الغناء ، وليس لمطلق الغناء ، وهذا هو التفسير الطبيعى والمنطقى لاختلافهم فى الحكم ، بل ولاختلاف الروايات المروية عن الواحد منهم ، لقد أفتوا بأحكام متفاوتة لا لاختلافهم فى فهم الدليل أو النص ، فالنصوص التى تبيح الغناء حاسمة ، والتى تحرمه معلولة ، كما سبق وأن عرضنا ، وإنما كان اختلافهم نابعًا من اختلاف لون الغناء واللهو الذى سئلوا عن رأيهم فيه ، فالمروى عن الشافعى أنه يرى الغناء مكروهًا يشبه الباطل ، لكن لابد من البحث هنا أيضًا عن هذا اللون من الغناء ، وقد روى لنا ابن تيمية ملابسات حكم الشافعى هذا ،عندما يقول: إن الشافعى تحدث عن لون من الغناء أحدثته الزنادقة فى بغداد ، اسمه « التغبير » ليصدوا به الناس عن القرآن الكريم [1].

لما كان ذلك : « كان القول بالتحريم على وجه الإطلاق خاليًا من السند الصحيح ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ [النحل :١١٦] . والقول بأن تحريم سماع الموسيقى وتعلمها من باب: سد الذرائع أو درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح ، ليس مقبولاً ؛ لأن الموسيقى وإن كان يصاحبها الخمر والرقص وغير هذا من المنكرات ، إلا أن هذا ليس الشأن فيها دائمًا ، ومن ثم صارت مثل الجلوس فى الطرقات ، ففى الحديث الذى أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن النبى ﷺ قال:« إياكم والجلوس فى الطرقات » فقالوا: ما لنا بد عن مجالسنا نتحدث فيها ، فقال:« فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه »، قالوا :وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ، ورد السلام ،والأمر

---

(١) د . محمد عمارة : مرجع سابق ،ص ٤١ ـ ٤٤ ، ٧٦ ـ ٧٩ بتصرف .

بالمعروف والنهى عن المنكر». ومن هنا نأخذ أن من المباحات ما يحرم إذا اقترن به محرم، وعندئذ تكون الحرمة طارئة ؛ بمعنى أنها ليست حكمًا أصليًا .

لما كان ذلك ، كان الوقوف عند حد الوسط هو الأولى بالاتباع ، ومن ثم نميل إلى أن سماع الموسيقى وحضور مجالسها وتعلمها ـ أيًا كانت آلاتها ـ من المباحات ، ما لم تكن محركة للغرائز ، باعثة على الهوى والغواية والمجون ، أو مقترنة بالخمر والرقص والفجور وللفسوق ،أو اتخذت وسيلة للمحرمات ، أو أوقعت فى المحرمات ، أو ألهت عن الواجبات فإنها فى هذه الحالات تكون حرامًا ، كالجلوس على الطريق دون حفظ حقوقه التى بينها الحديث الشريف ؛ لأن الحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، قال جل شأنه : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [الأعراف] .

قال ابن العربى ـ فى أحكام القرآن : من معانى زينة الله ، جمال الدنيا فى ثيابها، وحسن النظرة فى ملذاتها ، قال تعالى : ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف :١٥٧]

قال الشوكانى ـ فى نيل الأوطار : « الطيبات فى الآية تشمل كل طيب ، الطيب يطلق بإزاء المستلذ ، وهو الأكثر المتبادر إلى الفهم عند التجرد عن القرائن ، وقد صرح ابن عبد السلام فى دلائل الأحكام : أن المراد فى الآية بالطيبات المستلذات » (١) .

ويرى ابن حزم ـ فى المسألة رقم (١٥٦٥) من كتابه « المحلى » ـ أن الأعمال المباحة مرد الحكم فيها إلى النية ، فقد قال الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » متفق عليه ، يقول ابن حزم : « فمن نوى باستمتاع الغناء عونًا على معصية الله تعالى فهو فاسق ، وكذلك كل شيء غير الغناء ، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل،وينشط نفسه بذلك على البر، فهو مطيع حسن ، وفعله هذا من الحق ، ومن لم ينو طاعة ولا معصية ، فهو لغو معفو عنه، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزهًا ، وقعوده على باب داره متفرجًا ، وصباغة ثوبه لازورديًا أو

---

(١) جاد الحق على جاد الحق : الفتاوى الإسلامية ١٠ / ٣٦٦٤ ـ ٣٦٦٨ بتصرف .

غير ذلك ، ومد ساقه وقبضها ، وسائر أفعاله ، فبطل كل ما شغبوا به بطلانًا متيقنًا ، ولله تعالى الحمد ، وما نعلم شبهة غير ما ذكرنا » .

موقف السلف الصالح من الغناء

عرضنا فيما سبق لموقف القرآن الكريم والسنة النبوية من الغناء والموسيقى ، وخلال ذلك عرضنا لمواقف وآراء بعض فقهاء الإسلام العظام إزاء ذلك ،على أننا نود أن نقدم المزيد فى هذا الصدد من مواقف السلف الصالح كشفًا للغموض واللبس ، ووضعًا للأمور فى نصابها الصحيح .

ويأتى الشاطبى ، وهو من أبرز أئمة الاجتهاد فى المذهب المالكى ، ليؤكد ذات الموقف الفكرى من السماع ، فيتحدث عن أن الغناء والدف قد أبيح فى العرس ونحوه ، وأبيح الحداء وغيره ، ثم يعرض ـ فى كتابه الاعتصام ـ لمكونات الغناء كفن من الفنون ، وكيف أنه يتألف من تحالف وائتلاف النغم الجيد مع المعنى الطيب ، وأنه عندئذ يثمر حكمة القلوب ورقة الطبائع معًا ، أما إذا غاب المعنى الطيب، ولم يبق منه إلا النغم ، فإن ثمرته تقف عند تحريك الطبائع ، والحركات التى لا رقة فيها ولا تواجد ، يعرض الشاطبى هذه المعانى عندما يقول : « إن الشعر المغَنَّى به قد اشتمل على أمرين :

أحدهما : ما فيه من الحكمة والموعظة ، وهذا مختص بالقلوب ، ففيها تعمل وبها تنفعل ، ومن هذه الجهة ينسب السماع إلى الأرواح .

والثانى : ما فيه من النغمات المرتبة على النسب التلحينية ،وهو المؤثر فى الطبائع ، فيهيجها إلى ما يناسبها ، وهى الحركات على اختلافها ، فكل تأثر فى القلب من جهة السماع تحصل عند آثار السكون والخضوع ، فهو رقة وتواجد ، وكل تأثر يحصل عنه ضد السكون فهو لا رقة فيه ولا تواجد .

ونقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة ، فقال: سمع من الصحابة عبد الله ابن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم ، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوارٍ يُسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما ، قال : وقيل لأبى الحسن بن سالم : كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى

وذو النون يستمعون ؟! فقال : وكيف أنكر السماع ، وقد أجازه وسمعه من هو خير مني ، وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع ، فقيل له : أيؤتى يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ، ولا فى السيئات ، لأنه شبيه باللغو ، وقال الله تعالى : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ (١) [البقرة: ٢٢٥] .

وقد ذكر الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » أن قومًا أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين ،إن لنا إمامًا إذا فرغ من صلاته تغنى ، فقال عمر : «من هو؟» فذكروا له الرجل ، فقال :قوموا بنا إليه ، فإنّا إن وجهنا إليه من يُحضره يظننا تجسسنا عليه أمره ، وقام عمر مع جماعة من أصحاب النبى ﷺ، حتى أتوا الرجل وهو فى المسجد، فلما نظر إلى عمر قام إليه واستقبله قائلاً : يا أمير المؤمنين ، ما حاجتك ؟ وما جاء بك ؟ إذا كانت الحاجة لنا كنا أحق بذلك منك أن نأتيك ، وإن كانت الحاجة لك فأحق من عظمناه خليفة رسول الله ، فقال له عمر : ويحك ! بلغنى عنك أمر ساءنى ! فقال : وما هو يا أمير المؤمنين ، قال : أتتمجَّن فى عبادتك ـ من المجون ـ قال: لا يا أمير المؤمنين ، لكنها عظة أعظ بها نفسى ،قال عمر : قلها ، فإن كانت كلامًا حسنًا ، قلته معك ، وإن كانت قبيحًا نهيتك عنه ، فأنشد الرجل :

وفؤاد كلما عاتبته ... فى مدى الهجران يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهيا ... فى تماديه ، فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبّا ؟ ... فنى العمرُ كذا فى اللعب
وشبابى بان عنى فمضى ... قبل أن أقضى منى أربى
ما أُرجِّى بعده إلا الفنا ... ضيق الشيبُ على مطلبى
ويح نفسى لا أراها أبدًا ... فى جميل ، لا ولا فى أدب
نفسُ لا كنْتِ ولا كان الهوى ... راقبى المولى وخافى وارهبى

فقال عمر رضي الله عنه مترنمًا بالبيت الأخير :

نفسُ لا كنت ولا كان الهوى ... راقبى المولى وخافى وارهبى

ثم قال عمر : على هذا فليغنِّ من غنى !

---

(١) د . محمد عمارة : مرجع سابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٨ ـ ١٩١ بتصرف .

فها هو الفاروق عمر رضي الله عنه الذى كان إذا سار فى فجٍّ سار الشيطان فى فج غير فجِّه، لا يرى غضاضة فى الاستماع ، بل ويتغنى بنفسه بكلام حسن جميل ، فهل منَّا من هو أكثر ورعًا من عمر ؟!

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى فى « الإحياء » : إن الآلة إذا كانت من شعار أهل الشرب أو المخنثين ، وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة ، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة ـ ومعنى ذلك أنها لو لم تكن شعار أهل الشرب والمخنثين فهى مباحة ـ وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب ، وسائر الآلات .

وكان الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر فى القرن الثالث عشر الهجرى ذا ولع شديد بالسماع ، وعلى معرفة تامة بأصوله ، ومن العبارات التى وردت فى بعض كتبه: « ومن لم يتأثر برقيق الأشعار ، تُتلى بلسان الأوتار ،على شطوط الأنهار ،فى ظلال الأشجار ، فذلك جلف الطبع حمار » ، إذن فسماع الآلات ذات النغمات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة ، أو صوت إنسان ، أو صوت حيوان ، وإنما يحرم إذا استُعين به على محرم ، أو اتُّخذ وسيلة إلى محرم ، أو ألهى عن واجب ، وهكذا ينبغى أن يعلم الناس حكم الله فى هذه الشؤون ، ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يُلقى جزافًا فى التحليل والتحريم ، فإن تحريم ما لم يحرمه الله،أو تحليل ما حرمه الله ، كلاهما افتراء وقول على الله بغير علم (١) .

ونثبت هنا ـ إتمامًا للفائدة بعض كتب التراث لعلماء وفقهاء السلف الصالح ، والتى أُلِّفت فى إباحة الأغانى وآلات الملاهى ، وقد استقينا معظمها من كتاب « تحريم النرد والشطرنج والملاهى »، للإمام أبى بكر الآجرى (٢٦٤ ـ ٣٦٠ هـ) ، وتحقيق محمد إدريس ، ومنها :

ـ **كتاب السماع** : تأليف الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر القيسرانى ، المتوفى سنة ٥٠٧ هـ : أوضح فيه مذهبه فى إباحة الغناء وآلات المزامير، وذكر عددًا من الأحاديث فى ذلك .

ـ **إبطال دعوى الإجماع فى تحريم السماع** : تأليف محمد على الشوكانى ، المتوفى

---

(١) د . أحمد الشرباصى : يسألونك فى الدين والحياة ، دار الجيل ، ٢ /٥١٣ ، ٥١٤ .

سنة ١٢٥٠ هـ فى جزء لطيف ذكر فيه أدلة المحرمين للسماع والمبيحين ، وناقش أدلة الفريقين .

ـ **رسالة فى أحكام السماع والغناء** (أو رسالة فى الغناء الملهى،أمباح هو أم محظور): لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ؟) ، وقد بيَّن فيها مذهبه فى إباحة الغناء والموسيقى ، وقد عرضنا لمقتطفات منه .

ـ **كتاب السماع** : لأبى المنصور البغدادى الشافعى ، وقد ذكره إسماعيل العلوى الزبيدى فى كتابه « السماع » صفحة ١٩ ، والشوكانى فى رسالته إبطال دعوى الإجماع صفحة ١٢ .

ـ **الاعتناء بالغناء** : وهو فى أحكام السماع ، تأليف على القارى ، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ مخطوط له نسخة فى معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة (رقم ٣٦) .

ـ **كتاب المتعة فى السماع** : تأليف جمال الدين محمد بن عمر الحضرمى المتوفى سنة بضع وثلاثين وستمائة ، وذكره الزبيدى فى كتابه السماع صفحة ٣٦ .

ـ **كتاب تجويز السماع** : تأليف عطية بن سعيد الأندلسى أبى محمد ، ذكره الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ صفحة ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ .

ـ **بوارق الإلماع فى تكفير من يحرم السماع** : تأليف أبى الفتح الغزالى ، تعصب فيه المؤلف لمذهبه فى إباحة الغناء ، وكفَّر كل من يقول بتحريمه ونحن لا نقر ذلك .

ـ **رسالة فى التكفير لمنكر السماع** : تأليف أحمد بن محمد الغزالى أخو أبى حامد الغزالى ، ذكرها على القارى فى « شرح عين العلم وزين الحلم» ١ : ٤٩١ ، ونحن لا نقر ذلك أيضًا .

ـ **المحلى بالآثار فى شرح المجلى بالاختصار** : لابن حزم الأندلسى ، وقد ذكر فيه إباحة السماع ، وأوردنا فقرات منه فى هذا البحث .

ـ **كتاب آداب السماع** : لمحمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، الشهير بـ «أبو حامد الغزالى » (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) ،وقد ذكر إباحة السماع واختلاف العلماء فى ذلك ، وكشف الحق فيه .

ـ وقد ذهب إلى إباحة الغناء والمعازف فى مؤلفاتهم من العلماء القدماء والمعاصرين: ابن العربى فى كتابه« أحكام القرآن »، والشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى (القرن ١١هـ) فى رسالته «إيضاح الدلالات فى سماع الآلات »، والشيخ محمود شلتوت فى فتاواه ، والشيخ أحمد الشرباصى فى «يسألونك فى الدين والحياة»، والشيخ جاد الحق على جاد الحق فى فتاواه ، والشيخ محمد الغزالى فى «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ، والشيخ يوسف القرضاوى فى «الحلال والحرام»، وغيرهم كثير .

ضوابط الغناء

الغناء كحد السيف، قد يستخدمه المجاهد فى سبيل الله، كما قد يستخدمه قاطع الطريق ، وبعبارة أخرى، فإن الغناء سلاح ذو حدين. فقدُ يتخذ وسيلة إلى ترويح النفس لإعدادها وتوطئتها ، لاستعادة زمام الجهاد فى ميدان الدين والدنيا، وقد يكون وسيلة للمحرمات أو مقترنًا بفعل المحرمات والموبقات.

ولعل هذا هو السبب فى تباين الآثار التى وصلت إلينا حول الغناء والموسيقى بين الإباحة والتحريم والكراهة ، ولا غرابة فى هذا التباين ـ الذى عرضنا له فى الصفحات السابقة ـ لأن كل فريق من الفقهاء يبيح أو يحرم أو يكره لونًا معينًا من الغناء ، فلا تعارض بين هذه الآراء ؛ لأن كل رأى فيها يقدم لنا لقطة معينة ، فتمتزج هذه اللقطات جنبًا إلى جنب لتقدم لنا «صورة كاملة» لموقف الإسلام من الغناء والموسيقى.

والفريق الذى حرم الغناء أو كرهه ، إنما كان يقصد إبعاد ضرر أو خطر أو شبهة حرام ، يؤدى إليه الغناء الذى يستفتى فيه الذى أباح الغناء أو استحبَّه رأى فيما سئل عنه أو رآه ما يُعدّ وسيلة إلى إثارة مشاعر الارتياح والسكون للجسد المكدود ، وذلك فى إطار الترويح والترفيه المباح الذى لا يقترن بمعصية ولا يؤدى إليها، وقد كان «أنجشة» يحدو إبل رسول الله ﷺ، وحينما زاد فى حدائه لها، فجعل الإبل تسرع حتى أتعبت من فوقها من النساء، فقال له الرسول ﷺ : «أنجشة، رفقًا بالقوارير».

وقد روى فى سيرة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كان فى سفر ومعه من يغنى فاستمع إليه ، وحينما أراد هذا المغنى أن يردد ما لا يليق منعه عمر من ذلك، وهذا ما يؤكد أن الغناء فن ؛ حسنه حسن وقبيحه قبيح.

ونثبت هنا هذا المقال الرائع حول هذا الموضوع[1] : «الغناء فطرة ، وفن وأدب، هو فطرة لأنه يُصنع بالطبع والوجدان، ويُدرك بالطبع والوجدان، وهو فن لأن له نظمًا ومناهج وأوضاعًا لا بد للمغنى من العلم بها، والنفاذ فيها، وهو أدب لأنه يقوم على حسن التصور وحسن التصوير، ولأنه أبلغ الوسائل فى التعبير عن نجوى الضمير .

إذن فلا بد للثقافة الغنائية من أن تدرس على أنها جزء من الثقافة الأدبية، فالأدب

---

(١) عبد الله عفيفى بك: مقال فى كتاب طبع عام ١٩٣٨م، بعنوان الموسيقى الشرقية ، لمؤلفه قسطندى رزق ٢/ ١٢٧ ـ ١٢٩ بتصرف.

كلٌّ والغناء جزء منه، والأدب نهر، والغناء شجره وطيره، فإذا فصلت بين الأدب والغناء ودرست الغناء على أنه وحدة مستقلة، فقد فصلت بين الروضة الزهراء ونهرها الذى تستقى منه فلا تلبث أن تصير قفرًا لا حياة فيها .

وقد عرف العربى كيف يتلقى الغناء وكيف يوجهه، وكيف يصيب به الغرض المقصود منه، وهنا يعرض لنا هذا السؤال، وما هو الغرض المقصود من الغناء ؟ أليس الغرض منه هو التسلية والتلهية والتطريب؟ والتأثير على المشاعر النارية ببعض ما يثر النفس الضعيفة ويحرك الغرائز الكامنة؟ أليس هو استغلال فطرة لحنان وما يساور القلوب من أحزان؟ فنسوق إليها بعض الألفاظ الواهنة النائحة؛ لتظفر بشيء من الإقبال والاستحسان؟ أهذا هو الغرض من الغناء ؟ كلا !

ليس هذا هو الغرض من الغناء عند من يعد هذا الفن فنًا رفيعًا ، لا يستنكف الخليفة فوق عرشه، ولا الفقيه فى درسه، ولا الزاهد فى محرابه، ولا العقيلة فى خدرها من حسن الاتصال به والالتصاق به.

لقد كان سيد خلفاء الإسلام من أعرف الناس بالغناء ، وكان سيد فقهاء الإسلام مالك بن أنس من أعرف الناس بالغناء ، وكان سيد أجواد الإسلام عبد الله بن جعفر من أعرف الناس بالغناء ، فهل هم عرفوا الغناء وطلبوه وتخرجوا فيه على هذا السبيل؟!

كلا أيها السادة ! لقد عرف هؤلاء الغناء على أنه أبلغ الوسائل فى تأدية الأدب الرفيع، فهو المزاج العذب الفُرات الذى يبثون به الأدب فى النفوس ، هو الوسيلة التى يشجعون بها الجبان، ويُصبّرون بها الحزين، ويشحذون بها الهمم الخامدة، ويبلغون بها أقصى ما يريدون من المعانى الإنسانية السامية، من أجل ذلك أظهروا ألحانهم النابهة الخالدة فى مثل قول القائل:

قالت : أما ترحل تبغى الغنى ... قلتُ : فمن المطارق المغنمِ
قالت : فهل عندك فضل له ... قلتُ : نعم، جهد الفتى المعدمِ
فكم وحق الله من ليلة ... قد أُطعِمُ الضيف ولم أُطعَمِ
إن الغنى بالنفس يا هذه ... ليس الغنى بالمال والدرهمِ

وقول القائل:

أماوى إن المال غادٍ ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
أماوى إما مانعٌ فمبين ... وإما عطاء لا ينهنهه الزجر

وقول القائل :

لا أقول : الله يظلمني كيف أشكو غير متهمِ
وإذا ما الدهر ضعضعني لا تراني كافر النعمِ
ليس لي مال سوى كرمي وبه ذخرى من العدمِ

وقول القائل :

وددتك لما كان حبُك خالصًا وأعرضت لما صار نهبًا مقسمًا
ولن يلبث الخوص الجديد بناؤه على كثرة الرواد أن يتهدما

هذه الفنون من الحكمة السامية والأدب الرفيع بثها المغنون فى النفوس، وساعدهم على غايتهم أنهم كانوا شعراء وكانوا أدباء ، وكانوا يُعرفون بالعلم والأدب ، كيف يحسنون الأداء وكيف يوجّهون الغناء.

قيود على إباحة الغناء

إذا كنا قد خلصنا إلى إباحة الغناء والموسيقى، فإن هذه الإباحة ليست مطلقة ، بل لها حدود وقيود وشروط، فإذا كان الإسلام قد أباح الترويح عن النفوس ، وكره السآمة والعبوس، وحبَّب إشاعة السرور فى المجتمع ، فى الأعياد، والأعراس، وقدوم الغائب، وفى الوليمة، وفى الحفاوة بالمولود ، وغير ذلك من المناسبات السارة التى لا مجون فيها ولا فجور. إذا كان ذلك كذلك، فإن الغناء إذا داخله شيء من الفحش فى القول أو الفعل فإنه يخرج من دائرة الإباحة إلى دائرة التحريم ، أى يصبح «محرمًا لغيره» أى لما يصاحبه من منكر ، وليس «محرمًا لذاته» لأنه مباح على الأصل مالم يقترن بمعصية.

فالغناء والموسيقى نوع من الترف واللهو الذى تستمتع به النفس وتركن إليه ، وهو بذلك يدخل فى دائرة «الزينة والطيبات» التى أحلها الله لعباده: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾** [الأعراف: ٣٢]

فإذا كان عاملاً من عوامل الإثارة للغزائر والنَّيل من القيم والمبادئ ، فإنه يخرج من دائرة «الطيبات» إلى دائرة «الخبائث»، ويقول تعالى : **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾**[الأعراف١٥٧] فَربَّ نعمة حبلى فى نقمة؛ إذا أُسيء استعمال هذه النعمة على وجهها الصحيح.

يستفاد من ذلك ، أنه يتعين مراعاة بعض الشروط والقيود فى مجال اللهو المباح بالموسيقى والغناء، حتى لا يدخل هذا اللهو فى دائرة التحريم ، وهى:

موضوع الغناء:

ينبغى أن تكون الموضوعات الغنائية مما لا يتنافى مع قيم الإسلام ومبادئه ، وتوجيهاته وأخلاقه، فالأغانى التى تدعو إلى مقدمات الزنى والخنا ، وتشجيع الفواحش أو ما يؤدى إليها، واستثارة الغرائز الكامنة ، وإطلاقها من عقالها ، وتبرير المعاصى والموبقات ، ووصف المحاسن والمفاتن فى جسد المرأة.

والأغانى التى تدعو إلى تمجيد أو تقديس ملك أو مصلح أو زعيم ، فتمنحه صفات استأثر الله بها ، أو ترفعه فوق مستوى البشر أو تخدع الناس بتصوير ظلمه

وطغيانه، وفساد إفساده ، على أنه قمة العدل وذروة الإصلاح !!

والأغانى التى تهوّن من عزائم الأمة فى مواجهة أعدائها المتربصين بها ، وتهيئ الناس لقبول الأمر الواقع، والواقع الظالم، وتصور الاستسلام للعدو والإذعان لشروطه جنوحًا إلى السلم لأن الله أمرنا به !!

والأغانى التى تسخر من شعائر الإسلام وشرائعه وعقيدته ، كأن تعرّض بالقدر، كهذا المغنى الذى يقول : قدر أحمقُ الخُطى، وهذا الذى ينكر حقيقة الوجود وخلق الإنسان والكون والحياة ، وقد وضح الله ذلك بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك :٢] ، ولكن المغنى مع ذلك يقول: جايين الدنيا ما نعرف ليه، ولا عايزين إيه ، ولا رايحين فين !!

والأغانى التى يطُلقون عليها «الشبابية»، وتلك التى يُطلقون عليها «الشعبية»، وما تحويه من ألفاظ خارجة عن الأخلاق ، جارحة للحياء ، مثال ذلك: هذا «المتْرب!!» الذى كان يطلق عليه « ملك الكاسيت » يقول: «السح الدح امبو»!!

وهذا آخر كان يطلق عليه «ملك الكاسيت»، كما يقول فى إحدى أغانيه: «حبه فوق، وحبَّه تحت»، وظهرت أغانى لا تملك نفسك حين سماعها إلا أن تشعر بالقرف والغثيان والتهيؤ للقىء !! مثل:

خدّ الحبيب قشّف قوى، ادهن له زيت حار. . إيه الإستوك ده، إللى ماشى يتك ده. . إيه يا جان ترافولتا ده، مش عيب عليك فى السن ده، تلبس كده اللبس ده. . إيه الهِس بس ده، إللى مش بيحس ده. جنّنى !!

- يا مجمع المساطيل ياليل !! . . كوز المحبة اتخرم !!

- كداب يا خيشه كداب قوى، أنا كنت فاكرك فهلوى!!

- تتجوز بنت خطيبتى ليه !! . . هبَّه تيتومامبو !!

- يا حلو بانت لبتّك ، أول ما دابت قشرتك !!

- يا حلو يا سايق الميكروباص ، حاعملك خدى مداس !!

- بينى وبينك خطوة ونص، لا بتسلم ولا بتبص !!

- يا تقيل وأنا مدلوق عليك ، يا مطنش وأنا سهران أناجيك !!

- الطشت قاللى الطشت قاللى ، يا حلوة ياللى قُومى استحمى !

- ليك عشرة كوتشينه، فى البلكونة !!، رحنا السلاملك، قالوا فى الحرملك !!

- العتبة جزاز والسلم نايلو فى نايلو !!

- يا خارجه من باب الحمام، وكل خد عليه خوخه !!

- تعال لى هنا تانى فى الدور التحتانى ، ناكل لحمة ضانى، ونحلّى بالسُّودانى!!

- جلجلى جلجله ، صهللى صهلله !!

والعجيب والغريب أن كثيرًا من هذه الأغانى مجازة رقابيًا ، ومن ذلك أغنية تستخف بتحريم المخدرات، حيث يقول مطلعها: قالوا الحشيس. . لالا . . قلنا: إن كان حلال، أدى احنا شربناه. . وإن كان حرام. . أدى احنا حرقناه !! والأعجب أن البعض غنى «للقفا» ، إى والله !!

جميع هذه الأغانى التى ذكرنا وصفًا لها، أو بعضًا من كلماتها، والتى تخدش الحياء العام ، أو تُسىء إلى العقيدة، مما يدخل فى دائرة التحريم ، تأليفًا وتلحينًا وغناءً وسماعًا وتوزيعًا ، ونشرًا لها من خلال مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

وينبغى على الدولة أن تواجه وتحارب مثل هذه الأغانى بكافة الوسائل ، من خلال أجهزة الرقابة على المصنفات الفنية ونقابة المهن الموسيقية وغيرها ؛ بحيث لا تبقى إلا على ما كان هادفًا لغايات إيجابية سامية.

نحن لا ننكر الغناء، ولا نتجاهل أثره، وكثيرًا ما ألمح طوائف الشباب تسمع وتستعيد، فلا يؤسفنى إلا شىء واحد، هو أن الاستماع يثير دماء الشهوة ولا يثير دماء التضحية، ويهيج عواطف اللهو الخبيث ولا يهيج عواطف المرح الطيب ، إننا لا نحرم الشعوب من متعتها، ولكن هذه المتعة ستقتلها إذا تناولتها بهذه الطريقة المجنونة، إننا بحاجة إلى الأغنية الجادة ذات المعانى الكريمة والأهداف النبيلة ، فلنوجد هذه الأغانى أو هذه الأناشيد، ولنزاحم بها ما يملأ حياتنا الشرقية من لغو وعبث ، إن الشعوب دائمة الحركة فإن لم يتحكَّم فى حركتها أهل الخير تحكَّم فيها أهل الشر ، وهى دائمة الغناء، فإن لم يغن لها العقلاء ، غنى لها السفهاء (١)

وكان المطرب الإنجليزى المشهور « كات ستيفنز» مغنى البوب، الذى كانت تباع اسطواناته بالملايين فى أوربا قبل اعتزاله الغناء وإعلان إسلامه منذ عام ١٩٧٧م، وتغييره لاسمه إلى«يوسف إسلام»، قد عاد مرة أخرى إلى الغناء ، بعد توقف دام نحو عشرين عامًا لتسجيل سيرة الرسول ﷺ فى مجموعة غنائية قيمة، وهى مقسمَّة إلى أربع

---

(١) محمد الغزالى : مرجع سابق ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.

مراحل: نشأة الرسول ، فترة النبوة والهجرة إلى المدينة ، ثم العودة إلى قريش وفتح مكة، كما يؤدى يوسف إسلام بالإضافة إلى رواية السيرة النبوية ثلاث قطع غنائية دينية أخرى؛ هى: طلع البدر علينا ، لا إله إلا الله ، محمد المصطفى.

إنها تجربة غنائية جديدة ، تقوم على أن هناك فراغًا فى استخدام الوسائل الحديثة فى التعريف بالإسلام ، تلك الوسائل التى أصبحت تستهوى الناس ، وتستولى على عقولهم، وقد يساهم ذلك فى توسيع دائرة فهم الإسلام عند غير المسلمين ، من أوربيين وغيرهم.

طريقة الغناء وما يقترن به :

قد تكون كلمات الأغنية ذات مضمون جيد مما لا يتعارض مع القيم والمبادئ الأخلاقية ، ولكن طريقة أداء هذه الأغنية قد يخرج بها من إطار الإباحة إلى إطار التحريم ، كأن يكون الأداء بتكسر وميوعة تثير الغرائز، أو بخضوع يُطمع ذوى القلوب المريضة، قال تعالى: ﴿**فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** (٣٢)﴾ [الأحزاب] فنهى الله تعالى هنا عن الإغراء والإغواء والخضوع بالقول.

ويجب كذلك حتى تظل الأغنية فى إطار الإباحة ألا تقترن بمحرم، كأن يكون المناخ الذى تؤدى فيه الأغنية تشيع فيه الفواحش والرذائل وتبرج النساء أو المغنية ، واختلاطهم بالرجال ومراقصتهم إياهم، ومعاقرة الخمور والمخدارت ، وما يصاحب ذلك عادة من خلاعة ومجون وفجور.

وقد ورد تحريم هذا النوع من الغناء الذى يقترن بالمحرمات فى حديث الرسول ﷺ: «ليشربن أناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير» رواه البخارى.

وغنى عن البيان أن الإسلام يذم الإسراف والغلو فى شتى الأمور ، حتى فى العبادات، فما بالنا بالمباحات، ومنها الغناء واللهو، فلا شك أن الإسراف فى المباحات يأكل وقت الواجبات، والواجبات أكثر من الأوقات، وقد قيل: «ما رأيت إسرافًا إلا وبجانبه حق مضيع » ، وقيل أيضا : «إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده» ، فإذا زاد الوقت الذى يستغرقه الإنسان فى الغناء أو فى الاستماع إليه أو فى اللهو بصفة عامة عن «الحد»، فإن حكمه وهو «الإباحة» ، ينقلب إلى «الضد» وهو «التحريم» !!

وباختصار يجب ألا يشغل الغناء الإنسان عن واجب أو عن حق من حقوق الله أو حقوق العباد .

العوارض الخمسة [1] :

بعد أن تحدث الإمام أبو حامد الغزالى فى« الإحياء» عن أنواع السماع، عرض لحكم الشرع فيه، فرأى أن منه الحرام والمباح والمكروه والمستحب، فهو حرام فى حق الأغرار الذين غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة، وهو مكروه لمن يسرف فيه، فيتخذه عادة يصرف إليها أكثر الأوقات على سبيل اللهو ، وهو مباح لمن يتخذه سبيلاً إلى التلذذ بالصوت الحسن، وهو مستحب فى حق الذين يحبون الله ويتخذون منه أداة تحرك منهم الصفات المحمودة دون غيرها.

وإذا كان السماع حلالاً مباحًا فى ذاته، فإن حرمته إنما تعرض لعارض، خارج عن ذاته، قد تكون فى مصدره المسمع ، أو فى آلته آلة الإسماع ، أو فى نظم الصوت، أو فى متلقيه فى نفس المستمع، أو فى مواظبته عليه ، أو فى طبيعة المتلقى.

تحدث الغزالى عن هذه العوارض الخمسة ، التى تعرض للسماع المباح فى ذاته فتجعله حرامًا، فقال: «إنه يحرم بخمسة عوارض: عارض فى المسمع، وعارض فى آلة الإسماع، وعارض فى نظم الصوت، وعارض فى نفس المستمع و فى مواظبته، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق؛ لأن أركان السماع، هى: المُسْمِع، والمستمع، وآلة السماع.

العارض الأول: أن تكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها، وتخشى الفتنة من سماعها، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تُخشى فتنته، وهذا حرام ؛ لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان، فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ، ولا سماع صوتها فى القرآن أيضًا، وكذلك الصبى الأمرد الذى تخاف فتنته.

العارض الثانى: فى الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرب ، أو المخنثين ، وماعدا ذلك يبقى على أصل الإباحة.

العارض الثالث: فى نظم الصوت، وهو الشّعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، فسماع ذلك حرام؛ بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال، وأما النسيب، وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاؤه بلحن وغير لحن، وعلى المستمع ألا ينزله على

(1) د . محمد عمارة: مرجع سابق ، ص٩٢-٩٥ .

امرأة معينة، فإن أنزله، فلينزله على من يحل له، من زوجته وجاريته ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل، وإجالة الفكر فيه، ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأسًا .

العارض الرابع: فى المستمع، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه، وكان فى غمرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد، والفراق والوصال، إلا ويحرك ذلك شهوته وينزل على صورة معينة، ينفخ الشيطان بها قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة، وتحتدُّ بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان، والتخذيل للعقل المانع منه، الذى هو حزب الله .

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى، فيكون السماع فى حقه محبوبًا ، ولا غلبت عليه الشهوة فيكون فى حقه محظورًا، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع الملذات المباحة، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه، وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية، كما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة، ومن هذا القبيل: اللعب بالشطرنج، فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، ومهما كان الغرض من اللعب والتلذذ باللهو، فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب: إذ راحة القلب معالجة له فى بعض الأوقات، لتنبعث دواعيه فتشتغل فى سائر الأوقات بالجد فى الدنيا، كالكسب والتجارة، أو فى الدين، كالصلاة والقراءة، واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته، فيعود الحسن قبحًا بسبب الكثرة فما كل حسن يحسن كثيره، ولا كل مباح يباح كثيره، بل الخبز مباح، والاستكثار منه حرام، فالسماع من جملة المباحات، من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته .

الفصل الرابع

الفنون التشكيلية: الرسم ، التصوير، النحت

- التصوير سمة القرآن الكريم .
- حكم الرسم والتصوير .
- حكم التماثيل .

«التصوير» سمة القرآن الكريم

كان الفن التشكيلي - من رسم ونحت وتصوير - ولايزال يثير جدلاً واسعًا ، ويطرح تساؤلات عديدة حول مدى مشروعيته من وجهة النظر الإسلامية .

فعلى الرغم من مرور قرون عديدة حول هذه القضية ، إلا أنها مازالت محل البحث والحوار والنقاش بين المؤيدين لمشروعيتها ، والمعارضين لها ، من علماء وفقهاء ومؤرخين .

وقبل أن نخوض غمار هذا الجدل ، نود أن نشير إلى أن هذا الوجود كله ، وهذا الكون الفسيح المتسع الأرجاء ، بما فيه من دلائل قدرة الله تعالى ، من إنسان وحيوان ، ونبات وجماد وأشجار وأزهار ، وبحار وأنهار ، وظلال وأنوار ، وبما فيه من حياة وأحياء ، وكل مفردات الطبيعة ، فى ظل تنسيق رفيع وتنظيم بديع ، إن هذا كله لينطق بنعم الله التى لا تعد ولا تحصى ، التى حبا بهما الإنسان .

فإذا ما قام الفنان - المصور أو الرسام - بتصوير لمحات من هذا الجمال الربانى فى الكون ؛ ومحاكاة الواقع ، بعدسته أو ريشته ، فى صورة جميلة أو لوحة رائعة ، فهو إنما يوظف بذلك الفن التشكيلى عموماً فى إبراز جماليات فى المجتمع ، سواء كانت روحية ، مثل القيم والمبادئ الإنسانية ، أو مادية ، كبعض مفردات الطبيعة أو التراث العربى والإسلامى .

فاللوحة الفنية التى يصنعها الرسام مرتبطة أساسا بتوحيد وتسبيح الله ، الذى خلق العقل الإنسانى الذى يفكر ويبدع ، واليد التى ترسم ، فنحن عندما نشاهد لوحة أو صورة جميلة ،نقول : « الله » !!

وإذا نحن تأملنا أسلوب القرآن الكريم - معجزة الإسلام العظمى - وجدناه فى كثير من آياته يحفل بـ « الصورة التعبيرية » ، أى نقل المعانى والأفكار من خلال الحروف والكلمات ، لـ « ترسم » لنا ما يكون أشبه بـ « اللوحة » المحسة المرئية المشاهدة .

إن « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة

المتخيلة عن المعنى الذهنى ، والحالة النفسية ،وعن الحادث المحسوس،والمشهد المتطور ، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل.

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنسانى أو الحادث المروى ، إنما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر ، أدركنا بعض أسرار الإعجاز فى تعبير القرآن.

والأمثلة على هذا الذى نقول هى القرآن كله،حيثما تعرض لغرض من الأغراض التى ذكرناها،حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو حالة نفسية،أو صفة معنوية، أو نموذج إنسانى،أو حادثة واقعة، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة،أو حالة من حالات النعيم والعذاب،أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً فى جدل أو محاجة،بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقًا،واعتمد فيه على الواقع المحسوس،والتخيل المنظور .

وهذا هو الذى عنيناه حينما قلنا :«إن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن»، فليس هو حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق، إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة ، وطريقة معينة تستخدم بطرائق شتى ، وفى أوضاع مختلفة ،ولكنها ترجع فى النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : قاعدة التصوير.

ويجب أن نتوسع فى معنى التصوير ، حتى ندرك آفاق التصوير الفنى فى القرآن ، فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالإيقاع ، وكثيرًا ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، فى إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر الواجدان.

وهو تصوير حى منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة ، وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات ، فالمعانى ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حية ، أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة » [1] .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، دار المعارف ، ص ٣٤ ، ٣٥ بتصرف .

أمثلة على التصوير القرآنى :

وهذا مثال على تجسيد القرآن الكريم للمعانى والأفكار فى صور محسة مشاهدة ، ففى سورة القلم قصة قصيرة ترتعد لها فرائص المؤمنين الموسرين ، سوف نعرض مشاهدها فى لقطات متتابعة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨)** ﴾ [القلم] .

إنها قصة رجل يملك جنة وارفة الظلال ، وافرة الفواكة والثمار ، كان قد اعتاد عند قطافها أن يعطى الفقراء والمساكين نصيبهم منها ، وبعد موت الرجل رأى أولاده أن يمنعوا الفقراء والمساكين حقوقهم فى الحديقة ، وأجمعوا أمرهم بينهم إلا أخاً وسطاً فى عمره نهاهم عن ذلك ، ولكنهم أصروا وبيتوا أمرهم على ذلك ، وتأتى اللقطة التالية : ﴿ **فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)** ﴾ [القلم] فتسمع أو تقرأ كأنك ترى هذا البلاء الذى أرسله الله على حديقتهم فى غمرات الظلام ، فاقتلع أشجارها وأطاح بها ، حتى غدت قاعًا صفصفًا كأن لم تغن بالأمس ، وتنتقل إلى هذه اللقطة ﴿**فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)** ﴾ [القلم].

وفى هذه الصورة الحية نرى الإخوة يذهبون فى صباحهم مبكرين إلى حديقتهم، لتنفيذ ما اعتزموا عليه ، حتى كأننا نسمع همسهم وهم ﴿ **يَتَخَافَتُونَ (٢٣)** ﴾ ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد ، حيث وجدوا حديقتهم قد أصبحت أثرًا بعد عين ، فالتبس عليهم الأمر ، فنراهم عبر « المشهد القرآنى » فى حيرة من أمرهم ؛ يروحون ويجيؤون ويتخبطون، ويقولون : ﴿ **إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)** ﴾، يظنون أنهم قد ضلوا الطريق إلى حديقتهم، فلقد تركوها بالأمس خضراء ، دانية القطوف والظلال ، فأين هى ؟! وأين أشجارها وثمارها ؟! وأين مياهها وأنهارها ؟! وردًا على هذا السؤال، تأتى اللقطة التالية بالإجابة: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨)** ﴾ [القلم] ، وفى وسط هذه الحيرة يردهم أخوهم إلى رشدهم ويؤكد لهم أنها جنتهم ، ولكن الله حرمهم منها منذ عزموا على حرمان الفقراء نصيبهم فيها ، ثم يأتى المشهد الختامى لهذه القصة شاخصًا حيًا : ﴿**قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا**

كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32)﴾ [القلم]في هذا المشهد « نرى » الإخوة ،و « نسمع » أصواتهم تتعالى ،وهم « يتلاومون » ،واعترافهم بذنبهم، وإنابتهم إلى ربهم ،ودعاءهم إلى الله أن يبدلهم خيرًا منها،ويأتى التعقيب القرآنى على هذه اللقطات المتتابعة للقص: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)﴾ [القلم]،فهذا هو عذاب الباغين المانعين لحقوق الفقراء والمساكين ، ولعذاب الله أكبر، ولثواب الله للمتقين أعظم ،والقصة بتمامها فى سورة القلم : (١٧ ـ ٣٣) .

ألم نقل ـ كما تبين لنا من المشهد السابق ـ أن القرآن يحيل القارئ أو المستمع ـ عبر توالى المناظر وتجدد الحركات ـ إلى مُشاهد يرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه !!

وهذه أمثلة أخرى [1] ، تخرج لنا المعانى الذهنية فى صورة حسية :

١ ـ يريد القرآن أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً ، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل ، هذه هى الطريقة الذهنية للتعبير عن المعانى المجردة ، ولكن أسلوب التصوير يعرضها فى الصورة الآتية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتُّح أبواب السماء ، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ فى سم الخياط ، ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم « الجمل » خاصة فى هذا المقام ، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ، ليستقر فى النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس ، وقد ورد إليها من طريق العين والحس ـ تخيلاً ـ وعبر إليها من منافذ شتى ، لا من منفذ الذهن وحده ، بل فى سرعة الذهن التجريدية .

٢ ـ ويريد أن يبين أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبلُ شيئًا، وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها ردًا ، فيقدم هذا المعنى مصورًا فى قوله : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (23)﴾ [الفرقان] ، ويدعك تخيل صورة الهباء المنثور ، فتعطيك معنى أوضح وآكد للضياع الحاسم المؤكد .

أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشىء لهذا المعنى نفسه : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سيد قطب : مرجع سابق ،ص ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ بتصرف .

بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم:١٩] ، فتزيد الصورة حركة وحياة ، بحركة الريح فى يوم عاصف ، تذرو الرماد وتذهب به بددًا، إلى حيث لا يتجمع أبدًا .

٣ ـ ويريد أن يبرز معنى : أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه ، وينيله ما يرجوه ؛ وأن الآلهة التى يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئًا ، ولا تنيلهم خيرًا ، ولو كان الخير قريباً ؛ فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)﴾ [الرعد] .

وهى صورة تلح على الحس والوجدان ، وتجتذب إليها الالتفات،فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة،وهى من أعجب الصور التى تستطيع أن ترسمها الألفاظ : شخص حى شاخص ، باسط كفيه إلى الماء ، والماء منه قريب يريد أن يبلغه فاه ، ولكنه لا يستطيع ، ولو مد مدة فربما استطاع !!

حكم الرسم والتصوير

القرآن الكريم هو الدستور والمرجع الأساسى فى تحديد مشروعية الأشياء ، ويبدو واضحاً أن القرآن الكريم لم يأت فى شأن « الرسم والتصوير » بنص صريح يقضى بالتحريم أو الإباحة أو الكراهية ، وإنما كان هناك هجوم عنيف على الأصنام والأوثان وعبادتها .

فالقرآن الكريم لا يناصب الرسم أو التصوير العداء، إلا إذا كان ذلك وسيلة إلى فعل ما لا يقرُّه القرآن ، كتقديس المصلحين ، أو تعظيم المفسدين ، وكل ما من شأنه خدش حقيقة التوحيد ، أو إذا قصد من ذلك إثارة الشهوات .

أما إذا جاءت « اللوحة » أو « الصورة » خلواً من هذه « المحرمات » وغيرها ، فإنها تدخل فى نطاق « الإباحة » ، فلا تعميم إلا بنص ، كأن يكون المقصود إبراز آيات الله فى الإنسان والكون والحياة ، والتذكير بنعمة الله .

فالتصوير والرسم ، شأنه شأن كل شيء ، يحتمل أن يكون محرمًا أو مباحًا ؛ فالأمر هنا يتوقف على نية المصور والرسام،وكذلك على نية الشخص الذى يستخدم الصورة واللوحة ، فالرسم والتصوير هنا - بتعبير علماء أصول الفقه - ليس محرمًا لذاته، بل قد يحرم لغيره ، أى: لما قد يقترن به من محرمات !!

ووضعاً للأمور فى نصابها الصحيح ، ومنعاً للخلط والإبهام ، يتعين أن نحدد المقصود بـ « الصورة »،التى ورد النهى عنها فى الأحاديث النبوية الشريفة ، و «المصورين» فى عرف المسلمين فى الصدر الأول للإسلام .

فمما لا شك فيه أن المقصود بـ« الصور » فى سياق الأحاديث النبوية هو «التماثيل»، فالصور عند العرب قديمًا يقصد بها « الأصنام » و« الأوثان » ، فهم لم يعرفوا فى ذلك الوقت آلات التصوير ، أو الرسم بالألوان ، فكانت « الصورة » على هيئة تمثال ينحت ، أو يحفر على الحجر والخشب ، أو يرسم بالنسج على المنسوجات ، أما التصوير الضوئى فلا عهد لهم به .

ويبدو أن « الصور : التماثيل » آنئذ كانت مما يعبدها الناس ويقدسونها من دون الله،كما هو حال الأصنام والأوثان عند العرب ، وكذلك تقديس النصارى والمجوس لزعمائهم ورؤساء دينهم فى صورة تماثيل لهم .

وقد روى مسلم عن أبى الضحى ، قال : كنت مع مسروق فى بيت فيه تماثيل ، فقال لى مسروق : هذه تماثيل كسرى ؟ فقلت : لا ، هذه تماثيل مريم ، كأن مسروقًا ظن أن التصوير من مجوس ، وكانوا يصورون صور ملوكهم حتى فى الأوانى ، فظهر أن التصوير كان من نصارى ، وفى هذه القصة قال مسروق : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون ».

وفى الحديث الذى يرويه أبو هريرة ، أن الرسول قال متحدثاً عن خير الناس يوم القيامة :« يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين ، ثم يقال : ألا تتبع كل أمة ما كانوا يعبدون ؟ فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب الصور صوره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون » رواه الشيخان .

فالحديث يشير إلى أن الأمم التى حادت عن التوحيد قد تمثلت لها معبوداتها ، فالصليب للنصارى ، والصور ـ أى الأصنام والأوثان ـ للوثنيين ، والنار للمجوس ، فالصورة ـ كما يؤكد الحديث ـ هى ما كان يعبده المشركون ، وما كانوا يعبدون «الصور» التى نعرفها اليوم ، بل كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، فهى المقصودة بالنهى .

وعلى ذلك فإن « الصور الضوئية » و« اللوحات المرسومة » إن كانت لغير ذى روح من النباتات والزهور والأشجار والبحار والأنهار والجبال والشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وغير ذلك مما تحويه الطبيعة من نبات أو جماد ، فإن تصويرها أو رسمها من الأمور المباحة بلا ريب .

ويؤيد هذا ، أن رجلاً من أهل العراق ، كان يحترف التصوير جاء إلى عبد الله بن عباس ، فقال له : « إنى رجل أصور هذه الصور ، فافتنى فيها »، فقال له ابن عباس: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، وهو يقول :« كل مصور فى النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس تعذبه فى جهنم »، ثم يوجه ابن عباس الرجل إلى إمكانية أن يقوم بتصوير ما لا روح أو حياة فيه ، فيقول له : « فإن كنت فاعلاً ، فاجعل الشجر

وما لا نفس فيه » رواه الإمام أحمد .

والصورة واللوحة أيضاً إذا كانت لذى روح ، ولا تحتوى على أى أمر يتعارض مع صحيح الدين ، كتقديس صاحب (أو صاحبة) الصورة ، أو أن تهدف الصورة إلى إثارة الشهوات ، كالصور العارية ، وغير ذلك من المحظورات الدينية ، فإنها ـ أى الصورة أو اللوحة ـ إذا خلت من ذلك تدخل فى نطاق الإباحة .

وقد روى الترمذى عن عتبة أنه دخل على أبى طلحة الأنصارى يعوده ، فوجد عنده سهل بن حنيف ، قال : فدعا أبو طلحة إنسانا ينزع تحته نمطاً (أى ثوبًا أو بساطًا فيه نقوش وتصاوير) فقال له سهل : لم تنزعه ؟ قال : لأن فيه تصاوير، وقال فيه النبى ﷺ ما قد علمت ، قال سهل: أو لم يقل : « إلا ما كان رقماً فى ثوب » ، أى: ما يزين الثوب من صور ورسوم .

بل إننا نجد فى السنة العملية للنبى ﷺ فى بيته ما يزيل هذا الالتباس ، حيث يقول أنس بن مالك : كان قرام (أى ستر به صور ونقوش) لعائشة قد سترت به جانب بيتها، فقال لها الرسول ﷺ:« أميطى عنا قرامك هذا ، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » رواه الإمام أحمد .

فنحن نرى من هذا الحديث أن علة الكراهة أو التحريم ، ليست فى الستر ذى الصور فى حد ذاته ، وإنما تتعلق بأنه ـ وهو أمامه ـ يشغله عن الصلاة ،فإذا ما انتفت هذه العلة ، انتفى التحريم ، وعاد الأصل وهو الإباحة .

وفى رواية أخرى لهذا الحديث ، ما يؤكد هذا المعنى الذى ذهبنا إليه ، فعن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ـ أى صورة لذى روح ـ وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال لى الرسول ﷺ: « حولى هذا ، فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » رواه مسلم .

فالنبى الكريم هنا لم يأمر عائشة بتمزيق الستر ذى الصورة ذات الروح أو حرقها أو إتلافها ، وإنما أمر فقط بتحويله من مكانه إلى مكان آخر .

وفى سياق الحديث عن النعم التى أعدها الله لعباده المتقين فى جنات النعيم، يحدثنا النبى ﷺ،فيما يرويه على بن أبى طالب:« إن فى الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من النساء والرجال ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها » رواه الإمام أحمد .

رأى بعض العلماء :

نخلص من العرض السابق لموقف الإسلام ـ من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية القولية والعملية ـ من الرسم والنقش والتصوير الضوئى ـ الفوتوغرافى ـ إلى إباحة ذلك، ونحن حينما ننتهى إلى هذا الرأى ، مطمئنين إليه ، لا ننظر إلى أمر واقع ، أو ضرورة ملحة ، وإنما نستلهم هذا الرأى من روح الشريعة ومقاصدها ، بل من النصوص النبوية التى عرضنا لبعض منها ، وقد ذهب إلى الحل أو الإباحة للرسم والتصوير كثير من العلماء والفقهاء القدامى والمعاصرين ، ونعرض فيما يلى لرأى بعضهم :

يقول الطحاوى ـ وهو من أئمة المذهب الحنفى : « إنما نهى الشارع أولاً عن الصور كلها ـ وإن كانت رقما ـ لأنهم كانوا حديثى عهد بعبادة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه عن ذلك أباح ما كان رقما فى ثوب للضرورة إلى اتخاذ الثياب ، وأباح ما يمتهن ؛ لأنه يأمن على الجاهل تعظيم ما يمتهن ، وبقى النهى فيما لا يمتهن » [1] .

ويقول فضيلة الشيخ محمد عبده ، بعد وصفه لما شاهد فى متاحف « صقلية » وبعد حديثه عن دور الرسم والصور فى « حفظ العلم وتخليده » : « وربما تعرض لك مسألة ، وهى : «ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية ؟ إذا كان أوضاعهم القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجسمانية؟ هل هذا حرام أو جائز أو مكروه ، أو مندوب ، أو واجب ؟

فأقول لك: إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم الصورة قد محى من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتى ، وهو يجيبك مشافهة ـ لاحظ أن المفتى هنا هو المتكلم، وهذا جوابه !! ـ فإذا أوردت عليه حديث: « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » ، أو فى معناه مما ورد فى الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه ـ أى هو ـ سيقول لك : إن الحديث جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين :

الأول : اللهو .

والثانى : التبرك بتمثال من ترسم صورته من الصالحين .

---

(١) سيد سابق: فقه السنة دار الكتاب العربى ، ٣/ ٣٦٩ .

والأول ما يبغضه الدين ، والثانى : مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شاغل عن الله ، فإذا زال هذان العارضان ، وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السورة ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضوع النزاع ، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه .

ولا يمكنك أن تجيب المفتى : بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فإنى أظن أنه يقول لك : إن لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق ، كما يجوز أن يكذب ؟!

وبالجملة : فإنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيه على الدين ، لا من جهة العقيدة ، ولا من جهة العمل ، وليس هناك ما يمنع المسلمين من الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية » [1] .

ويقول فضيلة الشيخ محمد السايس : « ولعلك تريد أن تعرف حكم ما يسمى بالتصوير الشمسى ، فنقول : يمكنك أن تقول: إن حكمها حكم الرقم فى الثوب ، وقد علمت استثناءه نصًا ، ولك أن تقول : إن هذا ليس تصويراً، بل حبسًا للصورة ، وما مثله إلا كمثل الصورة فى المرآة ، لا يمكنك أن تقول :إن ما فى المرآة صورة ، وإن أحداً صورها ، والذى تصنعه آلة التصوير « الفوتوغرافية » تثبيت الظل الذى يقع عليها، والمرآة ليست كذلك،ثم توضع الصورة أو الخيال الثابت « العفريتة » فى حمض خالص فيخرج منها عدة صور،وليس هذا بالحقيقة تصويرا،فإنه إظهار واستدامة لصور موجودة ، وحبس لها عن الزوال،فإنهم يقولون:إن صور جميع الأشياء موجودة غير أنها قابلة للانتقال بفعل الشمس والضوء ، ما لم يمنع من انتقالها مانع ، والحمض هو ذلك المانع ، ومادام فى الشريعة فسحة بإباحة هذه الصور ، كاستثناء الرقم فى الثوب فلا معنى لتحريمها ، خصوصًا وقد ظهر أن الناس ، قد يكونون فى أشد الحاجة إليها»[2].

---

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تحقيق : د. محمد عمارة ، ٢/٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٢) محمد السايس : آيات الأحكام ، ٤/٦١ .

ويقول الشيخ محمد بخيت ـ مفتى مصر الأسبق : « إن أخذ الصورة بالفوتوغرافيا ـ الذى هو هنا عبارة عن حبس الظل بالوسائط المعلومة لأرباب هذه الصناعة ـ ليس من التصوير المنهى عنه فى شيء ؛ لأن التصوير المنهى عنه هو إيجاد صورة وصنع صورة لم تكن موجودة ولا مصنوعة من قبل ، يضاهى بها حيواناً خلقه الله تعالى ، وليس هذا المعنى موجوداً فى أخذ الصور بتلك الآلة » ، كما نقل الشيخ بخيت عن الخطابى قوله: «الذى يصور أشكال الحيوان ، والنقاش الذى ينقش أشكال الشجر ونحوها ، فإنى أرجو ألا يدخلا فى هذا الوعيد ، وإن كان جملة هذا الباب مكروهاً ، وداخلا فيما يشغل القلب بما لا يعنى » ، وقد علق الشيخ بخيت على هذا بقوله : « وما ذاك إلا لأن مصور شكل الحيوان لا يوجد صورة الحيوان ، بل إنما يرسم شكله وصورته ، والصورة التى على هذا الوجه قد فقدت أعضاء كثيرة لا تعيش بدونها ، بل هى فاقدة للجرم ، فليست هى صورة الحيوان التى يكلف مصورها يوم القيامة نفخ الروح فيها ، وليس بنافخ ؛ لأن الظاهر أن الصورة التى يقال فيها ما ذكر ، هى الصورة المجسمة ذات الظل التى لم تفقد عضواً لا تعيش بدونه ، حتى تكون قابلة بذاتها لنفخ الروح فيها ، فيكون عجز المصور عن النفخ راجعاً إليه ، لا لعدم قابلية الصورة للحياة » (١) .

ويقول الشيخ جاد الحق على جاد الحق ـ شيخ الأزهر السابق : « الذى تدل عليه الأحاديث النبوية الشريفة ـ التى رواها البخارى وغيره من أصحاب السنن ترددت فى كتب الفقهاء ـ أن التصوير الضوئى للإنسان والحيوان المعروف الآن ، والرسم كذلك لا بأس به متى كان لأغراض علمية مفيدة للناس ، إذا خلت الصور والرسوم من مظاهر التعظيم ومظنة العبادة والتكريم ، وخلت كذلك من دوافع تحريك غريزة الجنس وإشاعة الفحشاء والتحريض على ارتكاب المحرمات » (٢) .

تراث التصوير الإسلامى :

لم يكن التصوير الإسلامى فى بدايته ذا موضوع بالمعنى المعروف اليوم ،وهى العلاقات التى تربط عناصر الصورة ، فكان غالباً ما يدور حول شخص فى موقف ما ، ومع بداية انتشار الإسلام بين شعوب وأمم وحضارات مختلفة ، بدأت تدخل عناصر

---

(١) رسالة الجواب الشافى فى إباحة التصوير الفوتوغرافى .

(٢) جاد الحق على جاد الحق : مرجع سابق ، ص ٣٤٥٥ .

جديدة فى فن الرسم والتصوير الإسلامى ، وعكست موضوعات التصوير حياة الأمراء وبلاط الملوك والسلاطين ،كما تكشف لنا أعمال المصورين المسلمين عن الواقعية التى كانت جزءاً من فنهم ، حيث صوروا الحياة اليومية لمختلف فئات المجتمع ، فازدانت بصورهم القصور والتكايا ، والخانات ، والأسواق ، والمدارس والمكتبات، والحدائق والحمامات ، والمقابر، والأسبلة، والسقف، والأبواب ، والنوافذ، والسيوف، والعصى، والسجاد ، والمنسوجات ،والستائر ، والأثاثات ، والزجاج، والأوانى المعدنية ، وآغلفة الكتب والمخطوطات . . . إلخ .

وكانت هناك أعمالاً فنية تصور المواكب العامة ، مثل : موكب الحجيج ، وقدوم شهر رمضان والأعياد ، وكذلك تصوير ركوب البحر وأعمال الصيد ، ومن الأعمال الفنية التى ازدهرت فى ظل الحضارة الإسلامية ، وأبدعها وتميز فيها المصور المسلم، فن التصاوير الفسيفسائية والرسوم الجدارية ، وأيضاً فن المنمنمات ، وهى صور إيضاحية لتزيين الكتب ذات الأهمية ، وكثيراً ما تحدد معانى الموضوعات الواردة فى الكتاب ، وقد أبدع الفنان المسلم فى دمجه بين « المصور » و « المجرد » فى آن معاً .

ومن أشهر هذه المنمنمات ، ورسومات« الواسطى » على مقامات الحريرى ، حيث تظهر تلك الرسومات التعديل الذاتى الذى قام به الفنان المسلم على الأصل البيزنطى لهذا الفن ، حيث ابتعد عن رسم الهالات المقدسة للأشخاص وتحولت إلى حواف ملونة، وكذلك اهتمامه بالتفاصيل التفاصيل المميزة لكل شخصية مرسومة من حيث الحركة والإيماءة (١).

لقد ازدهر فن التصوير الإسلامى ـ رسمًا أو نحتًا أو نسجًا ـ ويستشف من المصادر التى توافرت من خلال الآثار الفنية والمخطوطات وغيرها ، أن سوق المصورين كانت رائجة فى العصور الإسلامية المزدهرة ، وقد أشار المؤرخ الإسلامى « المقريزى » إلى أحد الكتب فى طبقات المصورين ، كان عنوانه « ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس » ، كما أورد المقريزى أيضاً أسماء بعض المصورين الذين اشتهروا فى العصر الفاطمى ، مثل القصير وبنى المعلم والنازوك والكتامى . . . وهم من المصريين .

وقد كان الفنان المسلم فى تصويره للكائنات والموجودات فى الكون ، ينتقل من

(١) د. وفاء إبراهيم : فلسفة فن التصوير الإسلامى ، هيئة الكتاب ، ص٢٣ .

تصوير الجمال إلى إيضاح الجلال للخالق المبدع ذى الجلال .

كذلك فإن تاريخ سك النقود الإسلامية منذ عصر النبوة يشير إلى عدم وجود هذه الحساسية المفرطة تجاه الرسم والتصوير ،وقد دأب ولاة المسلمين من خلفاء وملوك وأمراء على ضرب النقود ذات الصور والرسوم المختلفة للأشياء ، وكذلك للكائنات الحية من إنسان وحيوان وطير ، بل أقر خلفاء المسلمين التعامل بنقود الأمم الأخرى غير المسلمة ، وفيها ما فيها من الصور ، وأن يتداولها المسلمون فى ديار الإسلام !!

وهذه أمثلة من التاريخ الإسلامى تؤيد ما ذكرنا :

أقر الرسول ﷺ النقود التى كان يتعامل بها العرب فى الجاهلية ، وكانت ترد من ممالك الفرس والروم المجاورة ، وكانت مصورة !!

ـ ضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقوداً ذات رسوم كسروية .

ـ ضرب معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه دنانير منقوش عليها صورة رجل شاهراً سيفه .

ـ كما ضرب الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان دراهم ودنانير منقوش عليها صورة الخليفة وهو ناهض قابض بيده على قبضة سيفه ، وكان إمام التابعين الإمام الفقيه الورع سعيد بن المسيب رضي الله عنه يتعامل بهذه النقود ولم ينه عن تداولها ، وهو أحد الفقهاء السبعة فى المدينة المنورة آنئذ .

الصور العارية :

إذا كنا قد خلصنا إلى الرأى القائل بإباحة الرسم والتصوير ، فإن هذه الإباحة مقيدة بمضمون الصورة وموضوعها ، فإذا كان موضوعها مما لا يتعارض مع العقيدة والشريعة ثبتت الإباحة ، وإن كان مما يتعارض مع ذلك انتفت الإباحة .

فلا ريب أن الصور العادية أو شبه العارية للنساء ـ والرجال أيضاً ـ وإبراز المفاتن بما يثير الغرائز والشهوات ، مما يدخل الصورة أو اللوحة فى دائرة التحريم والتجريم ، وينسحب هذا التحريم من الرسم والتصوير ، إلى العرض والنشر والاقتناء والمشاهدة .

لقد دأبت كثير من الصحف والمجلات ـ ناهيك عن السينما والتليفزيون ـ على نشر الصور العارية ، بل هى لا تتورع عن إبرازها فى صدر صفحاتها الأولى ، وفى تبرير القائمين بهذ العمل الشائن ، يزعمون أن فى ذلك ترقية للوعى الفنى ، ويستخفون

بالعقول ، فيدَّعُون أن فى الصور العارية ما يحمل معنى الإحساس بالجمال ، والشكر والحمد لله واهب هذا الجمال ، أليس الله جميل يحب الجمال؟

وهكذا يهرفون بما لا يعرفون ، حقاً إن الإسلام بتوجيهاته وتعاليمه وآدابه ،يسمو بالذوق ، ويعلى أمر الجمال النظيف ، ويفسح المجال أمام الفنون والآداب الرفيعة ، كى تؤدى رسالتها النافعة فى خدمة المجتمع ، ولكن ذلك ـ فى إطار المنهج الوسطى للإسلام ـ لا يعنى أن يكون الفن والجمال وسيلة لإطلاق الغرائز من عقالها ، وإيقاظ الشهوات من سباتها وتوجيهها إلى غير هدفها الصحيح ، فتضرب فى كل واد ، وتتجاوز كل حد .

إن العرى والابتذال مرفوض ، والذين يروجون للصور العارية ، بزعم أنهم يقصدون الرمز لقضية إنسانية ، أو الإسقاط على ظاهرة اجتماعية بما يسمى بالطريقة «السريالية » التى يتم تفسير منهجها بتحليل الرمز ، كل هذا يؤثر سلباً على أخلاقيات المجتمع ، ويدفعه لاكتساب سلوكيات مرفوضة ، ويوحى له بإيحاءات تثير الغرائز والرغبات الكامنة ، خصوصاً لدى الشباب ، ذلك أن المتلقى ـ مهما كانت ثقافته ـ قد لا يصل إلى المعنى المجهول ؛ الرمز الذى يزعمه الفنان ؛ المصور أو الرسام .

ومثل هذا الفنان الذى يصر على هذا الأسلوب المبتذل ، هو فنان غير واع بظروف مجتمعه وما يحتاج إليه من تهذيب النفس البشرية ، بحيث يجب عليه أن يعبر بأدوات نظيفة ، ومن خلال فن نظيف ـ ليبرز ـ بالصورة أو اللوحة ـ الإنسان والنبات والجماد ، ليرمز إلى قضايا العصر ، وإلى مفاهيم يجب أن يوصلها إلى الناس فى المجتمع ، مفاهيم تتعلق بتقوية الإرادة ومقاومة الرذيلة ، فإذا نظرنا إلى حضارتنا العربية الإسلامية، نجد أنها لم تقم فى أى عصر من العصور على الفنون المبتذلة ، ولكن قامت على أمجاد وبطولات أنجبت فنوناً صورت مآثر الأولين ، وأشارت إلى إبداع الخالق عز وجل فى مخلوقاته وكائناته .

فيجب أن يتجه المصور أو الرسام إلى إبراز هذه المعانى السامية ، بدلاً من الترويج للجنس عن طريق الفن ، لكى يصبح تجارة غير مشروعة ، والفنان المبدع الدارس والمثقف حقاً ، سوف يجد الوسيلة التى يعبر بها عن جميع المشاكل حتى تلك المتعلقة بالغريزة والجنس ، وذلك بصورة غير مباشرة من خلال رموز أكثر رقياً .

إن لكل فنان عالمه الخاص الذى يعيش فيه لحظات التأمل ، إلا أنه فى ذات الوقت يجب ألا ينفصل مطلقاً عن الواقع ومحيط المجتمع الذى يعيش فيه ، ويجب أن يعايشه بظروفه ومتغيراته ، وقيمه ومبادئه ، وعاداته وتقاليده ، التى تدور فى فلك العقيدة الدينية .

حكم التماثيل

التمثال : لغة : الصورة ، والجمع التماثيل ، وظل كل شيء : تمثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبهًا بخلق من خلق الله،وأصله: من مثلت الشيء بالشيء : إذا قدرته على قدره ،ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيهاً به ،واسم ذلك الممثل تمثال(١).

فالتمثال : ما كان له ظل ، والصورة : ما لم يكن لها ظل ، فكل تمثال صورة ، وليس كل صورة تمثالاً .

والصور التماثيل ، هي التي يكون لها ظل ، وهي المصنوعة من الحجر أو الجبس أو الخشب أو المعادن (نحاس ـ حديد ـ برونز ـ ذهب ـ فضة ... إلخ) وغير ذلك، وهذه هي التماثيل . أما الصور التي ليس لها ظل ، وهي الصور « الفوتوغرافية » ، أو المرسومة على لوحة خشبية أو ورقية ، أو على السجاد والستائر ، أو المنقوشة على الجدران ، أو نحو ذلك ، فلا يعد من قبيل التماثيل .

وبداية ، فإن الإسلام إذا كان يقف موقفاً مرناً ومبيحًا ـ كما تبين من الصفحات السابقة ـ للنوع الأخير من الصور ، أي التي ليس لها ظل ، فإن الأمر جد مختلف ، إزاء النوع الأول من الصور والتماثيل ، أي التي لها ظل ، إذ نلحظ التشدد والاحتراز .

وقد ورد الحديث عن التماثيل بهذا المعنى الأخير صراحة في القرآن الكريم ، في موضعين اثنين .

ففي الأول،يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، « مثل » .

فنحن نرى من هذه الآيات تحريم القرآن للتماثيل ؛ الأصنام التى عبدها قوم إبراهيم من دون الله ، إلى الحد الذى يجعل خليل الله إبراهيم ـ وبأمر ربه ـ يحطم هذه «التماثيل » ، التى هم لها عاكفون ، ويستنكر القرآن عملهم الشائن هذا ، ويعرض بهم : ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [الأنبياء] ، وفى موضع آخر : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات] .

وهذا الذى فعله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، هو عين ما فعله خاتم الأنبياء محمد ﷺ حينما حطم الأصنام ـ التماثيل المعبودة ـ التى كانت تحيط بالكعبة المشرفة ، وهو يهتف بقول الله تعالى والمسلمون معه : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء]

أما الموضع الثانى ، الذى ورد فيه حديث القرآن عن « الثماثيل » باللفظ الصريح، ففى قوله تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبا] .

يدل ظاهر هاتين الآيتين ـ كما يرى البعض ـ على إباحة صنع واقتناء التماثيل ، وهم يستندون ـ فى هذا الاستدلال ـ إلى أن الله تعالى ذكر « التماثيل » فى معرض الامتنان بنعمه التى أنعم بها على سليمان عليه السلام ؛ فهو قد سخر له الريح ، وأتاح له عيناً تفيض بالنحاس المذاب (القِطْر) وسخر له الجن تصنع له بعضاً من زينة الحياة الدنيا وجمالها؛ بيوتاً عالية (محاريب) ، وحفراً كبيرة (جفان) ، وقدورا راسيات ، وأيضاً « تماثيل » من زجاج ونحاس ورخام ، تصور الأحياء، بل وتصور الأنبياء والعلماء ، كما يقول القرطبى فى تفسيره .

على أن هذا الفهم الذى يقتضى إباحة التماثيل ينقضه كثير من العلماء ، على اعتبار أن هذه التماثيل التى ذكرت فى هذه الآية ، حتى على فرض إباحتها ، أو على فرض أنها كانت لذى روح وهو ما ليس بيقين ، هى من قبيل « شرع من قبلنا » ، الذى يثبت حكمه إذا لم يرد له ناسخ ، أما وقد ورد فى الشريعة الإسلامية ـ القرآن

والسنة ـ ما ينسخ هذا الحكم ويقضى بحكم آخر ، فإن هذا « الحكم الإسلامى » الأخير هو النافذ .

وإذا كان هذا هو الموقف الواضح للقرآن الكريم إزاء تحريم التماثيل ، فإن موقف السنة النبوية الشريفة كانت بنفس هذا الوضوح .

فقد روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال : « إن أصحاب هذه الصور (التماثيل) يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » . ولن يستطيعوا ، وإنما يقال لهم ذلك على سبيل التعريض والتقريع لهم .

كما روى الشيخان والنسائى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل كان يصنع التماثيل، سمعت النبى ﷺ يقول: « من صور صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبداً »، ثم قال له ابن عباس: «إن أبيت إلا أن تصنع ، فعليك بالشجر، وكل شىء ليس فيه روح ».

كما روى الإمام مسلم عن أبى الهياج الأسدى ،قال : قال لى على رضي الله عنه :ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ: ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته .

فكل هذه النصوص تدل دلالة قاطعة على تحريم التماثيل بيعًا وشراء ؛ وعرضاً واقتناء .

حكمة تحريم التماثيل :

العقل الإسلامى ـ ومن ورائه توجيهات العقيدة ـ يسقط التجسيد أو التشخيص كوسيلة للمعرفة ، ولذلك فالنفور من النحت فى الإسلام لم يكن موقفاً ضد الوثنية فقط ، بل موقفاً ضد ظاهر الأشياء ؛ لأن ظاهر الشىء ليس حقيقته .

العقل الإسلامى يتربى على الإيمان بالله إلهاً واحدًا ، وحقيقة لا يمكن أن تتجسد ولو بالتصور ، فالآية الكريمة تقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، وهى بذلك تعلم المسلم كيف يؤمن بالله حقيقة مجردة ، ولذلك ـ مع تحريم تصوير الرسول ﷺ وأهل بيته والصحابة ـ عرف الفن الإسلامى منذ البداية التعبير المجرد البعيد عن التجسيد للمخلوقات كلها ، وكانت الحلول التى طرحتها التعبيرات الفنية الإسلامية ، تعتمد على

الوحدة الزخرفية وعلى تشكيلات الحرف والكلمة [1] .

إن مزاج الروح الإسلامية لم يتح ـ عبر تاريخ الحضارة الإسلامية ـ لفن النحت للتماثيل الإنسانية أن يزدهر ، بل أن يكون مقبولاً ولا مألوفاً ،فغابت التماثيل المنحوتة للإنسان من حياة الحضارة الإسلامية ، منذ أن تطوى الإسلام صفحتها الجاهلية ، والتى كانت هى الأخرى مجلوبة من خارج شبه الجزيرة العربية ، من مواطن تأثير الوثنيات الهندية واليونانية والرومانية .

غابت التماثيل المنحوتة من حياة حضارتنا الإسلامية ، منذ طى هذه الصفحة الجاهلية ، وحتى صفحة الاتصال الحديث والمعاصر بالتطور الغربى ، ذلك الاتصال الذى تم فى ظل هيمنة الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام ، حتى لقد رأينا اللجنة التى تكونت بمصر لتخليد ذكرى على باشا مبارك (١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ / ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م) عقب وفاته ، تعدل عن إقامة تمثال له ، بعد أن اجتمع لها المال الذى جمع لذلك ، وتختار أن تقيم به بدلاً من التماثيل ـ مدارس لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء ، معللة ذلك على لسان رئيسها ؛ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) « بأن معظم الأمة المصرية تعد التماثيل إهانة لا تكريماً ، ويسمون التمثال « الصورة الممسوخة » [2] .

وقد يزعم زاعم أن السبب فى تحريم التماثيل فى الإسلام أن الناس كانوا يقدسونها ويعبدونها من دون الله ، فإذا انتفت مظنة العبادة لها فى عصرنا الحاضر ، انتفى التحريم !!

وهذا زعم ما أنزل الله به من سلطان ؛لأن تحريم التماثيل فى الإسلام يعد تحريمًا مطلقاً أبدياً لا يحده ولا يقيده زمان أو مكان ، فالله سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بميوله وأهوائه ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك] ، بل إنه تعالى ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴿٧﴾ ﴾ [طه] .

وإذا نحن نظرنا إلى واقع العصر الذى نعيش ،ورغم هذا التقدم العلمى المذهل مازال هناك من البشر من يعبد البقر ويقدس روثها .

---

(١) منير كنعان : مجلة القاهرة ، عدد (١٢٤) ، مارس ١٩٩٣م ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) د . محمد عمارة : مرجع سابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

بل إننا لنجد فى إفريقيا حالياً بعض القبائل مازال يعبد الأصنام ،وكذلك فى بعض دول الشرق الأقصى مازالت التماثيل تنتصب فى المعابد ، تلقى الخضوع والعبادة والتقديس من دون الله تعالى .

وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت بعض الأديان فى أكبر الدول تحتفظ بطابع اللامعقول ، طابع يتميز بأنه ضد العقل والمنطق والتفكير السليم ، ويتغافل هذا الطابع فى كثير من زواياها ، ولكن الإلف والزمن ، والتكرار والتعود ، كل ذلك جعل منها أديانا استمرت فى الماضى ، ومازالت تستمر فى الحاضر مع أنها خرافات وأساطير ، وقد أعلن كبار مؤرخى الأديان عن الأساطير فيها والخرافة ، ومع ذلك مازالت مستمرة ، وأمر الإنسان فى الحاضر أو فى الماضى غريب ، إن الإلف يغرس فى شعوره أن المألوف صحيح ، وأن ما عليه الأجداد والآباء من العقائد حق ، إنه يفعل ذلك دون تأمل أو فحص ، بل إنه يفر ويهرب من التأمل والفحص إذا أداه ذلك إلى إنكار المألوف من العقائد ، ويسكت فى نفسه بالقهر صوت الإنكار أو النقد (١) .

ومن هذا يتبين تحريم الإسلام للتماثيل تحريماً أبدياً « ولا عجب فى دين من قواعد شريعتة سد الذرائع إلى الفساد ، أن يسد كل المنافذ التى يتسرب منها إلى العقول والقلوب شرك ؛ جلى أو خفى ، أو مشابهة للوثنيين وأهل الغلو من الأديان ، ولا سيما أنه لا يشرع لجيل أو جيلين ، وإنما يشرع للبشرية كلها فى شتى بقاعها ، وإلى أن تقوم الساعة ،وما يستبعد فى بيئة قد يقبل فى بيئة أخرى ، وما يعتبر مستحيلاً فى عصر قد يصبح حقيقة واقعة فى عصر آخر ـ قريب أو بعيد ـ كما سبق أن بينا .

ومن أسرار التحريم بالنسبة للصانع (المثال) أن ذلك المصور أو المثال الذى ينحت تمثالاً ؛ يملؤه الغرور،حتى لكأنما أنشأ خلقاً من عدم،أو أبدع كائناً حياً من تراب،وقد حدثوا أن أحدهم نحت تمثالا،مكث فى نحته دهراً طويلاً ، فلما أكمله وقف أمامه معجباً مبهورا أمام تقاسيمه وتقاطيعه،حتى إنه خاطبه فى نشوة من الغرور والفخر : تكلم . . تكلم !!

وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت التماثيل ـ ولا تزال من مظاهر أرباب الترف والتنعم، يملؤون بها قصورهم، ويزينون بها حجراتهم،ويتفننون فى صنعها من معادن مختلفة ،

---

(١) د. عبد الحليم محمود : موقف الإسلام من الفن والعلم الفلسفة ،دار التعاون ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

وليس بعيداً على دين يحارب الترف فى كل مظاهره وألوانه ؛ من ذهب وفضة وحرير أن يحرم كذلك التماثيل فى بيت المسلم » [(١)] .

وهذا مثال آخر حى ومعاصر، نعرضه لكل من يستحيل فى نظره أن يفتتن إنسان العصر الحديث ـ فى ظل التقدم العلمى المذهل ـ بتمثال منحوت ، إلى درجة تفضيل هذا التمثال الجماد على الإنسان صنعة الله .

وقد ورد ذلك فى كتاب « الثقافة الإسلامية » للأستاذ محمد مرما دوك بكتال ؛ قال : « لا شك أن بعضكم يذكر البحث الذى أوردته الصحف البريطانية منذ سنوات ، وكان السؤال : لنفرض أن تمثالاً يونانيًا شهيراً ؛ جميلاً فريداً فى نوعه ، وهو من أجل ذلك لا يعوَّض ، كان فى غرفة واحدة مع طفل حى ، ثم اندلعت النيران فى الغرفة ، ولم يكن فى الإمكان إلا إنقاذ واحد من الاثنين ، إما التمثال وإما الطفل، فأيهما يمكن إنقاذه ؟!

إن كثرة عظمى من الذين أجابوا على هذا السؤال ـ الغريب العجيب ـ فى رسائلهم إلى تلك الصحف من الرجال ذوى الثقافة والمكانة المرموقة ، قالوا : إنه يجب إنقاذ التمثال ، وترك الطفل يهلك !

وكان حجة أصحاب هذا الرأى الغريب : أن ملايين الأطفال يولدون يومياً ، وذلك على عكس هذا التمثال التاريخى النادر، والذى لا يمكن تعويضه ، فإنه عمل فنى عظيم من تراث اليونان !!

أليس ذلك دليلاً على إمكانية تحول الإعجاب بهذا التمثال إلى عبادته ، كما يحدث فى عصرنا بالفعل ، بدليل إبداء الاستعداد لاستنقاذه وهو حجر ،وبترك طفل برىء للنار تحرقه ؟!

تماثيل العظماء والزعماء :

يقول المفكر الإسلامى السورى محمد المبارك فى هذا الموضوع فى محاضرة ألقاها فى جامعة الأزهر الشريف : « تواجهنا وتدخل حياتنا الاجتماعية طرائق وتنظيمات وعادات اجتماعية كثيرة ، منها ما لا يتفق مع معتقداتنا الصحيحة ، ومبادئنا الخلقية القويمة ، فمن ذاك : الطريقة التى سلكها أهل أوربا وأمريكا فى تخليد أبطالهم فى

(١) د. يوسف القرضاوى : الحلال والحرام ، المكتب الإسلامى ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

تماثيل تنصب لهم، ولو نظرنا فى هذا الأمر نظرة التحرر من ذلة الخضوع لكل ما تمليه حضارة الغرب، وتأملنا فى فلسفة هذه الطريقة فى التعبير عن تخليد الأثر والمكارم ؛ لوجدنا أن العرب بوجه خاص لم يخلدوا من عظماء رجالهم إلامكارمهم وأعمالهم المجيدة الطيبة ، كالوفاء والكرم والشجاعة، وأن طريقتهم فى تخليدهم كانت فى ذكر قصص بطولاتهم وتناقلها بين الناس جيلاً بعد جيل ،أو فى نظم الشعر فى مدحهم، والإشادة بهم، وبهذه الطريقة خلد حاتم بكرمه، وعنترة بشجاعته قبل الإسلام.

ولما جاء الإسلام أكد هذا المعنى ، فجعل أشرف الخلق وخاتم الرسل بشراً من الناس ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [الكهف: ١١٠]، وجعل قيمة الناس بأعمالهم لا بأجسامهم ،وجعل الرسول قدوة يقتدى به البشر ، ونهى عن تقديس البشر ،وتعظيمهم تعظيمًا يشبه العبادة ، ويتضمن احتقار النفوس البشرية الأخرى .

ولذلك نادى الخليفة الأول حين انتقل رسول الله إلى جوار ربه : من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى :﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

لقد خلد الإسلام الناس بأعمالهم الصالحة النافعة ، وخلد فى قلوب المسلمين ـ خواصهم وعوامهم ـ رجالات الإسلام ؛ فعرف كبيرهم وصغيرهم عمر بالعدل ، وأبا بكر بالحزم والحكمة ، وعلياً بالزهد والشجاعة ، ولم يحتج أحد منهم إلى تمثال مادى من الحجر ينصب ليتذكره الناس ، فقد خلدته أعماله وأخلاقه فى قلوبهم .

إن فى طريقة التخليد بإقامة التماثيل المادية رجوعاً إلى الوراء ، وانحطاطاً عن المرتبة السامية ، سلكها اليونان والرومان الأوربيون من بعدهم ؛ لأنهم جميعًا وثنيون فى طباعهم ، منحطون عن العرب والمسلمين فى مستوى خلقهم ، وتقديرهم للقيم الخلقية، بل إنهم لعجزهم عن تصور تحقيق البشر للمثل الأعلى بالبطولة ، ألحقوا أبطالهم بالآلهة وجعلوا الآلهة أبطالاً .

فالإسلام لا ينحى إلى تمجيد شخص مهما عظم، ولو كان من مبادئ الإسلام تمجيد الأشخاص لرأينا تماثيل للنبى والصحابة ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ رغم عظم منزلته عند الله قبل الناس ـ ينهى المسلمين عن المبالغة فى المدح والإطراء والتعظيم، فيقول: « لا

تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ،ولكن قولوا :عبد الله ورسوله » رواه البخارى .

بل لقد نهاهم عن مجرد القيام وقوفاً إذا رأوه تحية له وتعظيماً ، فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً » رواه أبو داود .

وجاءه نفر من الناس فقالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى .

إن الإسلام يهدف من وراء ذلك إلى سد الذرائع واتقاء الشبهات ، فنصب هذه التماثيل يخشى افتتان الناس بها ، وقد رأينا ـ فيما سبق ـ أن هناك شعوباً فى عصرنا الحاضر لازالت على عبادتها للأوثان والبقر !!

وقد روى أن الأصنام التى عبدها قوم نوح (ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر) التى ورد ذكرها فى سورة نوح ، كانت أسماءً لرجال صالحين من قوم نبى الله نوح عليه السلام ، وبعد موتهم نصب الناس تماثيل لهم ، تذكيراً بهم وبصالح أعمالهم ، وتعظيماً لشأنهم ، ثم تطور الأمر إلى عبادتهم .

وفى تفسير القرطبى ، ذكر الثعلبى عن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى :﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)**﴾ [نوح]: أن هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت من دون الله ».

وقال ابن العربى : « وقد شاهدت بثغر الإسكندرية ، إذا مات ميت صوروه من خشب فى أحسن صورة ، وأجلسوه فى موضع من بيته ، وكسوه بزيه إن كان رجلاً ، وحليتها إن كانت امرأة ، وأغلقوا عليه الباب ، فإذا أصاب واحداً منهم كرب أو تجدد له مكروه ، فتح الباب عليه وجلس عنده يبكى ويناجيه ، حتى يكسر سَوْرَةَ حزنه بإهراق دموعه ، ثم يغلق الباب عليه وينصرف ، وإن تمادى بهم الزمان تعبدوها من جملة الأصنام ».

والنتيجة التى ننتهى إليها فى هذا الموضوع : أن الإسلام لم يرد للأمة الإسلامية أن تدور حياتها حول تقديس المصلحين أو تعظيم المفسدين !! وذلك بإقامة التماثيل لهم، فليس من شأن الدين مطلقاً أن يصرف عواطف الناس إلى تقديس فرد مهما كان ، بل هو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وتوحيده ، فهو وحده الحقيق بالتعظيم والتمجيد والتقديس : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام] .

إباحة لعب الأطفال :

إذا كانت العلة فى تحريم التماثيل هى وضعها فى الميادين العامة أو الشوارع أو البيوت فى أوضاع توحى بالتمجيد والتعظيم ، مما يخشى معه خدش عقيدة التوحيد من قريب أو من بعيد ، حاضراً أو مستقبلاً ـ إذا كان ذلك كذلك ـ فإن هذه العلة منتفية ولا محل لها فى حالة لعب الأطفال ، كالعرائس وتماثيل الحلوى التى لا تلبث أن تؤكل ، فهنا لا مظنة للتعظيم ، بل هى ممتهنة ، فالطفل إما أن يلعب بها ، أو يأكلها !! كما أنه ليس من شأنها أن تبقى زمناً طويلاً .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات (لعب مجسمة) فربما دخل علىَّ رسول الله ﷺ وعندى الجوارى ، فإذا خرج دخلن ، رواه البخارى وأبو داود .

وعنها أيضاً ، قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، وكان يأتينى صواحب لى ، فكن ينقمعن ـ يختفين ـ حياءً من رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله يسر لمجيئهن إلىَّ ، فيلعبن معى . رواه الشيخان .

وعنها كذلك أن النبى ﷺ قدم عليها من غزوة تبوك أو خيبر ، وفى سهوتها ـ السهوة : الرف ـ ستر، فهبت الريح فكشفت عن بنات ـ لعب ـ لعائشة ، فقال : « ما هذا يا عائشة ؟» قالت : بناتى ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع ، فقال : «ما هذا الذى أرى وسطهن ؟ » قالت : فرس،قال :« وما هذا الذى عليه ؟» قالت : جناحان، قال :« فرس له جناحان ؟!» ،قالت: أما سمعت أنَّ لسليمان خيلاً لها أجنحة، قالت : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. رواه أبو داود والنسائى.

والسيدة عائشة كما نعلم كانت صغيرة السن ، فقد تزوجها الرسول ﷺ وهى بنت تسع سنين ، فكانت تلعب وصواحبها بالبنات ، أى باللعب والعرائس كما ورد فى الأحاديث السابقة .

قال الشوكانى : فى هذا الحديث دليل على أنه يجوز تمكين الصغار من اللعب بالتماثيل ، كما قال القاضى عياض : إن اللعب بالبنات للبنات رخصة .

وكذلك نقل الماوردى فى « الأحكام السلطانية »:أن أبا سعيد الإصطخرى من أصحاب الإمام الشافعى تقلد حسبة بغداد فى أيام المقتدر،وأقر سوق اللعب ولم يمنعها، وقال : قد كانت عائشة رضي الله عنها تلعب بالبنات بمشهد من رسول الله ﷺ ، فلم ينكره عليها .

وترتيباً على كل ذلك ، فإن لعب الأطفال المجسمة يتم استثناؤها من تحريم التماثيل؛ وتدخل فى دائرة الإباحة ، نظراً لكونها ممتهنة ، وأنها أداة تسلية ولعب للأطفال ، فضلاً عما تقوم به « العرائس » من تدريب البنات ، وتعويدهن على تربية صغارهن فيما بعد .

الآثار وسيلة لدراسة التاريخ :

إذا كان الإسلام يقف موقف التحريم من التماثيل على هذا النحو ،فما هو الموقف من الآثار والتماثيل الموجودة فى المتاحف والأماكن الأثرية ؟

ورداً على هذا السؤال الهام نثبت هنا هذه الفتوى [1] : «. . . إذا كان ذلك ، وكانت الأمم الموغلة فى القدم كالمصريين القدماء والفرس والرومان،وغير أولئك وهؤلاء ممن ملؤوا جنبات الأرض صناعة وعمراناً قد لجؤوا إلى تسجيل تاريخهم اجتماعياً وسياسياً وحربياً ؛نقوشاً ورسوماً ونحتاً على الحجارة،وكانت دراسة تاريخ أولئك السابقين والتعرف على ماوصلوا إليه من علوم وفنون، أمراً يدفع الإنسانية إلى المزيد من التقدم العلمى والحضارى النافع ،وكان القرآن الكريم فى كثير من آياته قد لفت نظر الناس إلى السير فى الأرض ودراسة آثار الأمم السابقة والاعتبار والانتفاع بتلك الآثار ، وكانت الدراسة الجادة لهذا التاريخ لا تكتمل إلا بالاحتفاظ بآثارهم وجمعها واستقرائها،إذ منها تعرف لغتهم وعاداتهم ومعارفهم فى الطب والحرب والزراعة والتجارة والصناعة،وما قصة حجر رشيد الذى كان العثور عليه وفك طلاسمه فاتحة التعرف علمياً على التاريخ القديم لمصر، وما قصة هذا الحجر وقيمته التاريخية والعلمية بخافية على أحد ، والقرآن الكريم حث على دراسة تاريخ الأمم وتبين الآيات فى هذا الموضع :

---

(١) جاد الحق على جاد الحق :مرجع سابق ، ص ٣٤٥٥ ـ ٣٤٥٧ .

إذ كان ذلك كذلك ، كان حتماً الحفاظ على الآثار والاحتفاظ بها سجلاً وتاريخاً دراسياً ؛ لأن دراسة التاريخ والاعتبار بالسابقين وحوادثهم ،للأخذ منها بما يوافق قواعد الإسلام والابتعاد عما ينهى عنه ، من مأمورات الإسلام الصريحة الواردة فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت] ، وقوله سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)﴾ [الروم] ، وقوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾ [فاطر] .

ولما كان التحفظ على هذه الآثار هو الوسيلة الوحيدة لهذه الدراسة ، أصبح حفظها وتهيئتها للدارسين أمراً جائزاً ، إن لم يكن من الواجبات ؛ باعتبار أن هذه الوسيلة للفحص والدرس ضرورة من الضرورات ، وقاعدة الضرورة مقررة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٩٠] .

وتخريجاً على هذا : كان الاحتفاظ بالآثار ؛ سواء كانت تماثيل أو رسوماً أو نقوشاً فى متحف للدراسات التاريخية ، ضرورة من الضرورات الدراسية والتعليمية لا يحرمها الإسلام لأنها لا تنافيه ، بل إنها تخدم غرضاً علمياً وعقائدياً إيمانياً حث عليه القرآن ، فكان ذلك جائزاً إن لم يصل إلى مرتبة الواجب ، بملاحظة أن الدراسات التاريخية مستمرة لا تتوقف ».

الفصل الخامس

الفن القصصى والأدبى

- القصة ما هى ؟
- العرب والقصة .
- القصة فى القرآن الكريم .
- طريق الفن القصصى الإسلامى .
- مفهوم الأدب الإسلامى .
- البطل والقدوة فى العمل الأدبى .
- الأدب المرفوض .
- الأدب واللغة .
- الأدب الإسلامى وأثره فى الأدب الغربى .

القصة ما هى ؟!

ورد فى لسان العرب تحت مادة « قصص » دلالات لفظية، منها : أن القاصّ: الذى يأتى بالقصة على وجهها ، كأنه يتتبع معاينها وألفاظها، كما وردت فى معانى مختلفة، منها أن القصة : الخبر، وهو القصص، وقصّ علىّ خبره يقصه قصًا وقصصًا، والقَصص: الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر فغلب عليه ، والقِصص بالكسر: جمع القصة التى تكتب، والقصة : الأمر والحديث(1) .

والدلالات اللغوية حول مادة « قص » تعنى التتبع والاقتفاء ، وهو معنى ملحوظ فى القصة التى هى الجملة من الكلام المقصوص، والقصة تكتسب هذا الاسم من معنى فعل القاص حين يقص الخبر، فهو يأتى بالقصة على جهها ، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها، ويقتفى أحداثها ، وكأنما القاص فى ذلك يحاكى قصاص الأثر وهو يتتبع آثار الأقدام على الأرض ليصل إلى نهايتها ، وهى صلة تنطبق على المعنى اللغوى للفظ «قصة» ؛ وذلك حين يقوم القاص بتتبع الحدث من البداية حتى النهاية مرورًا بالوسط .

وقد ورد لفظ «قصة» المشتق من «قص» كثيرًا فى ميادين الأدب والحياة، كما جاء فى القرآن الكريم باشتقاقاته الفعلية والاسمية ، وأصل القصص العربية كما يقول أبو هلال العسكرى: هو اتباع الشىء الشىء ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصّيه﴾ [القصص:11] ، وسُمى الخبر الطويل قصصًا ؛ لأنه يتبع بعضه بعضًا فيطول، وإذا استطال السامع الحديث ، قال : هذا قصص.

والقصة الفنية نوع من الأدب الجميل، له جماله الخاص، وفيه متعته المتميزة، والقصة لها عالمها الواسع العريض، الزاخر بالأحداث والأشخاص والتغييرات والصراعات بين القيم، الخير والشر، الجمال والقبح ، الصلاح والفساد، والجدل المشتجر بين المعتقد الدينى والتقليد الوثنى، وبين الأشخاص، الرجل والمرأة، الطاغية والمصلح، المحب والكاره، الصادق والمنافق، الحاكم والمحكوم، عالم تحتشد فيه الرؤى والأفكار والعوالم السحرية التى تأخذ بالألباب، وهو فن يشغف به الصغار والكبار على السواء، ويصبح له

(1) ابن منظور : مرجع سابق ، مادة « قصص » .

التأثير المؤكد على المتلقى إذا أجيد تأليفه ، وأجيدت وسائطه وأساليبه ، وأحسن تلقيه، والقصة فى مجاليها ؛ المقروء والمسموع لها من التأثير بحيث تساعد على التحول فى الشخصية، أو الإيمان بقيم أخلاقية جديدة ، أو التخلى عن عادات مرذولة لا تتلاءم والفطرة البشرية السوية (١).

ويحدد الأستاذ سيد قطب (٢) ماهية القصة أنها : «التعبير عن الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها كما تمر فى الزمن، ممثلة فى الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية، بفارق واحد، ، هو أن الحياة لا تبدأ من نقطة معينة، ولا تنتهى إلى نقطة معينة، ولا يمكن فرز لحظة منها تبتدئ فيها حادثة بكل ملابساتها عن اللحظة التى قبلها، ولا تقف هى عند لحظة ما لتضع خاتمة لهذه الحادثة بكل ملابساتها، أما القصة ، فتبدأ وتنتهى فى حدود زمنية معينة، وتتناول حادثة أو طائفة من الحوادث بين دفتى هذه الحدود .

والحياة تتداخل فيها الأسباب والمسببات، وتتوالى فيها الحوادث والأحداث منذ الأزل إلى الأبد ؛ لغاية غير معلومة للإنسان ، غاية بعيدة فى مجاهيل الأبد، وكل حادثة هى جزء من حادثة أخرى أكبر منها، وكل غاية هى وسيلة لغاية أشمل ، فتتبع سياقها كما هى لا ينتهى إلى غاية معينة نبصرها فى جيل أو عدة أجيال ، ولكن القصة اختيار وتنسيق، اختيار لحادثة أو عدة حوادث، تبدأ وتنتهى فى زمن محدود، وتصور غاية معينة لتؤدى إلى تصوير هذه الغاية، فليست مجرد تسجيل لخط سير الزمن والحوادث بلا بدء ولا انتهاء، ولا لتسجيل خواطر وانفعالات بلا ترتيب ولا تنسيق .

هى أشبه بالصورة الشمسية تلتقط لحظة خاصة من سلسلة اللحظات الزمنية والحسية والشعورية للإنسان أو للأشياء، وتفرزها عن سائر اللحظات الدائبة السير والتحول، كذلك تصنع القصة ، وهى تصور فترة من الحياة بأحداثها ووقائعها ذات بدء ونهاية، ثم تزيد فتنسق جزئيات هذه الفترة بحيث تكون لها خاتمة.

والقصة ليست هى مجرد الحوادث أو الشخصيات، إنما هى قبل ذلك الأسلوب الفنى، أو طريقة العرض التى ترتب الحوادث فى مواضعها، وتحرك الشخصيات فى مجالها ، بحيث يشعر القارئ أن هذه حياة حقيقية تجرى، وحوادث حقيقية تقع، وشخصيات

(١) محمد قطب عبد العال: مرجع سابق ، ١/ ٢٥ .

(٢) سيد قطب: النقد الأدبى ، أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، ص ٧٣ ، ٧٥ بتصرف.

حقيقية تعيش ».

فالقصة تصور لك الحياة، تعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم وحوارهم، فإذا رأيت ذلك ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم ، وضقت ذرعا بذوى النفوس المظلمة، كأنك تراهم رأى العين [1].

---

(١) البهى الخولى: تذكرة الدعاة ، ص ٢ ، ٣ بتصرف.

العرب والقصة

يعد اللون القصصى من الألوان التعبيرية القادرة على التعبير بشكل مؤثر وفعال ، والتراث الأدبى العربى ملىء بالنصوص القصصية المبدعة التى تثبت أن العرب يمتلكون موهبة القص والحكى، مثلهم فى ذلك مثل الأجناس البشرية الأخرى.

وقد عرف العرب القصة من زمان طويل، والأدب العربى حافل بكثير من الأنواع القصصية الدالة على أن العرب - لغيرهم من الأجناس البشرية - ذوو فطرة خلاقة، وخيال مبتكر، يدفع إلى التأثر والإبداع والابتكار.

والإنسان العربى كغيره من البشر خاض الصراع ، ومع الصراع تحدث القصص وتتحقق المآسى وتحل النكبات، بل إن الصراع بين القبائل العربية فى الجاهلية ، أكثر هولاً مما نقرؤه فى أدب الإغريق من ملاحم وبطولات ومآس، فلقد دامت الحروب فى العصر الجاهلى أكثر من أربعين عاماً ، كحرب البسوس، ولاشك أن وراء ووسط وخلال هذه الحروب قصص وحكايات تروى وتحكى، وكان ذلك مدعاة لظهور شخصية «درامية» كذات الشخصية التى نجدها فى المسرح الإغريقى ، وهى شخصية «الراوى» الذى يعيد سرد الحكاية، فى أسلوب أخاذ شيق، بل إننا نستطيع أن نطلق على عصر ما قبل التدوين «عصر الرواة» فى مجالات الرواية المختلفة ، دينًا وشعرًا ونثرًا وقصصًا.

ولا يفوتنا فى هذه الجزئية أن نورد عبارة للكاتب الأديب القصصى محمود تيمور، يبرهن فيها بالدلالة اللفظية، والمعنى اللغوى على معرفة العرب القصة والحكاية .

وحديث محمود تيمور فى هذا المجال له دلالة خاصة، فهو أحد رواد القصة فى الأدب العربى الحديث، وله إسهامات فى الرواية والقصة القصيرة ما يجعله رائدًا بحق، وتضيف إلى رأيه النقدى حرفة الصانع الأدبى، وذوق المبدع العربى، دون تعصب أو افتئات، فالكاتب يرى : أن الأمة العربية كغيرها من الأمم - وليست كما ادعى المستشرق «أرنست رينان» من خلو الأمة العربية من الخيال الابتكارى - لها صياغاتها التعبيرية الخاصة وقوالبها الأدبية المميزة، والذى منها الجانب القصصى المميز ، فنحن الذين قلنا من غابر الدهر و« قال الراوى» و« يُحكى أن» و «زعموا أن» و « كان

ما كان»، إلى آخر تلك الفواتح التى يمهد بها القصاص العربى ـ فى مختلف العصور ـ لما يسرد من أقاصيص » (١).

ونظرة واحدة إلى ألفاظ اللغة،توضح لنا وجـود الفن القصصى كأحد وسـائل التعبير ،وكأحد أنماط تتبع الخيوط الروائية والحكائية،فوجود كلمة« حكاية » ،تدل على أن ثمة شيئًا قد وقع ، وبدأ الراوى يحكيه ، أو يحاكيه ، أويضاهيه ، أو يماثله ، أو يحكى عنه ، وكلها دلالات تتفرع وتصب فى نفـس المصطلح «حكـاية» ، فهو مصطلح لغـوى لم يوجـد عبثًا،أو لمجـرد اشتقاق لفظى،وإنما هو دلالة مؤكـدة على الوجـود المحـقق لها (٢).

---

(١) محمود تيمور :الجامعة العربية ، ١٩٥٨م ، ص ٢٤.

(٢) محمد قطب عبد العال : مرجع سابق ، ١/ ١٥ .

القصة فى القرآن الكريم [١]

القصة فى القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية، فهى قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها، وإلى النفوس فتنفضها، وهى تحتشد بعوالم زاخرة ، وحيوات متغيرة ، وأشخاص متنوعة ، وصراع يدور بين خير وشر، وعدل وظلم فتثير فى النفس العواطف وتجذب القلوب ، وتهيئ العقول إلى التلقى فالفعل.

وإذا كانت القصة فى القرآن تنطلق من منطلق دينى وعقائدى ، فإنها قد وفت بمتطلبات الفن القصصى وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وأهم ملامحه ، ولكن ذلك جاء وفق المنهج القرآنى فى إيراد القصص ، فى حلقاته ومواقفه وملاءمته مع موضوعات القرآن.

فالقصة القرآنية تتوزع على سور القرآن الكريم ، توزعًا يربط القصة أو الجزء منها بالغرض الدينى، وهذا الربط متناسق مع الموقف السياقى للقصة، فالقصة القرآنية ليست عملاً مستقلاً بذاته، وإنما هى إحدى وسائل القرآن لتقديم العقيدة، ومن ثم فهى أداة تعبيرية ، تمتزج امتزاجًا عضويًا بين الغرض الدينى والغرض الفنى.

وقد جاءت القصة القرآنية فى أنواعها وتنوعها لترصد فى صور مجسمة تلك المعركة الأبدية بين الخير وقادته، والشر وأهله ؛ سواء جاءت على هيئة المثل ، أو فى نسق تاريخى، أو عبرت عن الجانب النفسى فى الإنسان ، أو وشت بجوانب تعليمية تصقل العقل وتفتح الإدراك ، أو سيقت لهدف العبرة والعظة، فهى فى كل هذه الأنواع أداة راصدة لحركة الفعل البشرى بين حركتين، حركة الإيمان وحركة الكفر. كما أن طرائق التنوع فى الشكل القصصى من إبراز المشاهد الحسية، ومن إجمال وتفصيل، وبسط وإيجاز ، وطول فى القصص وقصر، وطريقة التعامل مع القصة من حيث زمن البدء وتناميه مع موضوع السورة والسياق ، وإبراز الخوارق والمفاجآت فى الإطار التعبيرى الموحد ، فضلاً عن الإثارة والتشويق والرمز ، وغير ذلك من ألوان التنوع ، بسطته القصة القرآنية فى مجاله الموضوعى والدينى ؛ ليتضافر ذلك كله فى وحدة فنية كاملة

---

(١) مستخلصة من المرجع السابق بجزئيه من مواضع مختلفة.

تفى بالغرض الدينى والفنى معًا.

وقد شاع استعمال كلمة القصة ومشتقاتها فى القرآن الكريم، الذى جاء معجزًا فى اللفظ والمعنى ،والتعبير والصورة،وقد وردت القصة القرآنية للإعجاز التعبيرى أيضًا وجاءت لترد على أنواع القصص الجاهلى،ولترسم النمط الصحيح للقصة الإسلامية التى يجب أن تسود المجالات الإبداعية،حتى تصير معلمًا من معالم الأدب الإسلامى.

وقد جاء وصف القرآن للقصة القرآنية بأنها أحسن القصص : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [يوسف:٣].

والقصة عامة تلعب دورًا خطيرًا فى صياغة الإنسان ،فهى تستطيع وهى تنهل من الدين الإسلامى وتعترف من ينابيعه الثَّرة،فضلاً عن تأسّيها بالقصة القرآنية والنبوية ، أن ترسى قواعد منهجية ثابتة تدعو وتدعم وتساهم فى تربية الروح والعقل والوجدان ، وتنزع من النفس سخائمها وإحباطاتها وحيرتها عن طريق ضرب النماذج السوية من البشر،وهذا دليل واضح ومؤكد على أن الإسلام يدرك تمام الإدراك الميل الفطرى للإنسان ،فيستخدم القصة فى الدعوة والتربية،ولكنه وهو يستخدم القصة يضع النموذج الأمثل،فيراعى فى الصياغة أن تكون متلائمة مع الغرض الذى وردت من أجله،فالقصة القرآنية قصة ملتزمة بالدين والتوحيد أساسًا ،وهو منطلقها،وهو نهايتها أيضًا ، إنها قصة دائرية ، يصبح مفتتح القصة هوقفلها ونهايتها .

فليس غريبًا على القصة ـ كوسيط مؤثر ـ أن تحظى بهذه المكانة العالية فى القرآن الكريم ، فلا تكاد تخلو سورة من قصة ، أو إشارة إلى قصة،أو إبراز جزء من قصة ، أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة ، ولم يكن الأمر فى القرآن ناتجًا لمجرد السرد القصصى ، وإنما لما تستطيع القصة أن تؤثر به كمنهج تربوى يصوغ المسلم صياغة دينية أخلاقية كاملة.

وكان طبيعيًا خضوع القصة القرآنية للأغراض الدينية،فليس القرآن كتاب قصص،وإنما هو كتاب تربية وتوجيه،ولكن مراعاة القواعد الفنية فيه تجعل القصة مع خضوعها للغرض الدينى طليقة من الوجهة الفنية،ويجعل استخدام القصص للتربية جزءًا من منهج التربية الإسلامية ،فقصص القرآن لم تأت مجرد حكايات يُتسلى بها،وإنما يسوقها لإيضاح مبدأ،وللدعوة إلى فكرة،وللنهى عن منكر،وقد جرت العادة

فى القصة القرآنية أنها إذا حكت أمرًا لا يقره القرآن جا ت بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال .

فالقرآن الكريم يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه ، التربية بالقدوة ، والتربية بالموعظة ، فهى سجل حافل لجميع التوجيهات ، وهى كذلك - على قلة الألفاظ المستخدمة - حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصاته، من حوار، إلى سرد، إلى تنغيم ، إلى دقة فى رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة فى القصة ، وهى وسائل القصة القرآنية ووسائطها الفعالة فى التربية والتأثير والجذب والتشويق ؛ لتوجيه القلب والنفس والمشاعر والوجدان ، إلى العبرة والمقصد الدينى، والغرض الذى ضربت من أجله .

أهداف القصص القرآنى :

لقد تعددت أغراض القصص القرآنى تعددًا يفى بجميع حالات العقيدة والإعلام عنها، وترسيخ أصولها ، وتلك الأغراض من الوفرة والتعدد بحيث لا تخلو منها قصة واحدة ، بل قد تتضمن القصة عددًا ضخمًا من الأغراض الدينية ، مثل إثبات الوحى والوحدانية، ووحدة الأديان وغيرها .

ولا يصح أن تُحكَّم مقاييس الفن القصصى فى الأدب البشرى بصورة آلية مطلقة على ما جاء فى القرآن الكريم ،« فهو ليس كتاب أدب ، وقد ابتدع فيه الخالق منطقه كما ابتدع فنه ، والقصص القرآنى قصص دينى قبل كل شىء ، فلا يمكن النظر إليه من زاوية أدبية صرفة ، وقد جاء لخدمة أغراض متنوعة ، فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة » (١).

وقد استعرض الأستاذ محمد قطب عبد العال (٢) بعضًا من هذه الأغراض الدينية الكثيرة التى وردت بالقصة القرآنية :

أولاً : العبرة :

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)** ﴾ [يوسف] ، فالقصص القرآنى فيه العبرة والمثلات لمن عصوا أمر ربهم ، وفيه ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور ،

---

(١) د.التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص١٧٠.

(٢) محمد قطب عبد العال : مرجع سابق ، ١/ ٥٠ - ١١٢ بتصرف شديد.

والجبابرة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط .

وها هو القرآن يصور قصة تحطيم الأصنام ، التى عجزت عن دفع الأذى عنها ، لعل الكفار يعتبرون ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)﴾ [الأنبياء] .

تسجل الآيات اعتراض إبراهيم على عبادة قومه الأصنام ، وأبرزت الحوار بين إبراهيم وقومه ، وكانت أداته تتراوح بين «قال» و«قالوا» ، فبيَّن إبراهيم أن الله هو المستحق للعبادة بالدليل البرهانى ، الذى يستثير الذهن وكوامن العقل ، ودبر أمر تحطيم الأصنام،فحطمها إلا كبيرهم فأثبت عجزها بالدليل القاطع والبرهان الساطع،و تلك قمة السخرية ازدراءً بالأصنام واحتقاراً للعقول الضالة ، وهنا يستشيط القوم غضبًا، ويصل الانفعال بهم إلى مداه ، ويصروا على محاكمته ،وتنهمر الأسئلة، و يواجههم إبراهيم فى ثقة المؤمن بربه ، ويتوالى الحوار إلى أن يقرروا حرق إبراهيم ، ولكن الله ينجيه من مكرهم.

والعبرة هنا أن الله هو المعبود لذاته،وأنه المنفرد بالوحدانية ، وأنه وحده الذى يضر وينفع ، وأن الأصنام حجارة اتخذها الضالون من دون الله لجلب النفع ودفع الضر ، وكانوا فى ذلك واهمين : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]

ثانيًا : التوحيد :

نلمس البراهين على التوحيد من خلال السياق القصصى ، وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق القصة يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة.

والقصة كما تتضمن العبرة ، تتضمن كذلك الدعوة إلى التوحيد ، فليس هناك انفصال بين الأغراض الدينية ، بل هى كلها تجتمع أو تفترق حسب المراد والغاية، فكما رأينا فى الجزئية السابقة ، والخاصة بالعبرة ، ما فعله إبراهيم بالأصنام لعل ذلك يكون عبرة للكفار ، فقد تضمنت الآيات الدعوة إلى وحدانية الله وسوق الأدلة على ذلك ، فليس فى الأغراض الدينية انفصال ، فهو حين حطم الأصنام جذاذاً بين عجزها، ودعا لعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهو جل وعلا الذى أنجاه من مكيدتهم فجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

والقصص القرآنى وهو يثبت استحقاق الله للعبودية،وتنفى بطلان عبادة الأوثان، يؤكد على إثبات الوحدانية أمام الذين يتخذون الأشخاص آلهة،مثلما يدَّعون دعون ألوهية المسيح، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) ﴾ [المائدة].

ولقد وضحت القصة الفرية التى افتراها بنو إسرائيل على عيسى عليه السلام ، فنفت الدعوى من أصلها وبينت أن المسيح لا يدعيها ، وإنما كان الداعية إلى التوحيد ، والنافى للشرك ، وأن المسيح مخلوق كسائر الناس، وأن الله رب الناس أجمعين كما هو ربه، وجاءت القصة بالدليل القاطع الذى لا يحتمل الشك أو التأويل ،فبين أن عيسى وأمه ليسا إلا شخصين يعيشان كما يعيش الناس ، ويأكلان كما يأكلون ، ولقد أدانت الآية ادعاء التثليث ، وأكدت على وحدانية الله ، واحدًا فردًا صمدًا ، لم يلد ولم يولد.

ثالثًا: تأييد الرسول ﷺ وتسليته وإيناسه :

القصص القرآنى فيه إيناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه الرسل الكرام،قال تعالى ـ وهو يذكر قصة مريم ويؤكد على تلقى الرسول لثبت فؤاده: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران] ، وفى قصة موسى :﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾ [القصص].

والغرض الدينى الذى تبرزه القصة القرآنية يتضمن أن الله ينصر رسله فى نهاية الصراع،ويهلك المكذبين الضالين،وفى ذلك تأييد للرسول وتثبيت له؛ولهذا جاءت

قصص الأنبياء ـ مجتمعة ومتفرقة ـ مختومة بمصارع المكذبين: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] ،وقال تعالى ـ محدثا عما حدث الرسل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت]،وقال تعالى ـ في قصة قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤)﴾ [العنكبوت].

وهكذا يقف الله تعالى مع أنبيائه ورسله يؤازرهم وينصرهم ، وينزل غضبه بالمكذبين الجاحدين ، إن الحق والخير ينتصران ولو طال أمد الشر.

رابعًا:الدعوة إلى الخير وحُسن المعاملة والعفة:

جاءت القصة القرآنية لترسم نموذج المعاملة الطيبة الذى يجب أن يتحلى به المسلم،فبينت أن دعوة الأنبياء دعوة إلى الخير وحسن التعامل وتهذيب الأخلاق وعمارة الأرض،وإذا وردت هذه القيم الأخلاقية كلها ضمن قصة ،تغلغلت فى النفس وتمكنت منها ، وفى قصة «شعيب» مع قومه نموذج لذلك: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾ [الأعراف].

لقد تضمنت القصة حوارًا يدور بين النبى الداعية وقومه حول التوحيد ، ثم أنواع من الخير ؛ كإيفاء الناس حقوقهم، والأمانة،وعدم الجلوس فى الطرق لتخويف المؤمنين، ولم ييأس شعيب من قومه،فكرر الدعوة ولكنهم أصروا على الشر فحق عليهم العذاب: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود].

وفى هذه الآيات ضرْب المثل بالقدوة ، ففى مجال النصيحة وحسن المعاملة تصبح القدوة مفتاحًا إلى القلوب المغلقة ، والنفوس المطموسة ، ومن ثم وضّح شعيب لقومه أنه لا يُعقل أن ينهاهم عن شيء ويرتكبه ، وإنما هو يأمرهم بما يأمر به نفسه ، وهو حين

يأمرهم بالتوحيد وبترك البخس فى أموالهم وموازينهم ، إنما يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم حذرهم من العذاب ، وضرب لهم النماذج من الأمم السابقة الذين حق عليهم العذاب ، كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾ [هود] ، وتمادى القوم فى فسادهم وضلالهم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)﴾ [هود] وهكذا أخذت صيحة العذاب القوم لبعدهم عن الدين والمعاملة الطيبة.

خامسًا:أصل الدين واحد ووسائل الدعوة واحدة:

من أغراض القصة القرآنية بيان الأصل المشترك بين الإسلام الخاتم وبين الأديان جميعًا ، قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥)﴾ [الأنبياء] ، وكل قصص الأنبياء تدل على أن دعوتهم واحدة،وقد أبرزت القصة القرآنية أن وسائل الأنبياء فى الدعوة واحدة ،وأن استقبال أقوامهم لهذه الدعوة متشابه ،فضلاً عن أن الدين من عند إله واحد ،وأنه قائم على أساس واحد ؛ولذلك كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مكررة فيها طريقة الدعوة.

سادسًا:الحث على العدل والبعد عن الهوى :

أبرزت القصة القرآنية أهمية العدل فى سياسة الأمم والناس ، ووصف الله نفسه بـ«الحكم العدل» ، وأكدت القصص أن المقياس الحقيقى للحكم العادل هو إدراك الحق، وألا يكون للهوى سلطان فى الحكم.

وحين تورد القصة هذا اللون من السلوك ، يكون له تأثير قوى فى المتلقى والمشاهد لمجريات التقاضى والمحاكمة،فيضحى واعيًا تمامًا بكل حركة وحكم وإشارة ، وعينه مصوبة ، وسمعه مشدود، مما يكون للانفعال أثره القوى فى النفس ، وفى قصة «داود» نموذج لذلك: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(٢٦) ﴾ [ص].

والقصة تتضمن ثلاثة أمور ،تنبه إلى أمثل الطرق للعدل فى الأحكام:

١ـ أنه سبق إلى الحكم دون أن يستمع إلى الخصم ، وقد يكون ذلك مدعاة للظلم.

٢ـ لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة ، ذات الظروف الخاصة والملابسات المحددة ، بل عمَّم الحكم ، والقضاء يكون فى القضية المدروسة فقط: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص:٢٤] .

٣ـ الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة ، والحكم الظالم هو ما يقع تحت سلطان ذلك.

فإذا نهى الله نبيه داود عن ذلك ، فإنما ينهاه عن الهوى ، وهو الذى يفسد الحكم.

سابعًا : تقويم المشاعر الإنسانية وتعديلها:

بسط القرآن الكريم الحديث عن النفس ، وبين أن عمل الإنسان من خير أو شر يرجع إليها ، وإليها يكون الثواب والعقاب ، وقسَّم النفس إلى ثلاثة أقسام:

النفس المطمئنة : وهى التى تؤمن بالله وتستحضره فى كل موقف ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب (٢٨) ﴾ [الرعد].

والنفس الأمارة :هى النوع الثانى المقابل للنفس المطمئنة ، فهى نزاعة للشر ، داعية للحرمات ، ومع ذلك فإن لها علاجها وتطبيبها من دائها ،وذلك بذكر الله والرجوع إليه ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف].

والنفس اللوامة:هى التى تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُون (٢٠١) ﴾ [الأعراف] .

وقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس الإنسانية ومسالكها المريضة حتى تضرب المثل ، وتوضح مجالات الصراع المشتجر بالنفس الإنسانية بين الخير والشر ، ولنذكر هنا قصة قابيل وهابيل ولدى آدم نموذجًا فذًا على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر،أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِين (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِين (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ

أخي فأصبح من النادمين (٣١)﴾ [المائدة].

وهذه القصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد فى النفس المريضة يؤديان للعداوة ، ولا علاج للحسد ـ وهو يحدث بين الإخوة كما حدث هنا وفى قصة يوسف، وهو مرض دفين ـ إلا بالمواجهة والبتر ؛ ذلك لأن الهدف هو صلاح الجماعة، وصلاح النفوس.

ثامنًا:التضحية من أجل العقيدة :

أورد القرآن الكريم الكثير من مواقف التضحية فى سبيل العقيدة ،وضرب لنا نماذج إنسانية فى الاتصاف بقوة العقيدة ،والدفاع عنها،والاستشهاد من أجلها،ومن ذلك قصة أصحاب الأخدود: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ﴾ [البروج].

وقد جاء فى الحديث الشريف تفصيل هذه القصة التى جاءت موجزة هنا ، كأنما هى لمحة خاطفة جاءت لإبراز الغرض ، ومضت وقد أبقت تأثيرها فى النفوس.

إن قصة أصحاب الأخدود ، علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيدة ، فهى أيضًا وعيد للكافرين وتسلية للمؤمنين ، وتوضح الآيات أن سبب ذلك التحريق البشع هو إيمانهم بالله الواحد الأحد ، وليس الإيمان بالله سببًا أبدًا لاستحقاق العقوبة ، ولكن الطغيان والطاغوت لا يعرفان ذلك، ومن ثم تقرر القصة بأن الله غالب على أمره ، وأنه قادر عزيز ، وأن مصير الكافرين الجبابرة جهنم،ومصير المؤمنين الجنة.

تاسعًا : التعارض بين الحب والواجب :

من الأغراض الدينية العظيمة التى قامت عليها وأبرزتها القصة القرآنية،غرض خاص بعلاقة الآباء والأبناء،أو تعارض مشاعر الأبوة مع واجب البنوة،أو ما يمكن تسميته بلغة العصر حنان الأبوة وتمرد الابن،ولا شك أن موقف نوح من ابنه أثناء الطوفان خير نموذج قصصى للتعبير عن هذا الغرض: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ

قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [هود].

وتلك القصة الحوارية بين نوح وابنه، ثم بين نوح وربه ، لتعطى لنا حقيقة الغرض الذى سيقت من أجله ،وهو التعارض بين الحب والواجب، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق نوح بما نطق فنبهه الله إلى الواجب، والله لم ينبه غافلا، ولكنه نبه يقظًا مؤمنًا ضارعًا.

عاشرًا : ذكر النعم وأغراض أخرى :

من الأغراض التى حرصت القصة القرآنية على إبرازها وتجليتها غرض يتحدث عن بيان فضل الله ونعمته على أنبيائه وأصفيائه، ولنأخذ قصة يونس عليه السلام كنموذج ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء].

إن القصة تظهر العواطف البشرية إزاء المواقف الصعبة ، كما تبرز النعمة الكبرى التى ينعم به الله على أنبيائه وأصفيائه ، فالله معهم وناصرهم ومؤيدهم ، والقصة وإن أبرزت نعمة الله على خلقه ، فقد قدمت لنا قيمة دينية عظيمة ممثلة فى مبدأ التوبة.

وللقصة القرآنية أغراض أخرى متفرقة لبيان قدرة الله وعظمته فى مجال الخوارق،

كقصة الخلق ، وميلاد عيسى ، وقصة إبراهيم والطير ، والذى مر على قرية ، كما كان من أغراض القصة القرآنية بيان عاقبة الطيبة والصلاح ، وعاقبة الشر والفساد ؛ كقصة صاحب الجنتين ، وقصص بنى إسرائيل ، وكذلك بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة ، مثل قصة موسى والعبد الصالح.

كلمة أخيرة :

يتضح مما سبق أن الأغراض التى تناولتها القصة القرآنية من النوع الذى يثير فى السامع أو القارئ على السواء كثيرًا من الانفعالات ويحرك فيه شتى العواطف والمشاعر ،ويجعل الإنسان أكثر ارتباطًا وشوقًا إلى مواصلة القصة ومتابعة أحداثها حتى النهاية ، وذلك لما يتضمنه بناء القصة القرآنية من قوة العرض والسرد ، وجمال الوصف والتصوير وحركة الأشخاص وصراعها فيظل الغرض القصصى عالقًا فى الذهن ومؤثرًا فى النفس.

ولا شك أن الغرض فى القصة كان وراء طريقة بناء القصة وتكرارها وطريقة الأداء الفنى الذى اتخذته القصة القرآنية وسيلة للإبلاغ والتوصيل من تفصيل فى العرض أو إيجاز فيه ، أو اكتفاء بالسرد أو استعمال الحوار أو المزج بينهما ، أو تعقيد الموقف أو تبسيطه ، فضلاً عن تخير المواقف المثيرة بما تتضمنه من مفاجآت وحلول.

فالغرض الذى تبرزه القصة القرآنية بتمثل أمام القارئ أو السامع عبر بسط ، وسرد، وانفراج ، وتعقيد حافل بعناصر الانفعال والجذب الانفعالى ، وهذا مما يعمق هذه الأغراض فى النفوس.

أنواع القصة القرآنية

ساق القرآن الكريم قصصه للعبرة والعظة ، وفى ذلك السياق يتجلى الصراع بين الخير والشر ، وتتضح الوسائل الفاعلة لتغليب الخير ، ولإبراز وحدة الأديان والرسالة الإلهيه ، ولأن القصص أحفل بالأسوة وأعمل فى النفس وأبعث على الطمأنينة ، فقد وردت على أنواع ، تخاطب جوانب النفس البشرية، حيث تقرن العمل بالجزاء ، فتسرى الموعظة الحسنة سريانًا حيًا ، فيتمكن المغزى من القلب وتختلط بمشاعر الوجدان ، وقد ذكر الأستاذ محمد قطب عبد العال[1] من هذه الأنواع مايلى:

١ـ القصة المثل :

المثل نوع من التعبير الأدبى، يبرز المضمون فى صورة حسية، كما يقرب المعنى، ويكشف الحقائق ، ويجمع المعنى الرائع فى عبارة موجزة ، تثبت فى الذهن، وتدفع إلى الإقناع والتأسى، وإلى العظة والعبرة، وتأتى قصة (أصحاب القرية) كنموذج للقصة المثل : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾
[يس]

إن القصة المثل خير إطار تعبيرى لتمثيل القضايا الدينية والحقائق العقلية، بتجسيدها فى قالب قصصى محسوس ، بحيث تجعل المتلقى أكثر قدرة على الفهم والاستعياب وتمثّل المعنى الدينى والعبرة الخلقية ، مما يؤكدها فى النفس ويعمقها فى الإحساس.

(١) محمد قطب عبد العال : مرجع سابق ١٣/٢ ـ ١٧٩ بتصرف شديد .

٢ـ القصة التاريخية :

القصص القرآني حافل بالتاريخ ، الذي لايداخله شك أو وهم، وقد أخضع القرآن في قصص الوقائع التاريخية للحقائق الدينية ، إذ ليس في مجرى هذه الأحداث ما يحدث مصادفة ، وإنما تأتي وفق السنن التي تساير الإرادة الإلهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء ، وهذا نموذج للقصة التاريخية يتمثل في أهل مدين: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود] .

ويرى الأستاذ العقاد أن قصص القرآن جميعًا تأخذ من التاريخ مافيه الغنى لكل سياق، أو مقصد يعنى به الدين ، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ، ولا تسجيل الوقائع والسنين وليست كلمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس.

٣ـ القصة التعليمية :

المنزع التعليمي في القرآن الكريم قائم على إحياء الوثنية شعور عميق في الإنسان ؛ بما بينه وبين الكون من وشائج وعلاقات سامية ، تترفع عن الوثنية والخضوع لغير الله ،

كما أنه يوقظ فى الإنسان الروح التجريبية والاستقراء ، حيث يوجه الأنبياء والأقوام إلى آيات الله فى الكون ليثير فى القلوب إيمانًا قائمًا على التجريب والمشاهدة.

وفى قصة «موسى والخضر» بيان لما أكرم به الله رسله من رعاية وتدريب وتوجيه وتعليم ، وبما اختصهم به من أمانة وصدق ونزاهة وإخلاص لله والعمل فى سبيله ، وابتعاد عن صفات مذمومة ، كالغرور أو الطمع أو الادعاء بأنه ملك ناصية الأشياء ، وما تضمنته من وقائع وحوار وسرد : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف] وقد حفلت هذه القصة بجانب تربوى تعليمى يعد من أمتع قصص القرآن وأروعه.

٤ـ القصة النفسية:

كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنسانى الفطرى الكامن فى النفس البشرية حيث لمست أبرز المشاعر الإنسانية وأنبلها وأرقها ، كما عرَّت النفس البشرية فى عنادها وتهورها ووقوعها تحت سطوة الانفعال اللاسوى ؛ كالحقد والغيرة والبطر والجنس والانتقام والخوف ، والجانب الوجدانى من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب فى موضوع الفنون ، وموقف موسى من ابنة شعيب خير مثال للون النظيف من المشاعر ، وتلك القصة حلقة من حلقات موسى عليه السلام ،تسجل لحظة هروبه وخوفه من فرعون ، إنها لحظة البداية إلى الرسالة ، فهو حين قتل المصرى هرب حين علم أنه مطلوب ، واستقر به المقام تجاه مدين عسى أن يهديه الله سواء السبيل، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ [القصص].

٥ـ القصة الإشارية الرمزية :

وهذا الجانب الإشارى فى القصة القرآنية ينقسم إلى قسمين: قسم يتخذ الرمز محوراً للقصة؛كما فى القصص الرمزية التى جاء بها القرآن،أما الجانب الإشارى الآخر فيختص بما وراء الآيات من مواقف قصصية حدثت للمسلمين أنفسهم.

وخير نموذج للنوع الأول، قصة «البقرة» ،ولا شك أن الإشاره كرمز للبقرة ـ التى سميت السورة باسمها ـ يعنى معنى عميقا تدل عليه تلك الإشارة المتكررة: ﴿ وَإِذْ قَالَ

مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾ [البقرة].

فهذه القصة الرمزية القصيرة ذات دلالات متعددة ؛ فهى تدل على طبيعة بنى إسرائيل ؛ فقلوبهم منقطعة الصلة إلى الإيمان بالغيب، والثقة بالله، وعدم الاستجابة للتكاليف وتلمس الحجج والسخرية المنبعثة من سلاطة اللسان.

أما الجانب الآخر من القصص الإشارى ؛ فهو الذى يشير فى السياق القرآنى للأحداث والوقائع، كالتى جاء بها القرآن العظيم ؛ ليعطى فيها العبرة والعظة أو الحل، أو يكشف عن أصحابها من براءة أو خيانة، وصدق أو كذب، ووفاء أو غدر، وقصة الثلاثة الذين خلفوا تقع فى هذا الجانب الإشارى ، قال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة].

إن دراسة الإشارات النفسية والدينية فى القصة الإشارية تكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة، وارتباط الجانب العقدى بالنفس؛ لما تتضمنه القصة من إشارات وتجارب متنوعة كان الإنسان محورها، ومن دعوات سماوية تولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله ، والباطل وناسه ، وكانت عين القصة تسجل وترصد وتؤازر الحق ﷺ له .

٦ـ قصة اليوم الآخر :

إن الملاحظ فى عرض كثير من مشاهد يوم القيامة فى إطارها القصصى الوصفى أنها تجسد الواقع المغيب فى نسق تعبيرى مصور نحس فيه ونقرأ ونتابع المشهد بالصورة

والحركة والإيقاع والحياة المتلاطمة ، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦)﴾ [الواقعة] .

وتصور المشاهد القرآنية لليوم الآخر بعد البعث والنشور؛ تصور النعيم والعذاب ، وهو مصور تصويرًا حسيًا، فيدركها المتلقى إدراكًا واعيًا محسوسًا يكون له النفاذ والتأثير، وسورة الواقعة كغيرها من السور، تعطينا هذا النموذج؛ فثمة نعيم وُعِدَ به المؤمنون الصالحون ؛ نعيم الجنة الممتلئة بالسدر والطلح والظل والماء والفاكهة.

أما أصحاب الشمال ؛ فطعامهم زقوم وشراب حميم ، كلما شربوا ازدادوا عطشًا، إنهم مبتلون بريح حارة ، وماء مغلى ، ودخان شديد السواد.

٧ـ القصة الوعظية :

وتأتى فى السياق القصصى بالقدر الذى يبلغ العظة إلى المتلقين، حتى يتواصل التأثير، والقصة الوعظية نجدها فى قصص أصحاب الأخدود ، وأهل الكهف، وقصة الذى مر على قرية ، وأصحاب الجنتين ؛ وهى قصص تتضمن التضحية فى سبيل الإيمان ، والاستشهاد من أجل اليقين ، كما فى قصتى أصحاب الأخدود والكهف .

وبعد :

لقد تحدثنا فيما سبق عن أنواع القصص القرآنى، على أن هناك تنوعًا لهذا القصص أيضًا ، من حيث طريقة العرض فى السرد القصصى، وإيراد الحدث بما يتضمنه من إجمال وتفصيل ، وخوارق ومفاجآت ، وفجوات تثير الذهن وتحمل الخيال على تجسيد المشهد وتصوره ، فضلاً عن طريقة العرض فى تصوير الموقف والشخصية والحدث ، ورصد الانفعال والشعور.

الخصائص الفنية للقصة القرآنية

لقد وضع القرآن الكريم الأسس الصحيحة لفن الكلمة الجميلة المؤثرة، سواء أجاءت تلك الكلمة في إطار القصة القرآنية ، أو في آيات الأحكام ، أو ضمن السرد المحكم والوصف الدقيق للأحداث والشخصيات والأمثال ، والقواعد العامة، واحتدام الصراع بين مكونات الكون والحياة ، وهذه كلها أمور تفرغ لها كثير من العلماء القدماء والمحدثين، ولا يزال كنز العطاء القرآني عامرًا بالأسرار المعجزة والآيات القاهرة.

وكان من أهم ما تميز به القرآن الكريم فن القصة ، حيث يعد القصص القرآني بحق مدرسة متميزة في الأداء القصصي ، ويذكر الدكتور نجيب الكيلاني[1] رائد الأدب الإسلامي بعض خصائص القصة القرآنية :

١ـ ارتباطها بالحقيقة والواقع التاريخي.

٢ـ أنها أحسن القصص ؛ بأسلوبها ومضمونها وتأثيرها وغايتها.

٣ـ أنها تُقدم للتعليم والعبرة والعظة.

٤ـ تنوع أشكالها ، فقد تكون قصيرة أو طويلة أو بين بين ، وقد يُروى جزء من القصة في مكان ، وتختصر باقي الأجزاء وتفصل في موقع آخر من كتاب الله ، حيث يقضي الموقف ذلك التنوع في الأسلوب أو العرض أو الأداء.

٥ـ الحبكة الدقيقة.

٦ـ الاستنارة أو لحظة التنوير ، قد تأتي في شكل عبرة أو حكمة أو تقرير موجز ؛ لأن القرآن يضع الهدف من القصة فوق الاعتبارات الفنية المصطنعة .

٧ـ البعد عن الغموض ، فالإشباع العقلي والوجداني يكون دون حيرة أو إبهام ، حتى يتبلور التأثير ويمهد السبيل لرحلة جديدة من التفكير والتذكر واتخاذ موقف واضح.

٨ ـ الحرص على استيعاب الأبعاد المختلفة للشخصية ، وخاصة في نطاق الانفعالات النفسية والسلوكية.

٩ـ التركيز أحيانًا على جزئية في القصة لها أهميتها وإيحاءاتها وخطرها على الحدث الكلي للقصة.

---

(١) مجلة الأمة ، عدد (٥٦) ، شعبان ١٤٠٥ هـ ، ص ١٨ .

١٠ـ توظيف الكلمة فى الجملة،أو فى النسق العام توظيفًا فريدًا،فتنطبع فى الذهن، وتفعل فعلها فى النفس ، وتبدو عنصرًا أساسيًا يستحيل أن يتم البناء الفنى بدونها لمن يقرأ أو يسمع.

١١ـ يأتى التكرار كأنه صيغة جديدة تبعث على الاهتمام ، ولا تبعث فى النفس أدنى ملل ، ودون حشو .

١٢ـ شعور الاستمتاع حين تسمع أو تقرأ ، بالنسبة لكافة المستويات الثقافية ومراحل العمر المختلفة.

١٣ـ إعطاء المرأة نصيبها من القصص القرآنى.

١٤ـ التركيز على القضايا الأساسية للإنسان ، مثل :التوحيد ـ العبادة ـ الخير ـ العدل ـ الصدق ـ الجهاد ـ الإيثار ـ الوفاء ـ المحبة ـ العلاقات الإنسانية ـ الصبر ـ الاستقامة. . .إلخ.

إن القصة بالمفهوم القرآنى فن سام ، يستمد سموه من عظم الرسالة التى يبلغها للبشر بأسلوبه الممتع المؤثر ، وتفوق المثل الذى يعرضه ، ولن نستطيع بحق أن نبدع أدبًا إسلاميًا حقيقيًا دون النظر إلى كتاب الله ، والتمعن فى آياته ، والاستيعاب لقصصه ، والتأدب بآدابه ، والتشبع بمنهجه ، ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى** ﴾ [النحل : ٦٠] .

طريق الفن القصصى الإسلامى

على المبدع فى المجال القصصى أن يبدع فى إطار التوجيه القصصى القرآنى ، فعليه أن ينطلق أداؤه القصصى - وهو يصور الحياة والأشخاص والأحداث والصراعات - من منطلق إسلامى، بحيث لا يتصادم العمل القصصى مع المفاهيم القرآنية للمجتمع المسلم.

ويجب أن يكون المبدع بعيدًا عن الوعظ والمباشرة والخطابية، ويستفيد متأثرًا من الجانب الإيحائى والإشارى الذى تلتزم به القصة القرآنية وهى تدعو إلى غرض دينى ، فالقصة القرآنية توحى وتلمح وتشير، ولا تخاطب فتباشر ، فتنفر القارئ.

ومن القيم الفنية التى ترسى مبادئها القصة القرآنية ، قيمتا الجمال والقبح ، فكلتاهما تكونان فى موضعهما تمامًا ، إذا جاءتا عبر نسق جمالى يتوافر فيه التوازن ، وروعة التعبير، ومن ثم يصبح التناول جميلاً وهو يتعامل معهما عبر المشاعر والمواقف والعواطف والسلوك، بحيث يصبح الموقف مشاهدًا ومحسًا بجميع أبعاده، لحظتها تشتاق النفس إلى الجمال وتسعى إليه ، وتميل عن القبح وتنفر منه ؛ دون الجنوح إلى المباشرة أو الوعظ ، ومن ثم تنطلق أداة التعبير ، وقد تلمست أداة التعبير القرآنية إلى تصوير حياة الإنسان فى شتى حالاته ومتغيراته زمانًا ومكانًا ، وإلى تصوير النفس البشرية فى شتى حالاتها انفعالاً وتقلبًا ، وتصوير القيم الأخلاقية فى تعدد مناحيها ودرجات دلالاتها وهى فى ذلك كله لا تصطدم ولا تتعارض مع النظرة القرآنية إلى الفن والقصة، ولأن للقصة تأثيرًا على الفرد والجماعة ، ولأن للمجتمع تكوينه الخاص وانطلاقاته الخاصة ، ولأن المسلم فى هذا الزمان الصعب معرض لغزوات فكرية وثقافية تستهدف دينه وقيمه ، ولما كانت إحدى هذه الغزوات المدمرة نشر القصص الردىء المدمر للقيم وللذات الإنسانية.

لذلك كله ينبغى صياغة قصص القرآن صياغة جديدة مكتملة بحيث ترتبط أجزاءها المتفرقة فتصبح قصة كاملة ، سواء فى ذلك أن تتناول قصص الأنبياء والمرسلين ، أوقصص المؤمنين المضحين فى سبيل العقيدة ، أو بعض الأمثلة القصصية التى ضربت للتعبير عن قيم معينة ، مثل الحق والخير والجمال ، وذلك فى أسلوب تعبيرى يبلغ درجة عالية فى التشويق والتخييل وتضمين القيم المراد بعثها عبر العمل فى خفة.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل يجب أن نعمل على خلق قصص جديد يتسم

بالأخلاق المبثوثة فى قصص القرآن ، وفى غيرها من آيات القرآن الكريم ، إننا يجب أن نقيم كيانًا أدبيًا كبيرًا وشامخًا على تلك المعانى والقيم التى جاء بها القرآن ، حتى نسير على هديه ، وحتى تصبح لنا خصوصيتنا الفنية ، وعلامتنا المميزة فى عالم القصة ، وكذلك مسرحة القرآن بحيث تؤدى القصة المشاهدة دورها فى التأثير الوقتى السريع ، إننا لو فعلنا ذلك لدعمنا العقيدة فى النفوس ، ولوضعنا على طريق الفن القصصى علامة قرآنية مميزة [1].

(١) محمد قطب عبد العال : مرجع سابق ١/ ١٦٥-١٦٧ بتصرف.

مفهوم الأدب الإسلامى

أصبح للفنون الأدبية الحديثة ، القصة بأنواعها ، والمسرحية تأثير كبير فى قطاعات عريضة من الناس ،ويقتضى ذلك حتمًا أن نوجد « منهجًا إسلاميًا عامًا » للتعامل مع هذه المعطيات الجديدة ،وأن نحدد منهجًا إسلاميًا للأدب من حيث مفاهيمه وسماته الأساسية ،ومنطلقاته ومجالاته وأهدافه ، على أن يكون ذلك متفقًا مع ثوابت الإسلام وقيمه ومبادئه.

ومن بين ما يُتهم به الأدب حين يكون منبثقًا عن رؤية إسلامية : أنه قد يضيق بالإبداع وانطلاق الفكر،وقد يجد حرجًا فى عرض بعض المشاكل الاجتماعية،وخاصة تلك المتعلقة بالمرأة وقضاياها ، وعلاقاتها بمن حولها .

وإذا كان ذلك كذلك، فإن الأدب الإسلامى وأدباءه سوف يتقوقعون على أنفسهم ولا يتفاعلون مع المجتمع الذى نعيش فيه،بيد أن الأدب والأديب الإسلامى لا يستطيع الخصام مع الحياة،وما يعتلج على مسرحها من قضايا ومشكلات،فالإسلام كدستور للحياة دين شمولى،والأدب الإسلامى يتسع اتساع هذه الحياة الشاملة.

فلا يمكن أن ينسلخ الأديب المسلم عن المجتمع الذى يعيش فيه،وعلى ذلك فإنه سيتأثر بواقعه ، ويقوم بمعالجته،فالحد الفاصل بين الأدب العظيم ، والأدب التجارى هو أن الأديب العظيم هو الذى يستطيع أن يؤثر فى مجتمعه ويكسب رضاه،دون أن يخضع لإرادة هذا المجتمع،بل ربما استطاع ذلك وهو يقف معارضًا لهذا المجتمع،والأديب التجارى هو الذى يتملق الجماهير،ويترك إرادته تذوب فى إرادتها ، الأول:هو الذى يؤدى دور الأديب الحق الذى يتأثر بمجتمعه ،ثم يحاول التأثير فيه،أما الثانى:فلا يمكن أن يكون عامل دفع فى مجتمعه ؛ لأنه سيترك المجتمع يدور فى نطاق ذاته [١].

ويفصل الدكتور نجيب الكيلانى [٢] رائد الأدب الإسلامى القول فى تحديد مفهوم هذا الأدب ، ويؤصل له،فيقول:إن القرآن الكريم ـ الذى يعد منهل الأدب الخالد لأدباء الإسلاميين ـ استخدم القصة والحوار ، والمثل ، والمواقف الخطابية ،ودعا إلى المباهلة، ووظف الحدث التاريخى،واعتمد الجدل الفكرى،وأسلوب المواجهة ، والتقرير المباشر ،

---

(١) د.عز الدين إسماعيل :الأدب وفنونه ، دار الفكر العربى ، ص٤٠ .

(٢) د.نجيب الكيلانى : مرجع سابق ،ص١٤ ـ ٣٦ بتصرف شديد.

والوعظ المؤثر ، فى سبيل تحقيق أغراضه فى هدايه الإنسان ، وتوجيهه صوب الخالق، فالأشكال متسعة متطورة ، بشرط الحفاظ على القيم الثابتة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأديب كان عنصرًا من عناصر الحضارة الإسلامية المتوازنة ، وفق تصورات واضحة صحيحة ،ولم يكن مصادفة أن يكون فقهاء الإسلام وفلاسفته وعلماؤه وقُواده من أكثر الناس ممارسة لفن الأدب ،شعرًا ونثرًا .

والأدب الإسلامى لسان من ألسنة الدعوة الإسلامية،التى تحرص أولاً على القدوة والمثل ، وتهتم بالفعل دون أن تهدر قيمة القول،وقد يختلف البعض معنا فى هذا التصور ـ وهم قلة ـ وردنا على ذلك أن المعجزة الكبرى فى الإسلام هى القرآن ، الكلمة المُنزلة من عند الله فى إطار من الصدق والجمال والإعجاز ،كما أن الدعوة بنص القرآن: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]

إن الأدب بصفة عامة لون من ألوان الفنون ، وهو يضم الشعر ، وأنواع النثر الفنى؛كالقصة والمسرحية والمقالة والخاطرة وترجمة الحياة وغيرها،ورغم اختلاف تعريفات الأدب،إلا أننا نستطيع أن نستخلص منها سمات أساسية للعمل الفنى الأدبى،فهناك «الصورة الفنية» المؤثرة التى تتشكل من عناصر عدة ،أولها اللغة المنتقاة ، حيث تؤدى اللفظة الموحية المؤثرة وظيفة خاصة مميزة،هذه اللفظة لا تقوم بذلك وحدها، ولكن بارتباطها العضوى مع باقى الألفاظ فى نسق معين ،وبما تعكسه من فكرة،وتثيره من خيال ،وبما تحركه من عاطفة ،وتولده من اندماج،فالصورة الفنية تكاد تكون تجربة حية يحدث فيها نوع من التماذج بين الأديب والمتلقى ،ولونًا من الحوار الحار، والتفاعل الخصب.

والأدب الإسلامى ليس مجانبًا للقيم الفنية الجمالية ، فهو يحرص عليها ، بل ينميها ويضيف إبداعاته إليها ،والتراث الجمالى العالمى ملكية شائعة كالدين والعلوم والفلسفة ، لا يحتكرها شعب دون شعب،رغم اختلاف اللغات، وصيغها الفنية،ويبقى دائمًا فى الفنون الأدبية عناصر تكاد تكون لازمة لهذا اللون أو ذاك،فللشعر مثلا موسيقاه ، وإيقاعاته وأخيلته،وللقصة أحداثها وعقدتها وشخصياتها ، ولها بدايتها ونهايتها، وللمسرحية أشراطها الزمانية والمكانية والحوارية وجاذبيتها الدرامية ، وكل هذا ميراث مشترك.

والأدب الإسلامى يحرص أشد الحرص على مضمونه الفكرى النابع من قيم الإسلام العريقة ، ويجعل من ذلك المضمون ومن الشكل الفنى نسيجًا واحدًا،ويعول

على الأثر المترسب لدى المتلقى،ويساهم فى تشكيل مواقفه وحركته الصاعدة أو المتدفقة إلى الأمام.

والأدب الإسلامى يستوعب الحياة بكل ما فيها وفق التصور الإسلامى الصحيح ، لا يزيف حقيقة ،أو يخلق وهمًا فاسدًا، أو يحابى ضلالاً ، أو يزين نفاقًا ،بل يطلق نيرانه على شياطين الانحراف والقهر والظلم،ومن ثم ينهض بعزائم المستضعفين ،وينصر قضايا المظلومين ،ويبشر بالخير والحب والحق والجمال.

والأدب الإسلامى يعبر بصدق وأمانة عن آمال الإنسان الخيرة ، ويتناول نواحى الضعف والتردد والانحراف فيه بتسليط الأضواء عليها لفهمها والشفاء منها ، لا لمجرد تبريرها ،أو التماس الأعذار لها ،وهذا التصور نابع من وصف الخالق للمخلوق: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك] ، وهو أمر يجب أن يحفل به الأديب المسلم،بعد أن قدمت الآداب الغربية ـ بل والشرقية أيضًا ـ نماذج شوهاء للإنسان، وجعلت من التشوه بطولة وحرية،وصنعت من التمرد الفاسد تحقيقًا للذات،وإعلاء لشأن المخلوق .

والأدب الإسلامى ليس «عبثيًا» ،فليست الحياة عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] ،وهذا لا ينفى عن الحياة أنها «متاع الغرور » إنها امتحان وتجربة ،خلقت لغاية،ورسم لها الخالق سننًا وشرائع ونظامًا وقيمًا .

والأدب الإسلامى ليس قواعد جامدة ،أو صيغًا معزولة عن الحياة والواقع ، أو خطبًا وعظية تثقلها النصوص والأحكام ،ولكنه صور جميلة ، تتزين بما يزيدها جمالاً وجلالاً ، ويجعلها أقوى تأثيرًا ،على أن يظل أدبنا فى نطاق القيم الإسلامية الأصلية.

والأدب الإسلامى أدب الضمير الحى،والوجدان السليم،والتصور الصحيح،والخيال البنّاء،والعواطف المستقيمة،لا ينجرف إلى انحراف نفسى،أو اعتلال شعورى،أو مرض فلسفى تفشت جراثيمه فى الماء والهواء والفنون والأفكار والسلوكيات،وهو أدب الوضوح،لا يجنح إلى إبهام مضلل،أو سوداوية محيرة قاتلة،أو يأس مدمر، فالوضوح هو شاطئ الأمان الذى يأوى إليه الحائرون والتائهون فى بيداء الحياة المحرقة المخيفة.

ويختم الدكتور نجيب الكيلانى مفهومه للأدب الإسلامى بأنه : تعبير فنى جميل مؤثر ،نابع من ذات مؤمنة،مترجم عن الحياة والإنسان والكون،وفق الأسس العقائدية للمسلم،وباعث للمتعة والمنفعة،ومحرك للوجدان والفكر،ومحفز لاتخاذ موقف والقيام بنشاط ما .

البطل والقدوة فى العمل الأدبى (١)

البطل فى العمل الأدبى ـ قصة أو مسرحية أو ملحمة ـ هو تجسيد لمعان معينة، وقد يكون هذا البطل أنموذجًا يحتذى، أو مثالاً سيئًا يولد النفور، وهو فى كلا الحالين ذو تأثير إيجابى قبولاً أو رفضًا، وكلما كانت الشخصية ـ البطل ـ قريبة من الواقع، حافلة بعناصر الإقناع، مكتملة الملامح والسمات، أصبحت أكثر جاذبية وأعمق تأثيرًا.

فما هو التصور بالنسبة للبطل فى الأدب الإسلامى ؟

إننا لن نجد صعوبة تذكر فى وضع التصور الملائم لذلك، فالبطل ـ إسلاميًا ـ هو «القدوة» أو النموذج الذى تتجسد فيه القيم الإسلامية، هذه ناحية هامة، لكنها لاتغلق الباب أمام «نماذج» الضعف البشرى، أو البطولة الناقصة التى تحتاج إلى تجربة ومعاناة، وهى فى طريقها للنمو والاكتمال، وهذا دور هام لابد وأن يحتفى به الأدب الإسلامى، فما أكثر النماذج الشائهة أو الجانحة أو المنحرفة، وهى طبيعة كل مجتمع قديمًا وحديثًا، وشرقًا وغربًا، بل ربما كانت هذه النماذج الناقصة أكثر جاذبية بالنسبة لحامل القلم؛ لأنه يجد فيها مادة خصبة للمعالجة ومحاولة إخضاعها للعديد من العوامل والمؤثرات أو الأحداث، حتى تحقق من خلال نموها وتطورها بأسلوب مقنع ليصل إلى المثال المطلوب، أو القدوة المنشودة؛ لأن مهمة الدعاة ليست قصرًا على النماذج الصالحة الطيبة وحمايتها من الانزلاق أو المروق فحسب، ولكن المهمة الأكبر تكمن فى استنقاذ الجانحين، وإصلاح المفسدين، وفتح باب الأمل أمام اليائسين أو المترددين، والأخذ بأيدى التائهين إلى طريق الحق والخير والجمال.

البطل فى العمل الأدبى الإسلامى هذا، وذاك لأن الخروج من المأزق بطولة، وكذلك التخلص من سلبيات السلوك، وهواجس الضعف، وإغراءات الحياة الزائفة، والانتقال من حال متردية إلى حال متسامية، والخروج من السلبية إلى الإيجابية، والتخلص من أدران الشك والخوف والتسيب، والقدرة على بدء حياة نقية جديدة. كل هذا يعتبر ضربًا من البطولة الجديرة بالإبراز والتمجيد؛ لأنه يعنى انتصار الخير على الشر فى قلب الإنسان أولاً، وفى معترك الحياة ثانيًا، ومن هنا كانت التوبة التى أنعم الله بها على المسلم.

---

(١) المرجع السابق: ص ٥٠، ٥٥ ـ ٥٧ بتصرف.

والبطل فى الأدب الإسلامى ليس حكرًا على طبقة اجتماعية دون أخرى ، فالإسلام مجتمع متجانس ، أساس التفاضل فيه ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى ليست صلاة وصومًا ، وعبادة فحسب، ولكن جهاد فى سبيل الله، وكفاح من أجل لقمة العيش، ودأب على تحصيل العلم ،وبراعة فى الصناعة، وصدق فى القول والعمل، وتكافل اجتماعى وإبداع فكرى، وزراعة وتجارة، وقيادة وجندية ،وأمانة وعدل ووفاء ، وطهر ، ونقاء ،وبر وتسامح ،إنها ملتقى لكل القيم والمبادئ والآداب التى جاء بها الإسلام.

شخصية البطل إذن قد تكون « بلال بن رباح » العبد الحبشى ،وقد تكون « أبوبكر الصديق » خليفة المسلمين ،وقد تكون « سلمان الفارسى » أو« حمزة بن عبد المطلب » القرشى، وقد تكون« سمية » زوجة ياسر ، أو « رفيدة » أو غيرها من النساء ، وقد تكون فتى يافعًا ، أو شيخًا مسنًا .

الأدب الإسلامى الملتزم

يتردد فى بعض الأوساط الأدبية أن الأديب لا يمكن أن يبدع إلا إذا تحرر من كل الحدود ، والقيود التى تقتضيها قيم المجتمع وثوابته ،بحيث يكون المجال أمامة واسعًا للخوض فى كل القضايا الشائكة والمناطق المحرمة.

والأمر على هذا النحو لايخلو من التلبيس والخلط ؛ لأن هذا التصور يعنى أن «الإبداع» لا يجد له مجالاً إلا فى ظل ارتياد كافة الحواجز والموانع والعوائق دون تمييز بين الطيب والخبيث ،ودون التزام بتوجه ما ،وهذا زعم لا أساس له .

الفن قيد [١] :

إن الزعم بأن الأديب ـ وأى فنان سواه ـ لا ينتج بسخاء ما لم ترفع عنه كل القيود؛ فنية وغير فنية ،وإلا شاه جمال الفن ،فتلك مغالطة كبيرة.

ونحن مع إيماننا بأن الأديب يجب أن يكون حرًا طليقًا ،إلا أنه لابد أن تكون هناك مناطق تحريم ،ومناطق إباحة ،ثم نتساءل:كيف يكون وضع الأطر المناسبة فى الأدب قيدًا معوقًا ،مع أن الفن فى ذاته قيد ،فلابد من مراعاة أطر فضفاضة وحماية ضوابط معينة للفن من أن تنتهك حرماته.

الفن:هو الاقتدار على الضبط ، وإجادة التصرف والحركة فى أضيق المجالات والمساحات ،وأدق الأطر دون المساس بها أو خدشها أو تشويهها أو المروق منها .

الاقتدار على الحركة داخل هذا الإطار الضيق،هو المقياس الذى نفرق به بين الصادق والدعى،وبين الأصيل المتمكن ، والدخيل المتطفل،ولنضرب مثلين:

هل أبصرت يومًا قائد السيارة غير المجرب يرى الأرض الرحيبة والفضاء الفسيح أضيق عليه من سم الخياط؟وحين يجيد فن القيادة يمتلك زمام الأمر،فينساب فى المكان كأنه الساحر العجيب !! . فى أى حالتيه هو فنان،وفى أيهما غير ناجح؟!

أرأيت الطفل الذى لم تنم قدراته ،أولم تُنَمَّ مهاراته ،تعطيه الصفحة الكاملة ليرسم فيها شجرة ،فيحتج بصغر المساحة ،تعطى عشر معشارها لفنان مقتدر ،فيعطيك فيها عالمًا متكاملاً يضج بالحياة ،وينضح بالفتنه والجمال، أى هذين هو الفنان؟!

---

(١) د.صالح آدم بيلو: مجلة الأمة ،عدد (٤٩) ،المحرم ١٤٠٠ هـ .

هذا هو الأمر تمامًا بالنسبة للأديب الذى يراعى قيم مجتمعه، فهو لا يجرحها أو يشوهها ، فإذا هو أبدع وأجاد دون المساس بهذه القيم وتشريبها كان الفنان الحق، والأديب المبدع ، ومن هنا قالوا : « الفنان الحقيقى هو الذى يمثل بفنه مُثُلهُ العليا، وينظر دائمًا إلى عالمه بالمقارنة مع مثاله وقيمه ومبادئه ».

وكذلك الأديب الحق والشاعر المقتدر هو الذى يبلغ أهدافه ، ولا يضيق بالقيد فى عمله الأدبى من أن يصير وعاءً يستوعب أفكاره ومشاعره.

الالتزام منهج وأسلوب [1] :

الالتزام ليس بدعًا فى كثير من الآداب العالمية ، حتى أولئك الذين يؤمنون بنظرية «الفن للفن» يعملون فى نطاق التزام معين يرتبط بوجهة نظرهم ، وكل مذهب فنى أو أدبى يتحرك فى إطار تصور معين ، ويلتزم شكلاً وموضوعًا بقيم خاصة ، يحرص عليها ويدافع عنها باستماتة، فالذين يزعمون رفض الالتزام لأنه قيد على حرية الأديب . ومناف للقيم الفنية والجمالية، يلتزمون ـ سواء شعروا واعترفوا أم لا ـ بقواعد ومبادئ ، الالتزام إذن منهج وأسلوب عمل وفق تصور معين.

وهناك يمكن أن تسميه الالتزام الداخلى أوالذاتى، وهو الوجه الآخر للصدق . فالتعبير عن النفس ، وما يعتمل فيها، والفكر وما يتفاعل فيه، والخيال وما يضطرم به، والروح وما ينبثق عنها ، كلها أمور خاصة ، قد تميز أديبًا عن آخر ، وتجعل من الإبداعات ـ شكلاً ومضمونًا ـ تجارب لها صفة الخصوصية.

لكن الجدل يدور عادة حول ما يمكن تسميته بـ«الالتزام الخارجى» إن صح التعبير ، ففى كل مجتمع قيود أو نظم ، قد يرى بعضهم فيها غمطا لحقوق الإنسان ، أو كبتًا للحريات، أو جمودًا فى مجال التطور ، وهى على النقيض مما يتصور واضعوها ، والفنان يقف إزاء تلك النظم موقف التأييد ، أو الرفض.

ولكن ، ماذا يعنى الالتزام فى الأدب الإسلامى؟

الالتزام بمعناه الإسلامى الواسع هو «الطاعة» التى هى قناعة إيمانية ، وسلوك مطابق لحقيقة العقيدة ، الالتزام إذن عمل يبدأ بالنية الصادقة والعزم الذى يتزعزع ، إنه وئام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين الآخرين، وهو يضم تحت جناحيه قيم الحياة الإسلامية وقوانينها، وتصورات المؤمن لما يحيط به من كون وسنن، ويمتد ذلك التصور ليربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ومرجع ذلك كله هو كتاب الله وسنه نبيه ﷺ.

---

(١) د. نجيب الكيلانى : مرجع سابق ، ص٧٥ ـ ٨٥ بتصرف

الالتزام هنا هو الطاعة، والطاعة تجد النور الذى يهدى، والغاية التى تتألق ، والوسيلة التى توصّل ، والبينات التى تقنع ، والتجربة التى تؤكد ، واليقين الذى ينداح سعادة كبرى بين الجوانح . فهل هذا الالتزام داخلى أم خارجى؟

إنه هذا وذاك ، بل الأصح : إن التصور الإسلامى يجعل من الاثنين شيئًا واحدًا، إنه الكل فى واحد، فما فى نفس المؤمن وقلبه ، يضيء جنبات الحياة ، والالتزام ليس نقيض الحرية بمعناها الأصيل ، ففى الإسلام هناك ضوابط لم يخترعها فرد، وموازين لم ينصبها حاكم ، بل هى من صنع الخالق جل وعلا، روعيت فيها طبيعة الإنسان وإمكاناته وقدراته النفسية والعقلية والبدنية ، وهى فى جملتها وحى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]، والمسلم خاضع لحساب الدنيا ، ولحساب الآخرة عند من لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولافى السماء.

حرية المسلم مرتبطة بعقيدته، وبالمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه، والالتزام فى هذا التصور لا يتضاد مع الحرية الأصلية ، فلا هى مفسدة له ، ولا هو معطل لها ، ألم نقل: إن الالتزام هو الطاعة ، والطاعة موقف ، وبالتالى فإن الحريه تصبح من أهم حقوق المؤمن، ورحم الله عمر رضي الله عنه إذ يقول: « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا » ، فالحرية دين وفطرة ، والالتزام فى فكر المؤمن وقلبه ليس نقيضا للحرية ، فكيف يكون الالتزام الإسلامى تقيضا للحرية ، وهى جزء منه ؟!

والالتزام ـ فى نطاق الحرية الإسلامية ـ لا يضع قيدًا على فكر، ولايعطل مسيرة أى جهد علمى، ولا يصادر إبداعًا فنيًا ، إنه تحرير للطاقات الإنسانية كى تؤدى دورها ، وتحقق ذاتها ، ولا يحد من طبيعة التفاعل الإنسانى الخلاق ، وإذا كان التفاعل الكيميائى ـ بلغة العلم ـ له اشتراطاته وضوابطه حتى يتم وينجلى عن مركب جديد ، فإن الحرية ـ إن صح التعبير ـ تحوطها اشتراطات وضوابط تجعلها تفعل فعلها على النحو الأمثل، فيتشكل الإنسان على هيئة كيان معبر عن قيم الحضارة الإسلامية، وبذلك يوصل الرسالة الخالدة بالصورة الصحيحة، دون تحريف أو تبديل، ومن ثم يقوم مجتمع متآخ متناغم ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ».

والأدب الإسلامى وسيلة لحمل هذه القيم، والتبشير بها بين البشر، يترنم بها فى قصيدة جميلة، أو يرويها فى قصة شيقة، أو يمزجها فى إطار مسرحية تشد الألباب والقلوب، وتؤثر فى النفوس، والالتزام بذلك جزء من طبيعة هذا الدين ، ومسؤولية من مسؤولياته الكبيرة الكثيرة ، وطريقة من طرائقه فى التواصل بين الإسلام، وبنى البشر قاطبة ، وذلك

لتزدهر براعم الحب والخير والفضيلة فى أنحاء الأرض ،ويتحقق المجتمع الأمثل،أو «المدينة الفاضلة» الحقيقية.

الالتزام الإسلامى درجتان:

بيد أن الالتزام الإسلامى له درجتان اثنتان،لا تقوم أولاهما ولا تكتمل وتعطى ثمرتها الموجوة إلا بوجود ثانيتهما ،وتنعدم الثانية هذه ، ما لم تقم وترتكز على الأولى وهما (١) :

الدرجة الأولى من الالتزام الإسلامى ،هى أن المبدع والأديب الملتزم إسلاميًا حين يبدع أدبًا وفنًا،يحرص ألا يتصادم فنه مع قيمه وقيم مجتمعه المسلم ،فهو من جانب لا يحقرها ولا يهون من شأنها ،ولا يسخر بها ، يعنى أنه يحترمها ويجلها ،ومن جانب آخر هو يتباعد عن أن يأتى عملاً فنيًا تخريبيًا يغرى بمقارفة الآثام والشرور،ويحرض على مقارنة الرذائل والفواحش، وإلا إن هو فعل ذلك ،عُدَّ من المفسدين فى الأرض .

إن المبدع المسلم حين يبدع ،يتباعد عن أن يكون مخربًا مفسدًا بأى من الصورتين السالفتين،فيمسك شره ،يتناءى عن الإفساد والإضلال،يكون فنانًا ملتزمًا دون ريب، وعمله هذا محمود مشكور على أية حال ، ولكن أى التزام،وما درجته ، وما مستواه؟

إنه التزام الحد الأدنى ، الالتزام السلبى غير الإيجابى،لأنه التزام الكف والامتناع ، وهو على أحسن الفروض «نصف التزام» إن صح التعبير.

أما الدرجة الأخرى من الالتزام الإسلامى،فهى الالتزام الأرفع والأسمى والأمثل، التزام الإيجاب الذى يحتاج إلى بذل الجهد والطاقة لإيجاد شىء وإتقانه وإحسانه، حيث لا يكتفى هذا الملتزم بمجانبة الفساد والإفساد والابتعاد عنهما ،ولكن يسعى للبناء والإنشاء والتعمير،وإتقان هذا البناء وتحسينه.

نريد بذلك أن الأديب المبدع الملتزم إسلاميًا ، لا يقف بأعماله الفنية عند حد الامتناع عن عمليات التخريب العقدى والأخلاقى ، ولكن عليه أن يخطو خطوة أخرى إلى الأمام، فيوظف أدبه وفنه توظيفًا فنيًا لبناء مجتمعه بقيمه الدينية والخلقية،ويرسخ فيه قيم الإيمان والنظافة والطهر والجمال ، ويقاوم فيه الشر والفساد والقبح وكل ما يتصادم مع معطيات مجتمع الخير والفضيلة والجمال ، مجتمع الإسلام وما يشوّه وجهه السمح الجميل.

وبهذا نرى أن الالتزام الإسلامى ،التزامان: التزام سلبى ، وآخر إيجابى ،أو

---

(١) د.صالح آدم بيلو: مجلة الأدب الإسلامى ،العدد الثانى ،ص٢١ ، ٢٢ بتصرف.

قُل: هو التزام ذو وجهين : وجه فى الجانب الأدنى ،وآخر فى الجانب الأعلى ، والعُملة لا تكون صالحة للتداول ما لم يكن لها وجهان صحيحان ، وإلا فهى عملة زائفة لا تجد قبولاً ولا رواجًا ،و مآلها الطرح والنبذ بعيدًا ، هذا إذا لم يُحَلْ المتعامل بها إلى ساحات القضاء .

الأدب المرفوض

نعنى بالأدب المرفوض: تلك الأعمال الأدبية بصورها المختلفة من رواية وقصة وأقصوصة ومسرحية وشعر،التى تتناول قضية اجتماعية أو أخلاقية أو دينية من منظور غير إسلامى،أو يتعارض مع المنهج الإسلامى فى الإنسان والكون والحياة ،دون تقدير للضوابط والحدود القائمة بين الحلال والحرام ،وبين الفضيلة والرذيلة ،وبين الزواج والبغاء ،وبين العفة والإباحية ،وبين حرية الإبداع والخوض فى المسلَّمات والمقدسات.

وسوف نعرض فى السطور التالية لنموذجين من «الأدب المرفوض»،أولها ذلك الأدب الذى يسىء لمشاعر المسلمين بالنسبة لمعتقداتهم وموروثاتهم،وثانيهما ذلك الأدب الذى يمكن أن نطلق عليه «أدب الفراش» حيث يتناول قضايا المرأة فى المجتمع الإسلامى تناولاً إباحيًا ، لا أخلاقيا ، ثم نعرض لنهج الإسلام فى معالجة هذه القضايا الشائكة من خلال نموذج أدبى نظيف.

أدب الرمز واحتقار الأديان :

دأب بعض المنتسبين إلى الحركة الأدبية على الإساءة لمشاعر المسلمين ، وثوابت عقيدتهم والطعن فى اليقينيات والمسلمات من خلال إنتاجهم الأدبى من خلال الرمز أحيانًا ، وبالتصريح الفج أحيانًا أخرى ، وكل ذلك بدعوى الحداثة وحرية الفكر والإبداع.

ويبدو فساد عقيدة «كبيرهم» نجيب محفوظ،وشطحات مفاهيمه فى الألوهية من خلال روايته المشهورة «أولاد حارتنا» التى تقوم على السخرية والاستهزاء بالأنبياء والرسل والملائكة والدار الآخرة،بل والتشكيك فى وجود الله ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** (٥)﴾ [الكهف] ، وقد استقبل المستشرقون ودعاة التغريب والكارهون للإسلام هذه «الرواية الملحدة» بأسمى مظاهر التقدير والإعجاب، وكتبوا عنها البحوث الضافية ،ورفعوا صاحبها إلى الثريًا ،بل منحوه عنها جائزة «نوبل» فى الآداب.

وقد حاول نجيب محفوظ أن يقول فى هذه القصة بالرمز كل ما عجز عن قوله صراحة عن مفهوم مادى زائف ، وعقيدة مضطربة ،ونحن لانستغرب هذا الفهم من نجيب محفوظ الذى هو فى الأساس من تلاميذ سلامة موسى الذى دربه على الفكر المادى وأعده ليكون واحدًا من المدرسة التغريبية،وغرس فيه مفهوم احتقار الأديان

والقيم والاندفاع نحو الفرعونية ثم الماركسية، ثم نحو معارضة كل القيم الأساسية لهذه الأمة فى عشرات المواضع من كتاباته وقصصه، وفى استعلاء طابع الجنس على كتاباته ورواياته ، واستهانته بكل القيم والمقدسات ، وقد احتفلت «أهرام هيكل » برواية أولاد حارتنا وظنوا أنها يمكن أن تمر على الناس بسهولة، فلما اكتشف الناس رموزها وعرفوا أنها تهدف إلى الانتقاص من ذات الله تبارك وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا علت صيحاتهم ، فأوقفت الرواية ومُنع نشرها، ثم نشرت فى بيروت، وبعد حصول مؤلفها على جائزة نوبل نشرتها صحيفتا الأهالى، والمساء كاملة ، مخالفة قرار مصادرة الأزهر لها، بل وبلا إذن من المؤلف، وليست « شخصيات » القصة رموزًا ، بل هى تحوير لغوى لاغير لأسماء الأنبياء موسى وعيسى ومحمد، ويقال: إن القصة مشاركة من نجيب محفوظ فى ذلك الحوار الواسع الذى جرى على المنابر المصرية بتوجيه من جهات مسؤولة لتحديد اختبارات فكرية واضحة ، ولعل ذلك فى الوقت الذى كانت تجرى فيه المحاولة بواسطة مراكز القوى على إقناع منظمات الشباب بقبول العقيدة المادية وإنكار وجود الله، واحتقار الأديان، فكان نجيب محفوظ أداة طيعة فى هذا الاتجاه (١) .

وهذا نموذج آخر : يوسف السباعى ، الذى جعل من السخرية طابع كتاباته ، فهو يسخر من كل شيء، حتى من القيم المقدسة ، وآية ذلك روايته «نائب عزرائيل » ، وتدهش حين تراه يوجه كلا من الملك المكرم سيدنا عزرائيل ملك الموت، فيقول: «ستلمس لى العذر إذا علمت أنى رجل أحب المزاج (!!) ، أو أننى أرى أن المرء لا يربح فى حياته إلا ساعات الضحك (!!) ، وإذا علمت أيضًا أن الإنسان بطبيعته مخلوق مهرج، إنه لايغريه شيء كالغزل والتهريج(!!) ، وأنك إذا ما أردت منه أن يستمع إليك فاضحك أولاً ثم قل له ما تريد قوله (!!)، لا تظن بقولى هذا تزلفًا فالتزلف لا يكون إلا لخشية أو حاجة، وما كان بى من خشية منك ، ولا حاجة إليك (!!)».

بهذه اللغة الرديئة يتحدث مثل يوسف السباعى إلى الملك المكرم ، ملك الموت، الذى يقبض أرواح البشر، وكيف يتصور يوسف السباعى أنه يستطيع أن يصور هذا الملك الكريم على حقيقته من رواية هزلية وسخريات خليعة ، إن جهله بمفهوم الموت فى الإسلام ، وموقف الإسلام من الملائكة هو الذى أورده هذا المورد الخطير، فهو يحاول أن يصور أمر الموت على أنه خبط عشواء، «وأن مع«عزرائيل» قائمة، وأن فيها طبيبًا يموت قبل مريضه، وعروسًا قبل زواجها ، بينما يجد الشحاذ الضرير لايزال حيًا بلا خوف».

والواقع أن حكمة ذلك كله لها مفهوم فى تقدير الله تبارك وتعالى لا يصل إليه

(١) أنور الجندى : الصحافة والأقلام المسمومة ، دار الاعتصام ، ص١٩٤ ، ١٩٥ .

السباعى إلا إذا فهم حكمة الخلق والوجود والموت، أما سيدنا عزرائيل، فإنه ملك مكلف من قبل ربه عز وجل ، وما هكذا يتناول الكتاب والقصاص مثل هذه الأمور [1].

أدب الفراش :

حاول أدباء الإباحية والانحلال كسر الحواجز الطبيعية والخلقية بين الرجل والمرأة بتصوير الخيانة الزوجية على أنها شيء لا غبار عليه ، ولا أهمية له، وهو فى الأخلاق الإسلامية عمل شائن وخطير، ومن هنا كانت دعوة «أدباء» التغريب بالبعد عن التعصب فى مثل هذه الأمور، وهى دعوى ماسونية، وذلك أن القصة الغربية تصور أن زلة الزوجة وخيانتها تنتهى بصفح أو عقوبة ضمير، وهذا مختلف عن موقف المسلم اختلافًا واضحًا عميقًا، فالمسلم والعربى قد يصل به الأمر إلى الانتقام والقتل .

إن كُتاب الجنس والغرف المقفلة ، وأدب الفراش يصورون المرأة على أنها أداة للجنس والشهوة ، وأنها تجرى وراء أهوائها، وأن علاقتها بالرجل هى علاقة المطاردة والإغواء والإسقاط بالخداع فى براثن الانهيار، حتى إذا قضى منها مأربه انصرف عنها إلى غيرها، ولم يقدم أدب الفراش قصة ذات هدف كريم أو على غير قاعدة الجنس، وقد ترددت كلمة «الحب» على ألسنة الكتاب والشعراء والقصاصين على نحو أزرى بهذه اللفظة ومرّغها فى الوحل، وجعل منها عبارة مبتذلة لا تدل إلا على أحط ما يثور فى الإنسان من نزعة الجنس .

وقد صور حامد بدر [2] الآثار الخطيرة المترتبة على استشراء القصة الإباحية، فقال: إنها تملأ فراغ المراهق بالأفكار الملوثة، وتسكب فى غريزته الظامئة ما يزيده ، للانحراف ظمأ، ويوجه طاقته أسوأ توجيه، فلماذا ننفث فى وعى الناشئين والناشئات سمومًا من القصة المبتذلة المتبرجة ؟ إن المداد الذى يكتب به الكاتب ، إنما هو دواء شاف أو سم زُعاف، وإن السم الذى يدسه بعض محترفى الأدب فيها يسمى بالقصص الواقعى لهو أشد السموم خطرًا وفتكًا، وتاجر القصة المنحدرة مثل بائع الحلوى المتجول الذى لا يحصل على الربح إلا من أيدى ضحايا أبرياء فى الحارات والأزقة، لا يفتحون عيونهم ليروا الأتربة والذباب عندما يفتحون أفواههم لالتهام الحلوى المكشوفة الملوثة .

فكاتب القصة المكشوفة إنما يستثير غرائز قارئه السطحى، وينحدر به متملقًا غريزته الهائجة ليضعف أمامها ، ويطيح فى سبيلها بكل القيم .

تلك السموم التى تدخل بيوتنا فى قصص وروايات فيقرؤها أبناؤنا وبناتنا على أنها أدب، وتدخل السينما صورًا متبرجة عارية فيشاهدها أبناؤنا على أنها ترفيه وتسلية، وهى

(١ ، ٢) أنور الجندى : مرجع سابق ، دار الاعتصام ، ص١٨٠ ، ١٨٧ .

الوباء الذى تصعب الوقاية منه، والذى يسحق قوانا المعنوية سحقًا بلا رحمة، ويهدم كياننا من حيث لا ندرى، إن الطاقة الهادمة تتجه إلى «الانحطاط» وتستسهله وتمضى فيه. ولاسيما إذا وجدت تغاضيًا وتهاونًا، بل تشجيعًا ورعاية، عكس الطاقة البانية التى تتجه دائمًا نحو «الصعود».

وإذا نحن راجعنا قصص أحد كبار أدب الإباحية ـ إحسان عبد القدوس ـ لن نجد تحليلاً لمشاعر المرأة، بل مجرد تصوير جنسى صارخ أشبه بصيحات مراهق محروم، ونماذج المرأة فى قصصه لا تعطى أبدًا صورة المجتمع الإسلامى العربى المصرى، فالبطلة فى «النظارة السوداء» من سلالة أجنبية، وفى « راقصة فى إجازة » نموذج لراقصة أجنبية حلت بمصر، وهناك فتاة نشأت شاذة منحرفة، وامرأة خلابة لعوب.

يقول أحمد حسين الطماوى[1] : من يتأمل معظم قصص إحسان التى أدارها على ألسنة أبطاله يجدها محركة لغرائز المراهقين، مما يجعل شهواتهم تتراكض مستشرية فى نفوسهم، والصور الوصفية التى يعرضها لا يمكن أن تكون تصويرًا اجتماعيًا، فمثلاً فى «أنا حرة» يصف أمنية: «وقد ألقت بجسدها فوق جسد شاب، وتركت خصلات شعرها تدغدغ وجهه، وتملأ أنفه بعبير أنوثتها، ثم أحست بكفه تترك فوق ظهرها وتتردد بين كتفيها كأنه كف أعمى يبحث عن باب الدخول» .

وفى«الطريق المسدود» يقول: «قررت أن تكون سافلة ومنحطة، وأخلاقها زفت علشان الطريق ينفتح قدامها»، فهل هذه الأوصاف تعبر عن الحياة الاجتماعية ، وهل من الحكمة أن يكون الانحلال واستطلاع أخبار البغاء ورصد الشذوذ هى أفضل الموضوعات لدراسة المجتمع؟! إننا لا نطلب من الكاتب أن يلغى مفعول الغرائز، ولكنه يجب أن يعمل على تهذيبها ويعبر عنها بطريقة لا ينفعل القارئ بها انفعالا شهوانيا ، كذلك فإن تصويره للشخصيات فيه مغالطة كبيرة ، وافتراء على الواقع ، فالأم فى قصة أنف وثلاث عيون تأخذ بيد ابنتها لتسلمها للضياع ، وتساوم الرجال عليها وكأنها قوادة، وهذا أبشع تصوير للأم ، والطبيب يدمن المخدرات ويقنع الناس بفائدتها وكأنها «روشنة» سنه للمريض لكى (يروق دماغه) ، والزوجة حين تختلى بزوجها تتحمله فوق صدرها ، وهى تحسب الثوانى ليقوم عنها ، وذلك فى قصة «أين عمرى».

هذه هى شخوص إحسان عبد القدوس، وهى شخصيات منحرفة، ولا يمكن بحال أن تعبر عن القاعدة العريضة للمجتمع الإسلامى وأخلاقياته وقيمه .

---

(١) نور الجندى : مرجع سابق . دار الاعتصام ، ص ١٩٩ .

الفاحشة فى الأدب الإسلامى :

إن طريقة عرض قضايا المرأة وأخبار الجنس فى الأدب الإباحى، هى فى نهاية المطاف دعوة إلى إشاعة الفاحشة والانحلال وتدريب الناس على فنونها، بيد أن الله تعالى حذر كل من يقوم بذلك، بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور] ، ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف:٢٨] ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والقصص القرآنى الكريم، وهو يعرض قصص «الفاحشة» لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المختلفة الانحراف والمشارب، كما يفعل أصحاب القصص فى العصر الحديث، فلحظة الجنس لا تستحق التوقف عندها، فهى ليست الحياة وإنما وسيلة من وسائل الحياة ، إنه عارض وينتهى فاسحًا المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة الإنسانية ، فالقصة هنا تدعو لإقامة مجتمع نظيف مبرأ من العلل ، دون فتنة أو انحراف ، فالتفنن فى عرض لحظة الجنس إسراف فى المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية ، وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية (١).

تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن «الفاحشة» وهى كذلك ينبغى أن تكون مرعية فى كل القصص الإسلامى، إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية، نظيفة كانت أو غير نظيفة، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف ، ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض ، لحظة ضعف لا لحظة بطولة، ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يظل دائرًا فى حلقتها المرتكسة على الدوام (٢).

فالإسلام لا يغفل العاطفة والرغبات الغريزية لدى الإنسان ، لكن ما ينبغى صنعه فى النموذج الأدبى، ألا تشغل هذه الغرائز الحيز الأكبر فى فن اللوحة الطبيعية لهذا الإنسان، فالأدب الإسلامى، والأديب المسلم كذلك لا يهملان العاطفة ولا لحظات الضعف، أو على الأقل ألا يمجد هذا الضعف أو السقوط أو تدلغى مشاهد الرغبة والعاطفة على المشاهد العظيمة فى حياة هذا الإنسان ، ولكن تصور هذه الأشياء على أنها ضعف، ومنافذ للشيطان، يهتف به الأديب للارتفاع عن هذا الضعف أو السقوط ؛ لأن الأدب الإسلامى أدب الاستعلاء والرفعة بهذا الإنسان، وأدب التطوير لهذه الحياة، أدب

---

(١) محمد قطب عبد العال : مرجع سابق ١/ ٧٨ ، ٧٩.

(٢) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ، دار الشروق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

الحياة ، تلك مهمة الأدب الإسلامى ؛ والارتقاء والإصلاح والتطوير، فالإنسان وإن كان غاية العمل الأدبى إلا أنه ليس كل هذه الغايات، فلقد أخطأ الذين تصوروه كذلك، ولكن هذه الغاية (حتمًا ستصل بالإنسان من الإحساس بالضياع أو البعث الذهنية التى هى فى قمتها سكينة وأمن، يخلص الإنسان الإحساس بالضياع أو العبث لأنها غاية قائمة على الحكمة) (1) .

وهذا الاتجاه الذى أشرنا إليه، هو الذى اقتفاه القرآن الكريم فى عرض المواقف الشائكة عن طريق العبارات العفيفة والألفاظ السامية، كما نجد فى قصة يوسف عليه السلام. قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف:23]، ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف:24] ، ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف] .

ومثل هذه الطريقة نجدها أيضًا فى قصة لوط عليه السلام التى نتعرض لموقف اللواط، وهو موضوع شديد الفحش، ولكن الفن الرفيع فى القرآن الكريم استطاع تناول هذا الموضوع بلفظ رفيع كريم يفيض بالعفة والسمو: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) ﴾ [النمل]، كما يقول تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ﴾ [العنكبوت] .

فالقصة القرآنية أو النبوية لا تتجه إلى وصف المشاعر الجنسية المشبوبة التى ربما سيطرت على الإنسان فى مثل تلك اللحظات، كما أنها تهمل أيضًا وصف محاسن المرأة، وتصوير مفاتنها، وما فيها من إغراء يثير التلذذ.

كما أن منهج القصة فى تناول مثل هذه الموضوعات، من عدم الوقوف الطويل عند مواقف الضعف والهبوط، إنه يمر بها سريعًا ولا يركز عليها أو يسلط عليها الأضواء ؛ لأنها لا تستحق ذلك، فهى ليست سوى عارض لا يلبث الإنسان أن يفيق منه.

وقد استطاعت الرواية ذات الطرح الإسلامى أن ترسم صورة متكاملة عن المرأة، وأن تجسد عبر تقنيات السرد والوصف والحدث مختلف الأوضاع الفكرية والسلوكية للمرأة المعاصرة، وتمثل «بدرية» فى رواية «ليالى السهاد» للأديب الطبيب نجيب الكيلانى صورة المرأة المسلمة التى واجهت مشكلات جسيمة، تمثلت فى اعتقال زوجها

---

(1) د. محمد حمدون : نحو نظرية للأدب الإسلامى ، دار المنهل ، الطبعة الأولى 1986م ، نقلاً عن مجلة الوعى الإسلامى ، عدد (352) ، شعبان 1415 هـ ، ص43 .

«عبد القادر» بتهمة الانتماء للحركة الإسلامية ، وارتسم بين يديها طريقان : طريق السقوط والانحراف، وطريق الصمود والثبات، فاختارت الطريق الثانى ، وتمكنت من الحصول على عمل شريف لتعول به نفسها وطفلتها « هدى » ، ولم يقتصر صمودها على هذا المستوى ، بل عبرت عن حالة رفيعة من الصبر والثبات ، وهى ترى زوجها - بعد الإفراج عنه الذى حقق نجاحًا باهرًا فى عمله يستسلم لضعفه ، فيتزوج «صافى » نموذج المرأة المتحررة من رقابة الأخلاق والضمير ، الغارقة فى عالم الفن الساقط : «صافى ، لعلها الباب الذى يدخل منه التائبون والنادمون إلى الدنيا الجديدة ؛ حيث المرح والسرور ، والشطرنج والكؤوس ، وعرض أفلام، والبذخ، والغناء، والاختلاط، والمؤانسة، والحب. . . »، وبالرغم من وخز هذه المعاناة ، كانت تتسلح بالمقاومة النفسية، وتتقرب من زوجها لتمسح عنه آلام ضعفه ومعاناته . . إلى أن انتصرت، وكُللت جهودها بالنجاح، حيث يستيقظ «عبد القادر» من غفلته فيطلّق زوجته الثانية «صافى» لأنها لا تمت بصلة إلى عالمه الفكرى والسلوكى المؤسس على صفات الالتزام ومبادئ الأخلاق ، ونستطيع القول: إن الكيلانى برصده للملامح الداخلية والخارجية لشخصية «بدرية» و«صافى» يكون قد أقام علاقة انفصالية بين عالمين متباينين: عالم المرأة الملتزمة، وعالم المرأة المتحررة التى تحولت إلى رقم جديد فى عالم الدعارة والجاسوسية (١).

فهذا نموذج مضىء من نماذج الأدب الإسلامى، وهى قادرة على أن تمثل منطلقات تطبيقية للمنهج الإسلامى الأمثل فى معالجة هذه الموضوعات الحساسة، وإبراز الصورة الحقيقية للمرأة فى المجتمع الإسلامى، وهذه الطريقة الحكيمة فى معالجة مثل هذه القضايا لن تؤتى ثمارها المرجوة إلا إذا جاءت فى إطار جهود جماعية وتبنتها جهات مؤثرة.

---

(١) د. صالح آدم بيلو : مجلة الأدب الإسلامى ، العدد الثانى، ص ٣٨.

الأدب واللغة

كانت هناك ـ وما زالت ـ حرب ضروس ضد اللغة العربية، أداة التعبير ووسيلته، عن طريق التشكيك فى صلاحيتها للعصر، واستيعاب المدنية الحديثة، وفى هذا السياق نشأت دعوات خبيثة لتغيير بنية اللغة ، واستخدام اللهجات العامية فى التعبير الأدبى والكتابة والإعلام ، والهدف من وراء المواجهة مع اللغة هو إبعاد المسلم ـ وخاصة الأديب ـ عن القرآن الكريم، معجزة الإسلام الخالدة ، ورمز البيان المعجز فى أمة اشتهرت بالبلاغة والفصاحة، وبالتالى إبعاد الأديب المسلم والمسلمين عن الإسلام .

ويبدو أن بعض الأدباء قد توسع فى استخدام العامية، فأخذ يكتب معبرًا عن نفسه شعرًا ونثرًا، معتقدًا أنه لا يستطيع أن يوصّل ما فى نفسه لغيره إلا بهذه اللهجة، وأنه بذلك يعبر عن فئة كبيرة من الناس.

ومن غير الجائز أن نترك هذه اللهجة فى نمو مطرد ؛ لأن فى ذلك خطرًا على لغة القرآن ، كما أن فى تعزيز اللهجة العامية أقوى وسيلة لتفتيت كيان هذه الأمة ، وقد أدرك أعداء الأمة العربية هذا الأمر ، فبادروا إلى الدعوة لاصطناع اللهجة العامية معتمدين على امتزاجها بالحياة اليومية، وإذا كانت اللهجة العامية فى كل عصر خطرًا على الفصحى، فهى أعظم خطرًا فى عصرنا هذا ، لما للتلفاز والإذاعة والصحافة وفضلاً عن القنوات الفضائية من تأثير قوى على الناس ، إذ إنها تلقانا فى الصباح وفى المساء.

والأدب العربى والإسلامىَ يعانى خلال العقود القليلة الأخيرة من شيوع العامية التى روج لها دعاة التغريب، فخرج لنا أدباء يفكرون بعقل الغرب، وينظرون بعين الغرب، يتفاعلون بمشاعر الغرب

وقد كان يوسف السباعى لا يجيد الكتابة بالفصحى إلا بصعوبة، ويفضل عليها العامية ، ويتحدى فى وقاحة شديدة ويسخر من الفصحى، ومن سلامة الكتابة على أصول اللغة ، وقد هوجمت قصص يوسف السباعى (وخاصة إنى راحلة)لأنها بالعامية .

ولا يبالى يوسف السباعى أن يقول : « إنى لا أهتم مطلقًا بمبادئ اللغة وأعتبر أن أسلوبى (كويس كده) وليس فى حاجة إلى المحسنات اللفظية ، والواقع أن لغتنا العربية سخيفة ، وفيها (حاجات مش معقولة) واحد مجنون مثلا قال لنا: « خلى الكلمة دى تبقى كده » وخلاص وهى عملية مجهدة لا معنى لها ولا نهتم بها الآن أو يحافظ عليها

المصححون فى الجرائد ، وأنا على كل حال أعتبر اللغة وسيلة وليست غاية ». .إن مثل هذا الهراء لو وضع موضع النقد الحقيقى لكان حفيًا بأن يطرد كاتبه من ساحة الكتابة الأدبية، ونأسف لأن جريدة تنشر مثل هذا الكلام «المساء» (١).

(١) أنور الجندى : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

الأدب الإسلامى وأثره فى الأدب الغربى [1]

إن ذيوع وانتشار ما أخذ الغرب عنا فى مجال العلوم التجريبية، غطى على ما أخذه الغرب من آدابنا التى ازدهرت فى ظل قيم الإسلام، واتخذت من التصور الإسلامى للحياة جوهراً لها لتجول فى كل القضايا.

ونشير إلى أن الأدب الفارسى، والتركى، وغيرهما من الآداب التى نمت فى ظل الإسلام، تدخل فى مفهوم الآداب الإسلامية، ولكن حبذا لو ترجمت إلى العربية فيتوحد الإطار الفنى لهذه الآداب.

ولقد كان تأثير الآداب الإسلامية فى الآداب الأوربية أمراً ينكره المتعصبون، ولكن المنصفين من الغرب والشرق يعترفون الآن بما لحضارة الإسلام وآدابه من أثر فى نهضة العالم الفكرية، حيث انتقلت الآداب الإسلامية إلى أوربا عبر الدردنيل والأندلس وصقلية، وهذه من أهم معابر اتصال الآداب الإسلامية بالفكر الغربى، حيث استمر حكم المسلمين للأندلس زهاء ثمانية قرون، أضاءت فيها مشاعل المسلمين مختلف جوانب الحياة الفكرية، والأدب فى مقدمتها.

وحين كانت أوربا ترزح تحت نير الجهل والفساد، كان المسلمون الأسبان قد أقاموا حضارة زاهرة، وحياة فكرية منظمة، وقد أدت إسبانيا الإسلامية دوراً مهمًا فى تطوير الفن والعلم والفلسفة والشعر، واتسعت دائرة تأثيرها حتى تجلَّى هذا التأثير فى أرفع أعلام الفكر النصرانى فى القرن (٧هـ ـ١٣م)، أى عند توما الإكوينى ، ودانتى، وكانت إسبانيا آنئذ مشعل النور فى أوربا.

ويعتبر عصر الإمبراطور «فريدرك الثانى» ملك صقلية فى القرن (٧هـ ـ١٣م) قمه التأثير العربى الإسلامى فى صقلية، حيث نشأت فى بلاطه مدرسة الشعر الصقلية التى أسهمت فى وضع أسس الأدب الإيطالى الحديث، كما يقول المستشرق «جب» الذى يؤكد أن الشعراء النصارى كانوا يحتذون حذو الشعراء المسلمين، وقد أسس هذا الملك جامعة «نابولى» سنة١٢٢٤م لنقل الفكر والعلم العربى إلى العالم الغربى، وأثناء الحروب الصليبية تم نقل كثير من العلوم والفنون والآداب والمخطوطات التى توجد حاليا فى

(١) د. سعد أبو الرضا : مجلة الأمة ، عدد (٤٩) ، المحرم ١٤٠٥ هـ ، ص ٢٦ـ٣٠ بتصرف.

كبريات مكتبات ومتاحف أوربا.

وهكذا يشهد الفكر الأوربى فى القرن ١٧م ـ قرن النهضة الأوربية ـ الأثر الجلى الواضح لآداب المسلمين وفكرهم ، وكلما اتسعت حرية الفكر، وازدهرت الدراسات المقارنة ، كلما تكشفت الأمور عن أثر جديد لآدابنا الإسلامية فى آداب الغرب؛لذلك نجد هذا القرن حافلاً بالكثير مما اكتشف فى هذا المجال ، مثل:

الإسلام والكوميديا الإلهية: لميجويل آثين بلاثيوس، هذا المؤلَّف الذى طبعت ترجمته الإنجليزية فى لندن ١٩١٩م ،وقد أشار فى مقدمته إلى ما انتقل إلى إسبانيا من تراث الإسلام الفكرى والروحى والأدبى ،ثم عرض للمصادر الإسلامية التى أثرت فى الكوميديا الإلهية لدانتى ،ومنها المعراج ورسالة الغفران.

تراث الإسلام: «ألفريد جيوم وآخرين» ثلاثة أجزاء،حيث ذكر أثر آداب الإسلام فى مختلف آداب الغرب،وقد ترجمته لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة سنة ١٩٣٦م ،ثم قامت سلسلة عالم المعرفة الصادرة فى الكويت بنشره منذ عام ١٩٧٨م.

وفى الشعر: كان للآداب الإسلامية أثر كبير على الشعر الأوربى،حيث إن تقاليد جانب كثير من شعر «التروبادور» الذى كان شائعًا فى مقاطعة «بروفانس» جنوبى فرنسا كانت تناظر تقاليد الشعر العربى الإسلامى فى مجتمع الأندلس،لا سيما من حيث القافية والوزن العربى الذى سارت عليه الموشحات،ويقول «جوستاف فون جرنبا وم» : «والحق أن الشعر البروفانسى يكاد يكون شرقيًا عربيًا من جميع الوجوه،خاصة من حيث الشكل والموضوع، مع ملاحظة أن الطرز الأصيلة لجميع أنواع الأناشيد التى ألفها التروبا دور كانت موجودة فى شعر العرب الأندلسيين».

وكان للشعر الفارسى،خاصة «سعدى و حافظ» الشيرازيين أثر فى «جوته» الألمانى فى ديوانه«الشرق والغرب»وكذلك الشاعر الألمانى «بلاتن» فى مجموعته «مرآة حافظ»،وقد قام المستشرق الألمانى «فيتزجرالد» بترجمة رباعيات الخيام.

ومن القصص الإسلامية الى أثرت فى آداب الغرب،قصة «حى بن يقظان» للأديب الطبيب الفيلسوف «ابن طفيل الأندلسى» فى القرن (٦هـ ـ١٣م) ، حيث تُرجمت للعبرية فى القرن(٨هـ ـ١٤م)وإلى اللاتينية فى القرن (١١هـ ـ١٧م) ، وترجمت من اللاتينية تحت عنوان : الفيلسوف المعلم نفسه إلى الإنجليزية ، وقد تأثر بها الكاتب الإسبانى«بلتاسار جراثيان»فى قصته «النقاد» كما يرى بعض المفكرين أن «دانييل ديفو» تأثر فى قصته «روبنسون كروز»بقصة ابن الطفيل ، لاسيما وقد انتهى بطلا القصتين إلى معرفة الله تعالى والاهتداء إليه ، وإدراك هيمنته على الكون ، وترجمت

«حى بن يقظان» الفرنسية والروسية فى مطالع القرن١٤هـ ؛ ولا يخفى مالـ «ألف ليلة وليلة» و«كليلة ودمنة» و«مقامات الهمذانى والحريرى» من تأثير فى الآداب الأوربية

بسم الله الرحمن الرحيم

وقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري
لصالح جائزة
خدمة الدعوة والفقه الإسلامي

شهادة

تشهد لجنة الجائزة المشكلة بموجب حجة الوقف رقم ٣٥٦٠ لسنة ١٩٩٥ توثيق الجيزة برئاسة المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة وعضوية مفتي جمهورية مصر العربية وأمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وأستاذين جامعيين

بأن السيد / الأستاذ / خالد محمد الأوسوي

قد فاز بجائزة عام ١٩٩٧ عن بحثه في موضوع :

الإسلام والفنون

وعلى الله قصد السبيل

يونيو ١٩٩٧

رئيس اللجنة وناظر الوقف

المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة

فهرس الموضوعات

الفصل الثانى

فن التمثيل ماهيته ، أهميته ، حكمه

الفصل الثالث

الغناء والموسيقى

الفصل الرابع

الفنون التشكيلية: الرسم ، التصوير ، النحت

الفصل الخامس

الفن القصصى والأدبى

رقـــم الإيـــداع ١٩١٥٣ / ٢٠٠٣ م

I.S.B.N. : 977 - 15 - 0444 - 4